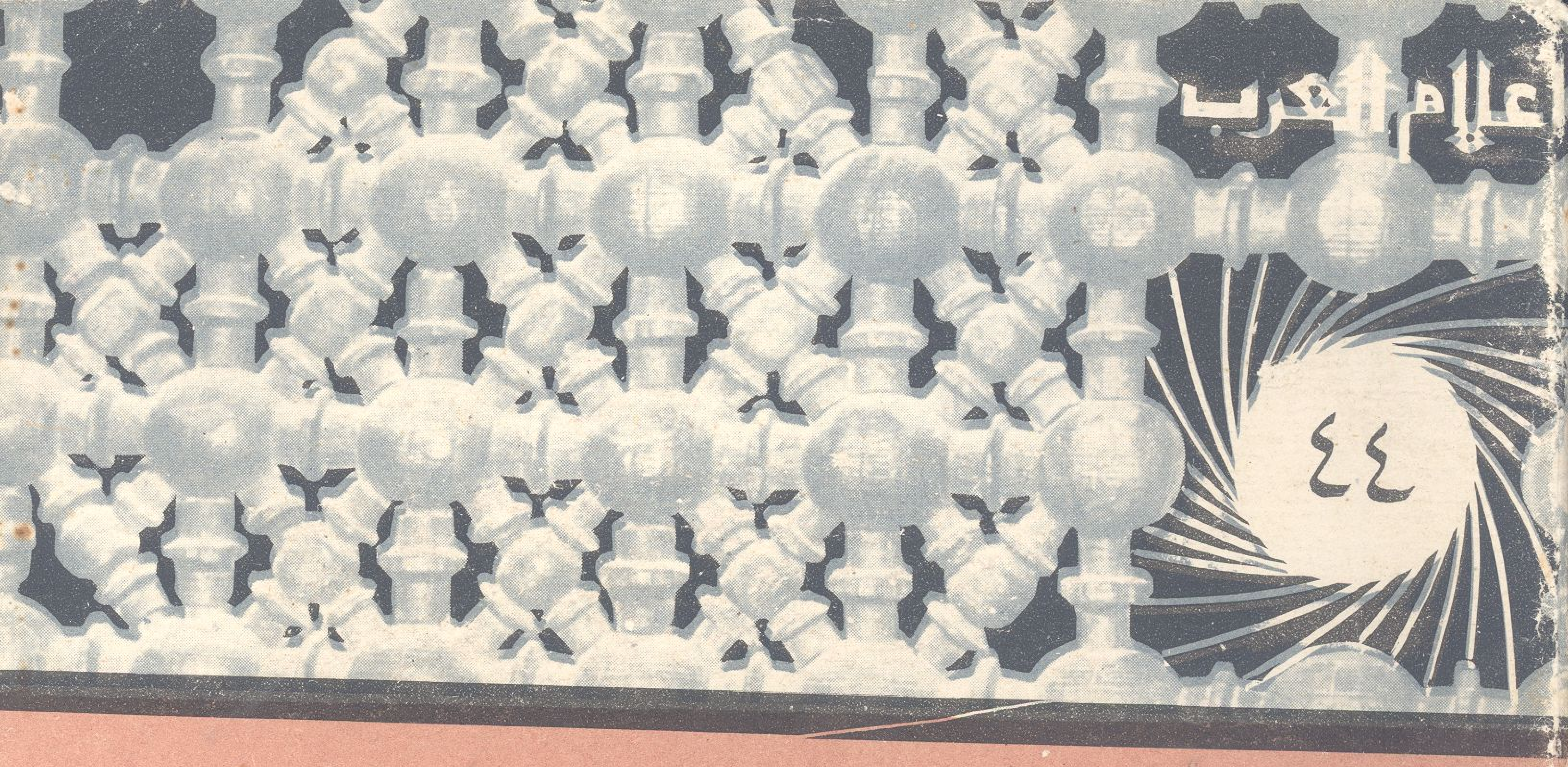


عبد العزيز جاويش

من رواد التربية والصحافة والاجتماع

تأليف
أنور الجندي

المؤسسة المصرية العامة
للتأليف والأنباء والنشر
الدار المصرية للتأليف والترجمة

أعلام العرب
٤٤

عبد العزيز جاويش

من رواد التربية والصحافة والاجتماع

تأليف
أنور الجندي

المؤسسة المصرية العامة
للتأليف والأنباء والنشر
الدار المصرية للتأليف والترجمة

تصـــدير

ما زال تاريخ الفكر العربى الحديث والمعاصر حافلا بعشرات من الأعلام فى مجال السياسة والصحافة والأدب والاجتماع .

وما زال البحث عن حياة هؤلاء الأعلام يكشف جوانب خصبة فى تاريخ أمتنا وتطور النهضة والثقافة فيها على نحو نحن أحوج ما نكون الى استجلائه ودراسته والانتفاع به ، فان هذا التاريخ القـريب فى الجيل الذى سبق جيـلنا جدير بأن يكون ميسرا مبسوطا ، لا تكتنف بعض جوانبه الغموض ، فعلى هدى من عوامل هده اليقظة التى انبعثت فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر بظهور جمال الدين الأفغانى فى المشرق واقامته فى مصر قد تفتح مجالا حيا نابضا بالحرية والتجديد فى مختلف ميادين الفكر والصحافة والوطنية والتعليم ، ولم يلبث هذا المجال أن تطور الى عديد من المدارس .. والأحزاب والجماعات التى حملت لواء النهضة فى العالم العربى كله ، وكتبت تلك الصفحة المشرقة من المقاومة للاحتلال والنفوذ الأجنبى .

* * *

وقد كان « عبد العزيز جاويش » واحدا من ثمار هـذه النهضة . فقد ولد عام ١٨٧٦ حين كان جمال الدين يؤسس مدرسته فما ان رسم به السن حتى شهد الاحتلال ، ولم يلبث أن انضم

الى الأزهر ودار العلوم ، وعاش أيام ما بعد الاحتلال حين بدأ يرتفع صوت « محمد عبده » الى الاصلاح الاجتماعى والتربية وصوت مصطفى كامل الى « الوطنية » ومن هذين المعينين استقى وتكون ، ونما ، وبدأت حياته تلك العريضة القصيرة التى عاش أغلبها منفيا أو سجينا ، وأقلها مناضلا فيما اعتقد أنه الحق .

ولقد لفت « جاويش » نظرى منذ بدأت دراساتى ، فى الأدب العربى المعاصر فذكرته فى كتبى : « الجباه العالية » ١٩٥٤ والنثر العربى المعاصر ١٩٥٩ وأعلام لم ينصفهم جيلهم ١٩٦١ .

وكنت قد وضعته فى ثبت الأعلام الذين رجوت أن أكتب عنهم مثل محمد فريد وجدى وعبدالعزيز الثعالبى وعبدالحميد بن باديس وغيرهم ؛ من مدرسة جمال الدين وتلامذته ، وذلك أمل ما زلت أتطلع اليه واعمل له ، ولقد وددت لو أتيح لى أن أفرغ جهدى كله للأعلام المنسيين من المجاهدين الذين ضاعوا فى غمرة الأحداث أو حجبهم ضياء القليلين ممن رفعت ذكرهم السياسة أو ظروف معينة قبل ثورة ١٩٥٢ فقفزوا بحق أو بغير حق الى مجال الشهرة والتبريز واختفى فى القاع كثير من المجاهدين المخلصين الذين لم يطمعوا فى أن يجعلوا عملهم وسيلة للمتاجرة والاعلان والتبريز .

ولقد رأيت فى مراجعاتى المتعددة كيف كان « جاويش » علما من الأعلام الذين اختلف فيهم الرأى فبريق يرفعه الى مرتبة الشهداء ، وآخر يراه عكس ذلك ، ولقد كان لابد من بحث حياة هذا الرجل الذى برز فى مجال التربية والتعليم والصحافة والسياسة والتجديد الاسلامى ، والذى كانت حياته صراعا عنيفا

بين القيم والمصالح ، والمثل والأهواء ، وقد اعتلج هذا الصراع نفسا عصبية عنيفة ، كونتها طبائع مختلفة فى البيئة العربية وغذتها ثقافة اسلامية عربية امتزجت بها ثقافة غربية ؛ فكان صاحبها عنيفا اذا أحب ، عنيفا اذا أبغض ، لم يكن رجلا سياسيا فيه مكر الساسة ودهاؤهم ، بل كان صادق الايمان مع نفسه ، قوى العاطفة ، يرى أن الدين والوطن فوق كل شيء ؛ ولقد تعددت الآراء فيه بين من وصفوه بأنه بسيط سهل الانقياد ومن رموه بأنه عنيد وماكر ، وقد حاولنا أن نكشف حقيقة هذا الرجل الذى وصف بالطموح والوصولية ، ومات وليس عليه غير جبته ، وليس فى بيته قرش ، لقد كان الطريق مفتوحا أمامه ، لأن يكون علما ومثريا ، ولقد بلغ أرقى المناصب ، وتركها غير آسف ، ليعمل فى مجال الصحافة المليء بالمتاعب والأشواك .

ان الطامعين الوصوليين انما يلتمسون الطريق الأنيق المفروش بالورد ، وهم لا يعادون الانجليز ولا القصر ، أما هو فقد عاش خصما لبريطانيا عنيف الخصومة ؛ وقد تعلم بها وأمضى فى أرضها سبع سنوات ، فاذا به نتيجة لعنفه يمضى فى الأرض مهاجرا طريدا ، أما الأمير فقد شرط ولاءه له بأن يخلص الأمير لأمته ، وقد عجزوا أن يحصوا عليه اتهاما واحداً بالرغم مما أثير حوله من الشبهات .

أما القضايا والمحاكمات العديدة التى قدم لها فقد خرج منها مبرءا وحين سجن ،كان سجنه مدبرا ، قصد أن يحال بينه وبين الحصول على ما يثبت براءته من وثائق كانت فى أيدى خصومه .

ولقد كانت خصومته لبريطانيا بالغة ، وكانت ترسم كل خطوط حياته ، وكان يرى انها تخدع العـرب والمصريين جميعا ، وأن وعودها لهم كاذبة وقد صدقت الأيام بعد الحرب العظمى الأولى نبوءته ، فقسمت بريطانيا الأمة العربية بعد أن أعطت مواثيقها ابان الحرب باقامة الدولة العربية .

وفى كل مكان ذهب اليه كان يعمل من أجل مصر ومقاومة النفوذ الأجنبى ، الذى كان يحتاج العالم الاسـلامى والعربى اذ ذاك فى عنف . ولقد كان جاويش على حد تعبير خصومه شجاعا وجريئا ، ولم يكن يخشى أحد سوى الله . وقد شارك فى كل حركة مقاومة ضد الانجليز واعترف شفيق منصـور فى قضية السردار بأن « جاويش » كان ضمن جمعية الاغتيالات ، وقد واجه خصومه بروح الاستعلاء على الحقد ، والارتفاع عن الكيد ، فاذا كانوا قد حقدوا عليه فقد ساعد أسرهم بعد عودته ، وكانوا يضمرون خصومتهم له ويظهرون ملقهم ، ولكنه كان اذا خاصم صارح وهاجم ، وكان ظاهره كباطنه ، كتاب مفتوح ، يؤمن بأنه « حارس » لا يغمد سلاحه ، وخفير لا تنام عينه .

ولم يكن « جاويش » رجلا عاديا ، بل كان مثقفا فى مثل هذه المرحلة من أوائل القرن ، أرسل فى بعثة الى بريطانيا لتقدمه فى اجازة دار العلوم وقد أحرز قدرا كبيرا من الثقافة ثم عاد الى بريطانيا مدرسا لرجالها ، وكان ذكيا فقيها ، عالما بأرقى نظريات الفكر والتربية ، دارسا لثقافات الغرب ، متفهما للاسلام والفكر العربى الاسلامى ، ومع ذلك فقد كان ولاؤه صادقا لأمته ، وكانت

أمانته للغة العربية والاسلام ومصر لا يعدلها شيء عنده ومن أجلها حارب وقاوم واغترب .

ولقد كان مفتشا للغة الانجليزية فى مدارسنا وهو معمم وقد ألف كتاب « مرشد المترجم » أول كتاب اهتدى به المدرسون للترجمة بين العربية والانجليزية ، ولقد دخل لابسا عمامته فصلا من الفصول مرة ، فظنه المدرس مخطئا وقال له هذه حصة الانجليزى ، فأمسك الكتاب وقرأ القطعة الانجليزية فى فصاحة وترجمها وسأل التلاميذ والمدرس ، حتى دهشوا .. فلما سئل : قال أنا مؤلف كتاب مرشد المترجم .

وعند ما رموه بالدعوة الى العثمانية والخلافة والجامعة الاسلامية صحح مفاهيمهم قال : « لو كان الذين رمونى بهذه التهمة ممن يعقلون لعرفوا ان الشرق برمته كتلة واحدة لا يسلم منه جزء الا بتماسكه هو وغيره ولا يمكن لأمة مهما بلغ عددها أن تفوز الا اذا اعتصمت بأختها المشاركة لها فى خصائصها » .

وفى كل ما أتهم به كانت الحقيقة تكشف عن نفس كريمة حتى وصفه المرحوم صادق عنبر بحق انه كان « كالحصن المنيع ترتد عنه حملات خصومه قبل أن تبلغه لأن بينه وبينها سدا من نبالة قصده » .

وكل الخلاف بينه وبين معاصريه أن الناس كانوا تابعين لجهة ما ، أما القصر أو الانجليز أما هو فلم يكن تابعا لأحد ، غير معتمد على أحد ، وكان هذا غريبا ومستغربا ولا يتقبله الناس ببساطة .

واذا كان قد رفض الوظيفة فانه رفض النيشان وقال « ان الذى يحمل وسام الشعب الذى أهدته اليه الأمة بعد خروجه من السجن لا يتسع صدره لوسام غيره » واذا كان قد فعل ذلك فانه رفض تقبيل يد الخليفة ، وعزف عن أن يرسل من سجنه خطاب اعتذار ليفرجوا عنه ، وقد كان فى الحزب الوطنى رئيسا لتحرير اللواء أو العلم أو الشعب ، ولكنه كانت له زعامته ومكانته فى العالم الاسلامى كمصلح وقائد ..

* * *

هذه هى الصورة التى حاولت أن أجلوها فى هذه الدراسة ولقد عشت سنوات طويلة وأنا أتابع حياة هذا الرجل ، وما لقينى باحث كريم الا وتطلع الى أن أكتب عن جاويش ولا أنسى دعوة الدكتور أحمد محمد الحوفى والأستاذ محمد عبد الغنى حسن والشيخ محمود أبو ريه وانى لأذكر يوم لقيت المستشرق الأمريكى أرثر جولد سميث ومعه قائمة بمقالات (جاويش) وهو يعاتب من أجل تقصيرنا فى نشر آثار هذا الرجل فقد أثار فى الأمل مجددا أن أتابع حياة هذا الرجل بالبحث لولا اننى كنت أقف طويلا ازاء مرحلة هجرته (١٩١٢ — ١٩٢٣) فقد كانت غامضة معماه لا سبيل الى الحصول على كثير من أخبارها ولكن هذه العقبة قد ذللت بعد لقائى بشقيق زوجته « الدكتور محمد فهمى الفولى » الذى عاش معه هذه الفترة بين استانبول وبرلين وقد أمدنى بالكثير من الوثائق وحقق لى بعض ما اتصل

بحياته من غموض . كما عاونني العميـد « آسـعد جاويش »
ابن صاحب الترجمة بذكرياته ومعلوماته .

وبعـد فما زلت أتطلع الى أن أمضى فى هذا المجال محققا
لحيوات هؤلاء الأعلام الذين أثروا فكرنا العربى المعاصر ؛ وقدموا
من حياتهم نماذج حية نحن فى أشد الحاجة اليها فى سبيل دعم
نهضتنا الجديدة .. الى الاحتذاء بهم والانتفاع بآرائهم وأفكارهم
التى ما تزال تنبض بالحياة .

الهرم فى ١٠/٢/١٩٦٥م

« أ . ج »

صورة العصر

— ١ —

لابد لكى نفهم حياة « عبد العزيز شاويش » واتجاهاته الفكرية أن نلقى الضوء على الجو الذى ظهر فيه ، وسنرسم صورة العصر الذى عاش فيه فقد كانت هذه الفترة بالغة الدقة ليس فى حياة مصر وحدها ، وانما فى حياة العالم الاسلامى كله ، فقد كان العالم الاسلامى كله هو المناخ الفكرى للرجل الذى نترجم له .

نحن الآن فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، الدولة العثمانية قائمة ، وحاكمها هو السلطان عبد الحميد منذ عام ١٨٧٦ الى ١٩٠٩ حيث أسقط وقام الحكم فى ظل الاتحاديين وامتد حتى وقع الانقلاب العسكرى الذى قاده مصطفى كمال ١٩٢١ ، وفى مصر تحكم أسرة محمد على ، وحاكمها فى هذه الفترة اسماعيل حتى عام ١٨٧٩ حيث تولى (توفيق) ؛ وفى خلال حكمه وقع الاحتلال الانجليزى لمصر عام ١٨٨٢ ، ثم تبعه (عباس) عام ١٨٩٢ ؛ وقد امتد حكمه الى عام ١٩١٤ ، عندما أعلن عزله وتولية السلطان حسين فالسلطان فؤاد (١٩١٧)

ومصر فى هذه الفترة وحتى الحرب العالمية الأولى (١٩١٤)

ولاية عثمانية تحدد هذا المركز معاهدة لندن المبرمة ١٨٤٠ ، والتى تنص على الاعتراف باستقلال مصر المكفول من الدول ، وضمان عرش مصر فى بقاء أسرة محمد على وبقـاء السيـادة العثمانية عليها .

وقد كان ظهور جمال الدين الأفغانى فى مصر (١٨٧١ — ١٨٧٩) عاملا ضخما من عوامل اليقظة الفكرية ؛ وعلامة عـلى ظهور تيار جديد قوامه الحرية والدعوة الى الحكم النيـابى والدسـتور ، والتخلص من النفوذ الأجنبى المتمثل فى سلطان الدولة الأجنبية المقنع وراء الامتيازات الأجنبية والسيطرة على الاقتصاد والارساليات ، والتحرر من الاستبداد السياسى المتمثل فى حكم الفرد ونفوذ الخديو وحاشيته ؛ والطبقة الأرستقراطية التركية .

ومن هذه النقطة تبدأ اليقظة ذات الطابع الاسلامى الواضح ؛ والداعية الى قيام ما يسمى « بالوطن » كشىء له طابعه الخاص المتميز داخل الدولة العثمانية ، فقد كان الحزب الوطنى الأول الذى كونه جمال الدين الأفغانى يحمل شعاره « مصر للمصريين » ، وكذلك جماعة مصر الفتاة ؛ وقد قامت هاتان المنظمتان فى أواخر عصر اسماعيل ، وبارشاده وتوجيهه . وأغلب الظن أن الحـزب الوطنى الأول — تأسس عام ١٨٧٩ ، وكان يقود حركة المعارضة داخل مجلس شورى القوانين ، وكان طابع برنامج هذا الحزب هو « ولاء الوطنيين للسلطان العثمانى وخديو مصر » والمحافظة — على العلاقات الحسنة — بين مصر والسلطنة ؛ وقد أعلن أنه

حزب سياسى يضم كل من يحرث أرض مصر ويتكلم لغتها » وكان هدفه هو محاربة النفوذ الأجنبى والاستبداد الداخلى .

وهكذا برز التيار القومى المصرى من خلال الاتجاه الاسلامى العام غير منفصل عنه ، ولكنه متميز بملامحه الخاصة .

* * *

وليس هذا هو الحزب الوطنى الذى أسسه مصطفى كامل وانما جاء ذلك بعده بربع قرن ، أو على وجه التحقيق عام ١٨٩٢ — بعد الاحتلال بعشر سنوات — وان كان قد أعلن رسميا عام ١٩٠٧ . ولم تكن مفاهيم الحزب الوطنى الذى أسسه مصطفى كامل — على اختلاف فى الوسائل — الا امتدادا للحزب الوطنى الأول — تفصل بينهما فترة الاحتلال البريطانى وسنواته العشر الأولى المليئة باليأس .

فقد أكد ثلاثة أمور تأكيدا حازما ، وجعلها أسسه التى لم تتغير :

١ — ايقاظ الأمة المصرية ككيان له طابعه الواضح الكامل .

٢ — مقاومة الانجليز ومخاصمتهم خصومة كاملة حادة لا تسامح فيها ولا مهادنة .

٣ — تأكيد الروابط الثقافية والروحية والسياسية مع الدولة العثمانية : دولة الخلافة .

ويمكن القول — على حد تعبير الدكتور أنيس صائغ[1] : —

---

(١) الفكرة العربية فى مصر : انيس صائغ ص ٤٩ .

« ان الحزب الوطنى كان مثلما كان كمؤسسة مصطفى كامل ، وخليفته فى الزعامة محمد فريد ، مصريا فى الدرجة الأولى ، واسلاميا فى الدرجة الثانية . وكان الحزب عندما يعالج قضية أى بلد عربى .. يعالجها من الزاوية المصرية ، أو الزاوية العثمانية الشرقية الاسلامية » وهنا تثار عدة مسائل أهمها الاتجاه القومى العربى ، والواقع أن المفاهيم القومية على النحو الذى نعرفه الآن لم تكن واضحة تماما فى هذه الفترة . ذلك لأن التطور الفكرى الطبيعى كان الى قبيل الحرب العالمية الأولى يقوم على مفهوم عام شامل بالنسبة للدولة العثمانية باعتبارها الاطار الذى يربط المنطقة كلها ، فلم يكن هناك حسب التطور الطبيعى للفكر السياسى أى اتجاه للانفصال عنها ، وانما بدأ التفكير فى صورة الأمة أو الوطن فى مصر مثلا دون أن يعنى ذلك أى انفصال عن الكيان الذى تمثله الدولة العثمانية .

وفى الشام (سوريا ولبنان) وقد بدأت فيها حركة — قيام كيان الأمة والوطن ، كانت المرحلة التى وصل اليها هذا التطور حتى عام ١٩١٤ هى ما أطلق عليه فى قرارات المؤتمر العربى الأول (الذى عقد فى باريس) قيام « الحكومة اللامركزية » التى تعطى للوطن السورى مقدراته السياسية من غير انفصال عن الكيان العام الذى تمثله الدولة العثمانية — ذلك لأن الرابطة بين مصر والدولة العثمانية ، أو بين الشام والدولة العثمانية لم تكن علاقة دولة مستعمرة بدولة محتلة — كالقياس مثلا مع انجلترا أو فرنسا فى احتلالهما لمصر وسوريا من بعد ، وانما كان المفهوم اذ ذاك ان

هناك قومية وطنية خاصة فى الشام تختلف عن تركيا نفسها قوامها اللغة العربية والجنس العربى .

والواقع ان التطور السياسى الفكرى كان يحمل طابع الجامعة الاسلامية أساسا ، وهو عمق الدعوة التى دعا اليها جمال الدين الأفغانى ، منذ أعلن صيحته حوالى ١٨٧١ (وحتى وفاته ١٨٩٧) .

ثم ظهر التيار القومى الذى يحمل طابع « الوطن » فى مصر غير منفصل عن الكيان الذى تمثله الدولة العثمانية حتى جاءت المرحلة العصيبة التى تعرضت لها (الشام) ، وكانت مصر قد سقطت تحت النفوذ البريطانى ، عندما اتسع نطاق الدعـوة الطورانية فى تركيا ، وجرت المحاولات لتتريك العناصر المختلفة فى الدولة ومن بينها العنصر العربى ، هنا برز التيار العربى قويا دافقا كرد فعل للتحدى وكعامل لمقاومة القضاء على « الكيان » ومن هنا بدأت فكرة القومية العربية تأخذ طابع التيار القوى الواضح الهدف .

وعندى أن الدعوة الى الجامعة الاسلامية — مثلها كالتيـار الوطنى القومى وكالدعوة الى القومية العربية ؛ وسائل وأسلحة اتخذتها هذه المنطقة لمقاومة النفوذ الأجنبى والحد من سلطانه ، وقد كشف مصطفى كامل عن هدف الجامعة الاسلامية [1] فقال انه لا يوجد مسلم متنور يعتقد لحظة واحدة ان الشعوب الاسلامية يمكنها أن تؤلف عصبة ضد أوروبا ، ان الحقيقة الساطعة الخالصة

---

(١) جريده الطان الفرنسية ــ ٨ سبتمبر ١٩٠٦ .

من كل شيء هي ان حركة الجامعة الاسلامية بالمعنى المقصود منها في أوروبا لا وجود لها بالمرة أما الشعور الموجود حقيقة وبلا نزاع عند كافة الشعوب الاسلامية فهو شعور انعطافها وحنانها لبعضها البعض ، وانه لما كان لتأخر الشعوب الاسلامية أسباب واحدة فان نهضتهم تكون بوسائل واحدة ، وان الاسلام ليس عقيدة دينية فقط بل هو قانون اجتماعي » .

فالجامعة الاسلامية في مفاهيم جمال الدين الأفغاني ، وفي مفاهيم من جاءوا بعده ، لم تكن الا عاملا من عوامل الترابط لمقاومة النفوذ الأجنبي ، وهو نفس الهدف الذي قصدت اليه الدعوات الوطنية في ابراز كيان « الوطن » ، كما فعل الحزب الوطني بقيادة مصطفى كامل عندما أعلن صيحته بعد الاحتلال البريطاني بعشر سنوات ١٨٩٢ في محاولة لايقاظ الروح المصرية التي أصابها اليأس بعد سقوطها بين براثن الاحتلال البريطاني بهذه العبارات العاطفية النارية : « بلادي بلادي : لك حبي وفؤادي ، لك حياتي ووجودي ، لك دمي ونفسي ؛ لك عقلي ولساني ؛ لك لبي وجناني ، فأنت الحياة ، ولا حياة الا بك يا مصر » .

وقوله : مهما تعددت الليالي وتعاقبت الأيام وأتى بعد الشروق غروب وأعقب الغروب غروب فاننا لا نمل ولا نقف في الطريق ، ولا نقول أبدا ، لقد طال الانتظار .

وقوله : لا الدسائس تخيفنا ولا التهديدآت توقفنا فى طريقنا ، ولا الشتائم تؤثر فينا ، ولا الخيانات تزعجنا ، ولا الموت نفسه يحول بيننا وبين تلك الغاية التى تصغر بجانبها كل غاية » .

وكان لهذه الكلمات أثرها فى نفس الشاب المتطلع الى الحياة ، بجهازه العصبى ، ونفسيته الطامحة المتطلعة الى المجـد : نفس « جاويش » فى أول خطاه نحو الحياة والفكر .

— ٢ —

وهنا تأتى مسألة على جانب كبير من الأهمية ، وهى علاقة الحزب الوطنى بالدولة العثمانية . هذا الأمر الذى يقف منه المؤرخون الآن موقف الاتهام للحزب الوطنى ، لمصطفى كامل ومحمد فريد وجاويش وغيرهم من قادة الرأى فى هذا المجال .

والواقع ان هذه المسائل حين تحاكم اليوم بمفاهيمنا المتطورة ، أو التى تطورت فى خلال أكثر من ستين عاما تحتاج الى بيان ذلك أننا الآن ، ونحن فى عصر استقلال ثورى متحرر نقول ما نشاء عن الاستعمار والاحتلال والنفوذ الأجنبى — لا نستطيع أن ننظر من زاويتنا الخاصة الى هذه الفترة وانما علينا أن نعود لنعيش فى جوها بكامل عوامله وظروفه حتى نصدر أحكاما صالحة .

فنحن الآن ننظر الى تركيا العثمانية وكأنها كانت دولة مستعمره ، بل ان البعض يضعها فى صف بريطانيا ، بينما لم تكن المسألة كذلك حقيقة ، ولم تكن العلاقة بين مصر والدولة العثمانية على هذا النحو ، بل كانت علاقة طبيعية بين الجزء والكل ، فى نطاق كيان موحد له طابعه الفكرى والسياسى أصلا ، وان تكن الأمور فى مصر قد تحولت بعد الاحتلال البريطانى ١٨٨٢ فأخذت صورة أخرى ؛ بينما كانت الأمور فى الشام تبدو فى موقف مغاير .

ونحن فى مصر بعد الاحتلال ، وعندما بدأت الحركة الوطنية تتعمق جذورها وتأخذ طابع المقاومة للانجليز مقاومة عنيفة أكيدة لم يكن موقف التعاطف مـع الدولة العثمانية الا تنفيـذا لخطة واضحة الدلالة فى مقاومة الاستعمار والنفوذ الأجنبى الذى كان حريصا على تمزيق هده الدولة واحتلالها قطرا قطرا ، وكان من الحصافة السياسية أن لا نحارب فى ميدانين ، فلابد لكى نحارب بريطانيا من أن نهادن الدولة العثمانية التى كانت هى الأخـرى موضع مؤامرة ضخمة للقضاء عليها وتمزيقها من الدول الأوروبية ، واذا كانت مصر قد سقطت عام ١٨٨٢ ومن قبلها سقطت الجزائر ١٨٣٠ وسقطت تونس ١٨٨١ فانما كانت الخطة الغربيه الاستعمارية هى تمزيق هذا الكيان والقضاء عليه والتهامه .

وآية ذلك ما كشف الوزير الرومانى جوفارا فى كتابه « مائة مشروع لتقسيم تركيا » والذى صور فيه مائة مؤامرة دبرت خلال ستمائة سنة للقضاء على الدولة العثمانية وتمزيقها . وقد بدا ذلك واضحا فى عدة خطوات :

• اتفاق بريطانيا وفرنسا سنة ١٩٠٤ على أن تطلق كل منهما يد الأخرى ، بريطانيا فى مصر ، وفرنسا فى تونس

• اتفاق سايكس بيكو ١٩١٧ الذى قسمت به بريطـانيا وفرنسا العالم العربى فيما بينها .

فقد كانت فكرة مقاومة الدولة العثمانية عاملا أساسا بهدف الى تمزيق هذه الدولة والقضاء عليها . وذلك لاستكمال مؤامرة

النفوذ الأجنبى فى تقسيم ميراث هذه الدولة والقضاء عليها ، وهو ما تحقق قبيل نهاية الحرب العالمية الأولى ، حيث استولت بريطانيا على العراق ، وفرنسا على سوريا ولبنان ، ومنح اليهود وعد بلفور لاقامة دولة فى فلسطين . وكانت السودان ومصر قد سقطتا من قبل فى قبضة بريطانيا ، وكذلك جنوب الجزيرة العربية والخليج العربى كما سقطت تونس والجزائر ومراكش فى قبضة فرنسا وأسبانيا ، وليبيا فى قبضة ايطاليا .

ولذلك كان من رأى المصلحين دعم هذه الروابط مع الدولة العثمانية وتقويتها بالرغم من كل أخطائها من أجل القضاء على مؤامرة النفوذ الأجنبى ، وقد كان على هذا الرأى جمال الدين الأفغانى والشيخ محمد عبده ، فقد كانوا يرون ان فى ضياع الدولة العثمانية وتمزقها قضاء على دولة الاسلام الكبرى التى تحمل لواء الخلافة .

هذا فضلا عن أن الحملات العنيفة التى وجهت الى الدولة العثمانية انما كان مصدرها ذلك الاتجاه الذى خلقه النفوذ الأجنبى ، وجند له عددا من الكتاب والمفكرين ، وأغلبهم من متعصبى اللبنانيين والأتراك ورجال الدونمة ممن هاجروا الى مصر ، وكانوا يعملون فى خدمة قصر عابدين والسفارتين البريطانية والفرنسية وفق مخطط معروف، يرمى الى القضاء على الاسلام واللغة العربية ووحدة الدولة العثمانية . ومن ذلك أن أول جمعية سرية تألفت لمقاومة العثمانيين عام ١٨٧٥ انما قامت فى الجامعة الأمريكية فى بيروت ، وقد حملت لواء الجهاد العربى

كوسيلة للقضاء على فكرة الجامعة الاسلامية من ناحية ، ولتمزيق الدولة العثمانية واسقاط دولة الخلافة الاسلامية . ولا يمنع هذا من القول بأن الدولة العثمانية قد أخطأت فى أمرين كبيرين :

الأول — (فى عهد عبد الحميد : حتى ١٩٠٩) : مقاومة تيار الحرية فى الشام والعراق ، وذلك بفرض نفوذ مضاد مع الاستبداد والقضاء على حرية الكلمة . .

الثانى — (فى عهد الاتحاديين) : تحول تركيا من سياسة الجامعة الاسلامية الى سياسة الجامعة الطورانية التى تهدف الى تتريك العناصر ، ومحاولة القضاء على العرب .

غير ان مصر كانت بعيدة عن النفوذ التركى ، ولها سياستها الخاصة حتى قبيل الاحتلال البريطانى لها . ولذلك كان ارتباط مصر بتركيا فى ظل حركتها لمقاومة النفوذ الأجنبى انما هو ارتباط بالمعسكر المعادى لبريطانيا ، فضلا عن أن تركيا لم تكن لها فى مصر مطامع ، وكانت قد أعلنت اعترافها باستقلال مصر .

وكانت مفاهيم الحزب الوطنى أنه ليس هناك ما يمنع من تلاقى القومية المصرية والعالم الاسلامى ، وان الدعوة للتحرر فى مصر وابراز شخصيتها ودورها وكيانها الخالص لا يحول دون الاحتفاظ بالاطار الواسع للروابط الاسلامية ممثلة فى كيان الدولة العثمانية ، وكان لهذا الاتجاه امتداد الى وادى النيل .

أما ما نفهم الآن من خلافات بين العرب والعثمانيين فانها لم تكن فى ذلك الوقت قد أخذت طابع الخصومة أو التمزق ، فقد كانت

مطالبهم حتى ذلك الوقت قاصرة على حكومة « لامركزية » ، ثم وقع الخلاف بعد ذلك ، فى خلال الحرب العالمية الأولى عندما أرسل الاتحاديون حاكمهم فى سوريا أحمد جمال الدين القائد العثمانى الملقب بالسفاح عام ١٩١٦ .

وقد دافع مصطفى كامل عن ما وجه اليه والى الحزب الوطنى من اتهام باتصاله بتركيا [1] وما جرى به الزعم من أنه من أنصار السيادة العثمانية وخلاصة مفهومه لهذه الرابطة هو انه ليس من الحكمة أن ينادى فى وقت واحد بجلاء الاحتلال البريطانى والغاء السيادة العثمانية عن مصر معا ، لأن معاداة تركيا فى ذلك الوقت كانت تؤدى حتمــا الى انضمام تركيا الى جانب انجلترا والى تنازلها عن سيادتها وهذا ما كانت تقصده انجلترا التى ما فتئت تسعى لدى تركيا لتتفق واياها على أن تتنازل عن سيادتها على مصر ، وقد كان الرأى أن يتركز الجهاد ضد الاحتلال البريطانى لأن الجلاء هو الرمز الحقيقى للاستقلال ، أما السيادة العثمانية فان التخلص منها من أيسر الأمور بعد التخلص من الاحتــلال خاصة وان هذه السيادة قد تراخت مع الزمن ، وكانت سائرة نحو الفناء ، ومن رأى الأستاذ عبد الرحمن الرافعى أن سـيادة تركيا الاسمية هى التى حالت دون اعلان انجلترا حمايتها على مصر من عام ١٨٨٢ الى ١٩١٤ ، فلم تعلن انجلترا هذه الحماية الا فى ديسمبر سنة ١٩١٤ بعدد دخول تركيا فى الحرب العالمية وسقوط السيادة العثمانية على مصر .

---

(١) عبد الرحمن الرافعى : فى كتابه مصطفى كامل ص ٣٣٧ .

وغاية الرأى فى هذا هو أنه كان على مصر أن تكون حسنة العلاقة مع تركيا حتى لا تعقد تركيا مع بريطانيا اتفاقا شبيها بالاتفاق الودى الذى عقدته بريطانيا مع فرنسا .

ولقد أعلن مصطفى كامل موقفه صراحة فى هذا المجال [1] « صرحنا ألوف المرات بأننا نريد مصر للمصريين ، أما انعطافنا أو نفورنا من دولة ما فانه لا يؤثر شيئا على هذا المبدأ الرئيسى لحياتنا وأفعالنا » .

* * *

وجملة القول فى هذا :

١ — أن مفهوم الانفصال عن الدولة العثمانية لم يكن من الأمور التى تخطر بالبال أو تتطرق الى الذهن حتى من أشد من واجهوا خصومتها ؛ فقد كانوا يطالبون بقيام نظام اللامركزية .

٢ — كان الحرص على بقاء الروابط بين المصريين والعثمانيين من الأمور المسلم بها والتى لم يتعرض لها جمال الدين الأفغانى أو محمد عبده أو لطفى السيد ، وذلك باعتبار الدولة العثمانية قوة تمثل الرابطة السياسية الاسلامية دون أن يمنع ذلك من قيام الدعوة الوطنية .

---

(١) جريدة اللواء — ٤ أكتوبر ١٩٠٧ م

— ٣ —

وبعد : فما صورة مصر السياسية والفكرية فى هذه المرحلة ؟

لقد احتلت بريطانيا مصر عام ١٨٨٢ وانتهت الثورة العرابية بالهزيمة ، وتحول وجه مصر بعد الاحتلال الذى استطاع أن يسيطر عــلى كل شيء ويضع يده على مختلف القوى فيوجهها لخدمة نفوذه وأهدافه .

ولم تلبث بريطانيا أن بسطت سيطرتها الماليــة والادارية وألغت الجيش الوطنى مع تكوين جيش برئاسة سردار انجليزى ، ووضعت عــلى رأس البوليس قومندانا انجليزيا وألغت المراقبة الثنــائية وعينت مستشارا ماليــا انجليزيا ، وألغى الدســتور والمجلس النيابى ، واستبدل بهما مجلس شورى القوانين ، وعين فى كل وزارة مستشار انجليزى له سلطة الوزير ، وأخلى السودان ثم أعيد فتحه باسم مصر ولحساب بريطانيا .

وركزت بريطانيا استعمارها عن طريق مجموعة من الأعيان فى الأقاليم وزعت عليهم مساحات ضخمة من الأراضى ، وأطلق عليهم اسم « أصــحاب المصالح الحقيقية » من هؤلاء الذين جمعهم سلطان باشا بعد الاحتلال وقدموا للقائد البريطانى هدية تذكارية اعترافا بفضل بريطانيا فى انقاذ البلاد وعاشت مصر عشر سنوات فى ظل الاحتلال حياة اليأس القاتل ، لم يرتفع فيها صوت حتى

عـام ١٨٩٢ حيث برز اسم مصطفى كامل لأول مرة يحمل كلمة الوطنية ، ويوقظ النفوس بعباراته الحارة الحماسية العاطفية التى هزت القلوب .

فى هذه الفترة ماذا كانت صورة الحياة الفكرية والسياسية لمصر :

كان جمال الدين الأفغانى قد وقع فى الفخ الذى نصبه له السلطان عبد الحميد فأقام فى القسطنطينية فى سجن اختيارى ؛ بينما عاد محمد عبده من المنفى ليعمل فى القضاء .

وكان كرومر ما زال فى مركزه يصرّف الأمـر (١٨٨٣ — ١٩٠٧) وقد أعطى الحكم فى مصر لوزارة مصطفى فهمى (١٨٩١ — ١٨٩٢) و (١٨٩٥ — ١٩٠٨) حيث أمضت فى الحكم أكثر من خمسة عشر عاما ، وهى كما أطلق عليهـا وزارة الاستسلام المطلق ، حيث أجرت تصفية كل ما تملك البلاد ، فبيعت البواخر المصرية بأبخس الأثمان ؛ وأعطت ٣٠٠ ألف فدان من أمـلاك الدائرة السنية الى شركة سوارس مقابل ٦ مليون و ٤٠ ألف جنيه ووقعت اتفاقية السودان ومضى كرومر يرسم سياسة بعيدة المدى للاحتلال البريطانى لمصر : قوامها محاربة اللغة العربية ، والطعن على الاسلام ، وايقاف التعليم فى المدارس الا لأبناء طبقة معينة تستطيع أن تدفع « المصاريف » وأعطى لدنلوب مستشاره فى وزارة المعارف السلطة الكاملة للقضـاء على أهـداف التعليم الأساسية ولتحويله لتخريج موظفين .

واستطاع أن يخلق طبقة من أعوانه الذين تولوا الحكم ، أمثال مصطفى فهمى وفتحى زغلول وبطرس غالى .

أما الخديو عباس فقد حاول الاستفادة من الحركة الوطنية لتحقيق مطامعه الشخصية فآزرها ، فى محاولة لمقاومة خصومة كرومر العنيفة ، فقرب مصطفى كامل وشد أزره حتى اذا ما ذهب كرومر ولوحت له بريطانيا بسياسة جديدة ترمى الى اطلاق يده بواسطة « غورست » خليفة كرومر ، أدار ظهره للحركة الوطنية وقاومها وأعاد قانون المطبوعات القديم .

ويمكن القول بأن التيارات الوطنية والسياسية والفكرية التى ظهرت بعد الاحتلال كانت تتمثل فى هذه القوى :

١ — الطبقة الأرستقراطية التركية : ممثلة فى الخديو والقصر والطبقة التركية التى خلقها حكم أسرة محمد على ، وكانت هذه الطبقة مرتبطة بفرسا وتركيا .

٢ — الطبقة الأرستقراطية المصرية : هذه الطبقة التى خلقها الاستعمار البريطانى واصطفاها من الباشوات ومن أسماهم أصحاب المصالح الحقيقية

٣ — طبقة الشعب والقوى الوطنية : وقوام هذه الطبقة الشبان والطلبة وجمهور الشعب .

ولقد كان بروز التيار الوطنى الذى حمل لواءه مصطفى كامل عاملا هاما من عوامل اليقظة ، وقد مر بثلاث مراحل (١) الدعوة العامة بالكتابة فى الصحف وحضور المؤتمرات الوطنية فى أوروبا

منـذ ١٨٩٣ (٢) انشاء جريدة اللواء عام ١٩٠٠. (٣) انشاء الحزب رسميا ١٩٠٧ .

وقد كان مصطفى كامل حفيا بألا يقسم وحدة الأمة باعلان الحزب ، غير أنه اضطر الى ذلك اضطرارا ، على أثر تصريحات كرومر التى دعا فيها الى ظهور فئة من المصريين تلتقى بالانجليز فى منتصف الطريق ، فأعلن قيام حزب الأمة ، من رجال الطبقة الأرستقراطيه المصرية الجديدة التى أطلق عليها لقب أصـحاب المصالح الحقيقية ، وتلا ذلك ظهور حزب الشيخ عـلى يوسف صاحب المؤيد المسمى « حـزب الاصـلاح على المبـادىء الدسـتورية » وفى خطـاب لمصطفى كامل الى محمـد فريد (١٩٠٧/١٢/٢٧) قوله :

« ان ظهور حزب الأمة من أولئك الذين خبرنا نفسيتهم وميلهم الى مسايرة المحتلين وفقا لما يسمونه سياسة « اللين والتدرج » وان ما علمته كذلك من عزم صاحب المؤيد على تأليف حـزب باسم الاصلاح لخدمة سياسة السراى ، هذان الأمران يحتمان علينا كل التحتيم أن نظهر حزبنا الوطنى بالرغم منا فى مظهـره الحقيقى ، حتى يعلم العالم كافة ان للوطن المصرى حزبا يطلب بعزيمة صادقة « الجلاء والدستور » ، أى أنه لا يعقل حـكم الأجنبى ولا حكم الفرد ، عاملا لاستقلال بلاده وحرية أمتـه باستردادها حقها فى الاشراف على أمورها العامة » .

* * *

وهكذا برزت بوضوح ثلاثة اتجاهات عامة هى :

١ — القصر وطبقة الأرستقراطيين الأتراك وتمثلها جريدة المقطم وجريدة المؤيد وحزب الاصلاح على المبادىء الدستورية .

٢ — طبقة الأرستقراطيين المصريين والسراى والأعيان وتمثلها جريدة « الجريدة » وحزب الأمة .

٣ — جموع الشعب : وتمثلها جريدة « اللواء » والحزب الوطنى .

* * *

أما تيار الخديو والطبقة الأرستقراطية التركية فالمعروف أنه كان حريصا على بقائه ومصالحه ، ولذلك فان جريدة « المؤيد » الاسلامية الوطنية التى كانت تقاوم الانجليز وتهاجم كرومر ، سرعان ما تحولت بعد ظهور وفاق الخديو مع (الدون غورست) تحولا وصل الى قمته عندما قصد الشيخ على يوسف الى بريطانيا وخطب فى لندن وأعلن انها — أى لندن ، هى كعبة السياسيين المصريين .

وقد ظلت « المؤيد » موالية لاتجاه الخديو وسياسته تدافع عن أهوائه وتهاجم خصومه ، فهو يشيد بالسلطان اذا حسنت العلاقات بين عابدين والآستانة والا فانه يتجاهله تجاهلا تاما ..

ويرى العقاد [1] ان قوام حزب الاصلاح كان طائفة من الأعيان والموظفين وطلاب الوظائف الذين أقبلوا على صاحب المؤيد

(١) أخبار اليوم ١٩٤١/٧/١٦ « قصة الأحزاب » ..

بعد سياسة الوفاق لأنهم شعروا بنفوذه فى الدوائر الحكومية ، وعلاقاته الوثيقة بالقصر الخديوى ، وبقصر الدوبارة (مقر السفارة البريطانية) .

* * *

أما حزب الأمة فقد كونته مجموعة من السراة والأعيان من بينهم (محمود سليمان وحسن عبد الرازق وأحمد فتحى زغلول وعبد الرحيم الدمرداش وعبد العزيز فهمى وعلى شعراوى وعمر سلطان) وجمعوا لذلك ٢٠ ألف جنيه .

وقد ذكر لطفى السيد فى مذكراته : رأينا أن تكون هـذه الجريدة ملكا لشركة من الأعيان أصحاب المصالح الحقيقية ، كما كان يصفهم كرومر وغيره من الانجليز بأنهم راضون عن الاحتلال ساكتون عن حقوق مصر وأن الحركة المعارضة للاحتلال انما يقوم بها من ليس لهم مصالح حقيقية فى البلاد ، وقد أعلن حزب الأمة عن مبادئه العشرة : أولها استقلال مصر كما قررته معاهدة لوندرة عام ١٨٤٠ ، وضمنته الفرامانات السلطانية ومن مبادئه . بذل الجهد لتقوية علائق المحبة ، والارتباط والتعلق التام بين مصر والدولة العلية وانماء علائق المحبة بالثقة بين مصر ودول أوروبا .

ومعنى هذا ان حزب الأمة قد واجه الحقيقة القائلة بالارتباط بين مصر والكيان القائم باسم الدولة العثمانية ولم يخرج عنه ولما كان حزب الأمة وصحيفة الجريدة يمثلان الطبقة الأرستقراطية المصرية الجديدة التى كونها الاستعمار البريطانى ، فقـد كان طبيعيا أن تكون سياسته هى « محاسنة » الاستعمار ، أو على

حد تعبير لطفى السيد « السلطة الفعلية » ، باعتبار ان الخديو هو « السلطة الشرعية » ، وكان رأيهم هو : قبول الأمر الواقع ، ومسالمة الاحتلال ، واقامة الوطنية على أساس المنفعة والمصلحة .

ويختلف اتجاه حزب الأمة مع الحزب الوطنى اختلافا واضحا بعيد المدى فبينما الحزب الوطنى يؤمن بسياسة العداء الصريح لبريطانيا ، يؤمن حزب الأمة بسياسة التفاهم والمحاسنة .

ولقد كانت مفاهيم هذا الحزب مفاهيم أرستقراطية أساسا ، فهو يقاوم تعليم سواد الأمة ويعارض مجانية التعليم ، وذلك حتى يمكن المحافظة على وجود طبقة معينة ، فضلا عن انه دعا الى احياء العامه ، والتقليل من أهمية اللغة العربية الفصحى .

ويكفى فى وصف فلسفة حزب الأمة ودعاتها وجريدتها ما أطلقه كرومر عليهم حين دعاهم « جماعة المفكرين بعيدى النظر الذين كان اتجاههم الى كسب التقدم الدستورى بطريقة معتدلة ، والتى تدعو الى تحقيق الأمانى الوطنية باتفاق يحدث بين الاحتلال وبين أعيان المصريين (وحدهم) لأنهم أصحاب المصالح الحقيقية وتدعو الى الرضا بكل ما يكسبه الوطنيون من هذا الاحتلال ، حتى تتوافر الكفايات للحكم الذاتى »

وقد أشار الدكتور هيكل فى مذكراته السياسية (ج ١) الى ما وجه لحزب الأمة من اتهامات وقال : « نمى الينا أن صحيفه جريدة لسان حزب الأمه كانت تتقاضى من الانجليز مرتبا ضخما فى كل شهر لتناوىء الحركة الوطنية وتقضى على النهضة [illegible] » والدكتور هيكل هو عميد لطفى السيد وقريبه

وورث الجريدة وحزب الأمة بعد الحرب الكبرى الأولى اذ خلفتهما جريدة السياسة وحزب الأحرار الدستوريين .

ويبقى فى الميدان الفكرى بعد ذلك : جريدة « الأهرام » تدافع عن نفوذ فرنسا وتلوذ بها الطبقة الأرستقراطية التركية التى لا تعرف اللغة العربية ، وتأنف من المصريين .. وتطلق عليهم اسم « الفلاحين » وجريدة « المقطم » التى تدافع عن النفوذ البريطانى ، ويلوذ بها أنصار الاحتلال . وهى تهاجم « المؤيد » لأنه يناصر الخديو و « الأهرام » لأنه يناصر النفوذ الفرنسى ، و « اللواء » لأنه يخاصم الانجليز ، وقلما كان الخلاف يقع بينها وبين جريدة « الجريدة » لأنهما يسيران فى خط واضح قوامه الالتقاء بالانجليز .

ومن الناحية الأخرى يبدو نفوذ « الأزهر » ورجاله ممثلا فى الشيخ محمد عبده وحصومه ، أما الشيخ عبده فانه بعد فشل الثورة العرابية ونفيه الى الشام واصداره « العروه الوثقى » مع جمال الدين الأفغانى فى باريس قد سمح له بالعودة الى مصر ، وبدأ يشق طريقا جديدا مغايرا لطريقة الأول من حيث الأسلوب ، فقد حيل بينه وبين التعليم ، والحق بالعمل فى القضاء ، وكان قد أخذ يدعو الى اسلوب جديد فى الاصلاح ، وهو « التربية » كوسيلة للتثقيف ، وتكوين رأى عام مثقف ، يكون قادرا على تولى السلطة الداخلية بالتدريج ، وهو نفس المنهج الذى حمل لواءه من الناحية السياسية حزب الأمة وجريدة « الجريدة » وقاد الدعوة ليه « لطفى السيد » .

وهنا تبدو الصورة ؛ أمامنا واضحة على هذا النحو :

• معسكر « دعاة التعقيل » وقبول الأمر الواقع — الذى هو الاحتلال — ومحاولة الاستفادة بكل الوسائل فى سبيل التطور البطىء ، وهذا المعسكر ينقسم الى مراحل وطبقات أدناها أنصار بريطانيا كأصحاب المقطم ، وأعلاها الشيخ محمد عبده ولطفى السيد .

• معسكر الايمان بالوطنية المصرية ، وخصومة الانجليز خصومة سافرة ، وعدائهم عداءا صريحا ورفض التفاهم معهم رفضا باتا ، واعتبار كل من يتعاون معهم خارجا على الوطنية ، ومنحرفا وطامعا ووصوليا .

وقد أجمع أغلب [1] الباحثين والمؤرخين على أن الحزب الوطنى كان حزب الثورة الصريحة على الاحتلال من غير هوادة ولا اعتدال وانه كان أكثر الأحزاب ، أنصارا وأقواها أثرا فى ايقاظ الشعور ، وتبغيض الاحتلال البريطانى الى النفوس .

وقد ظل هذا الحزب وصحيفته اللواء يقظا يكشف كل دخائل الأمور ودسائس الانجليز : ويهاجم موقفهم من التعليم وقناة السويس ، وحادث دنشواى ، ونفوذ المستشارين الانجليز الذين هم الوزراء الحقيقيون ، ومؤامرة اخلاء السودان واحتلاله من جديد .

---

(١) عباس محمود العقاد ـ الأخبار ١٩٦١/٧/١٦ .

ولا شك ان الحزب الوطنى ليس حزبا ، وانما كان هو التيار الوطنى الحقيقى الجارف لولا ان الاستعمار البريطانى بمكره ودهائه استطاع أن يخلق تيارا وسطا يمثل السراة المصريين وأبناء البيوتات والأرستقراطيين ، وجعل من جموعهم قوة فكرية تحمل طابع الاعتدال والمحاسنة [1] والتعقيل [2] ، وكلها عبارات تهدف الى قبول ما يعرضه الاحتلال .

ولقد كان موقف الحزب الوطنى واضحا وصريحا من كل الجهات التى اتصل بها ، فما كادت فرنسا تتفق مع بريطانيا حتى نبذ اليها على سواء .

وما كاد الخديو عباس ، الذى أولى الحزب الوطنى معونته ومساعدته يتحول عن الاتجاه الوطنى ، حتى أعلن مصطفى كامل انه ابتعد عنه « لما رأيت رغبة سموه فى توطيد العلاقات الحسنة بينه وبين ملك الانجليز وحكومته ، وجدت من واجباتى أن أكون بعيدا عن سموه ، وان أتحمل وحدى مسئولية الخطة التى أتبعها نحو الاحتلال والمحتلين » .

وانتقد وقوف الخديو تحت العلم البريطانى فى حفل استعراض الجيش الانجليزى فى ميدان عابدين (نوفمبر ١٩٠٤) .

---

(١) « محاسنة » الاستعمار تعتبر معروف ومتداول فى هذه الفترة .

(٢) « التعقيل » دعوة معروفة ومشهورة وهى مضادة لدعوة مصطفى كامل فى الحماسة الوطنية .

(٣) اللواء ــ ٢٧ أغسطس ١٩٠٤ .

ولا شك ان الحزب الوطنى ليس حزباً ، وانما كان هو التيار
الديلى تلغراف ، فقال انه ، أى الخديو ، نفى عن نفسه تهمة
العمل ضد الاحتلال وانه ذكر اللورد كرومر بالخير ، وقال انه
مستعد للتعاون مع العميد البريطانى ، وأنه لا فائدة للمصريين
من استبدال احتلال باحتلال ، وان الاحتلال البريطانى أفضل
من أى احتلال آخر » [٢] .

وهكذا مضى الحزب الوطنى وحده ، وهو القوة المقاومة
للانجليز علانية وصراحة وبصوت عال وبدون مواربة .

وهكذا واجه الحزب الوطنى أعنف خصومة من الاحتلال
البريطانى فى مقاومة صحفه ورجاله واضطهاد كتابه ومحاكمتهم
وسجنهم .

وفى ظل هذا الجو ، المضطرب ، وفى هذا المناخ الفكرى
الحاد ظهر « عبد العزيز جاويش » الذى كان فى سن السابعة
عشرة وقد سمع صوتين كان لهما وقعهما فى نفسه ، فعاش معهما
مدى حياته هما : صوت محمد عبده وصوت مصطفى كامل .

---

(٢) الديلى تلغراف (١ مايو ١٩٠٧) .

معالم حياته

١ - مرحلة الاستطلاع والتكوين

٢ - مرحلة التألق

٣ - مرحلة الهجرة والاغتراب

المرحلة الأولى
مرحلة الاستطلاع والتكوين

— ١ —

تعطى مطالع حياة * ((عبد العزيز جاويش)) صورة النوابغ الذين يولدون وبذاتهم خلق متميز ، له استعداده وطابعه وكفايته ، فاذا هو متطلع الى أن ينفصل عن بيئته ، طموح الى آفاق جديدة واسعة.
ولقد كان النوابغ دائما يخرجون عن مفهوم الوراثيات والبيئة ، وكان للتكوين النفسى الممتاز أثره الواضح فى الخروج عن الخط المرسوم ، أو الاتجاه الطبيعى الذى تسلكه الأسرة . وهذا يعطى مفهوم ((الطابع الذاتى)) الذى يتميز به النوابغ والأعلام فى مطالع حياتهم عن أبناء جيلهم ، فى ذلك القلق الواضح لتطلعات أوسع مـــدى .

ومن هؤلاء عبـــد العزيز جاويش الذى اســتطاع أن يبرز بالرغم من الظروف القاســية المفروضة فى أواخــر القرن الماضى من حيث ضعف التعليم ، وكثرة تكاليفه ، وقسوة الاجراءات التى اتخذها الاستعمار البريطانى للبلاد اذ ذاك من أجل القضاء

---

* ولد جاويش فى ٣١ أكتوبر ١٨٧٦ على الأرجح وذكرت بعض المصادر أنه ولد عام ١٨٧٢ وفى محضر محاكمته عام ١٩٠٨ أدلى بأن سنة ٣٦ سنة ... ويقول ابنه أسعد شاويش عنهم احتفلوا فى أكتوبر ١٩٢٩ بعيد ميلاده الثالث والخمسين .

على الكفايات الفردية ، حيث لم يكن يجد الفرصة غير السراة وأبناء البيوتات التى أيدت الاحتلال ووالته .

كانت الاسكندرية بعيدة عن مجال النهضة الثقافية اذ يقتصر التعلم فيها على المدارس الأولية ومكاتب تحفيظ القرآن وحلقات المساجد والزوايا وبينما كانت أسرة جاويش معنيـــة بالتجـــارة والأعمال المحلية وحيث اتجه اخوته الى هذا العمل الموروث ، نرى أن عبد العزيز لا يجرى مع هذا التيار ولا يستجيب لرغبة أهله فى أن يترك التعليم الى التجارة ، بعد أن حصل منه عـــلى ما يكفى فقد حفظ القرآن وتعلم أصول اللغة العربية وأخذ من الثقافة الاســـلامية واذا به يصمم على أن يتم تعليمه ، واذا به مصر على رأيه مختلف مع أهله وذويه واذا به يغضب من أجـــل تطلعاته الثقافية فلا يبالى أن يقيم فى جامع الشيخ ابراهيم الذى كان يتعلم فيه ، منفصل عن أهله منقطع عن الأسرة ، فلا يصله بها الا مربيته السوداء التى كانت تعطف عليه خلال فترة الانقطاع عن بيت الأسرة ؛ فلما رأى منه والده تصميمه الأكيد ، سمح له بالسفر الى القاهرة ليجاور فى الأزهر الشريف فسافر فى صحبة صديق صـــباه حسن منصور أحد أساتذة دار العلوم من بعد . فوصل القاهرة عام ١٨٩٢ حيث بدأ حياته الجديدة .

وهكذا استطاعت كفايته الشخصية وطموحه أن ينتزعاه من البيئة الأولى ليبدأ رحلة شاقة فى مجال واسع طويل المدى .

وقد كانت أسرته تعيش حياة بسيطة ميسورة ، قوامها رزق التجارة والتبادل مع الحدود وطابعها الخلق والاستقامة ، ولم يكن

ثغر الاسكندرية فى هذه الفترة الا مزيجا من مهاجرى المغرب والصعيد ، يختلطون مع الأجانب الوافدين من بلاد الغرب ، والذين زادوا زيادة واضحة فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر مع ازدياد النفوذ الأجنبى .

أما المغاربة فقد كانوا ممتزجين بالوطنيين امتزاج الفكر والروح ، اذ كانت المنطقة مفتوحة بغير حدود ، وكان أهالى طرابلس وبرقه وتونس يصلون الى مرسى مطروح والسلوم والاسكندرية ، كما كان يفعل ذلك أهل الاسكندرية ومرسى مطروح .

ولهذا انصهرت فى بوتقة هذا الشمال الافريقى عشرات الأسر المصرية والطرابلسية والتونسية والجزائرية والمغربية وامتزجت ؛ حيث لم تكن هناك فواصل فى الأرض أو فوارق فى الجنس أو الفكر ، حيث كانت هذه الأمة كلها على امتدادها شرقا وغربا ، أمة واحدة طابعها اسلام ولسان عربى وأخوة وجواز سفر مفتوح يذهب به من يعرف الكلمة العربية الى الدار البيضاء أو الى مكة أو الى الرافدين أو ما بعدهما لا يطلب منه تأشيرة دخول أو جواز مرور .

ولقد جاء جده حسن جاويش فى الأغلب من جنوب تونس مضى مع غيره متنقلين بالتجارة حتى بلغوا « بنغازى » فاستقروا فيها ثم أصهروا الى أهلها حيث ولد بها خليل جاويش سنة ١٨٣٤، الذى قدم الاسكندرية فاستقر بها وتزوج منها وأنجب ولده عبد العزيز وأخوته (محمد وأحمد وعبد اللطيف) الذين اختارهم

للتجارة ، حيث أصر عبد العزيز على أن يواصل العلم .. فأتيح له أن يرد القاهرة فى عام له طابع واضح وذكر معروف فى تاريخ الوطنية المصرية ، وهو عام ١٨٩٢ وهو فى سن السادسة عشرة . وقد أكمل حفظ القرآن الكريم ، ومعه تلك النفس المشرقة ، والوجه السمح ، والعقل الذكى النابه المتطلع .

ولابد كانت فى أعماقه صورة حية للاحتلال البريطانى الذى شهدته الاسكندرية وهو فى السادسة من عمره طفل يلعب ، وقد غامت الدنيا بقنابل الأسطول البريطانى تدك القلاع ، وتهز الميناء .. ثم تلك الصفحة القلقة من الاضطراب والمقاومة حين زحف عرابى ليقاوم الانجليز فى كفر الدوار .. وانتصر عليهم .

تلك كانت أيام قلقة مضطربة لابد انه عاشها وعاشت فى أعماقه وأحاسيسه ، وقد اضطر الناس الى أن يغلقوا أبوابهم ويترقبوا الأحداث فى خوف ، بينما كانت تلك الخيول الصهالة والقبعات الحمراء تجوب الأماكن لترهب الأهالى ولتعلن أن نفوذ بريطانيا قد سيطر ، وأن أعلامها وراياتها قد خفقت فوق الموانى والبواخر والقلاع وقد استبطن جاويش هذه الصورة العاصفة فى أعماقه ، فعاشت مختلطة بمشاعره تحمل طابع الخصومة للدخلاء ، وتحاول أن تجد منفذها فى محاولة لتأكيد الذات .

ولقد كان الأزهر فى هذه الفترة يحاول أن يجدد نفسه ، وتضطرم فى أعماقه روح وطنية ، فقد كان دائما بؤرة الثورات وحركات اليقظة ، وكان عرابى من أبنائه ، وكان الشيخ العدوى

الذى واجه الاستعمار البريطانى والخديو بالخصومة من رجاله .
وما زال الأزهر يذكر تاريخه القديم ابان حملة نابليون وعزل الوالى التركى خورشيد ، ومقاومة سلطان الفرنسيين واستبداد المماليك والحكام الأتراك ..

ذلك مظهر الأزهر الحقيقى ، الذى كان يستيقظ فى عام ١٨٩٢ بعد عشر سنوات من الاحتلال ، وما تزال أنفاس جمال الدين الأفغانى قريبة منه ومن رجاله ، وهو الذى هز الدنيا وأثار الحياة الفكرية ، وخلق جوا من التمرد على الحاكم المستبد والنفوذ الأجنبى ، ودعا الى حرية الفكر وانطلاقه من قيود التقاليد ، وخلف رعيلا من تلاميذه الذين كانوا يستمعون الى محاوراته فى قهوة (متاتيا) بجوار البوستة العمومية بالعتبة ، وما يزال ذكر الثورة العرابية التى انهزمت بفعل الخيانة ، وعرابى الذى نفى مع صحابته محمود سامى البارودى ومحمود فهمى وعبد العال حلمى ..

ما زال هذا كله حيا فى الأذهان ، فلقد كانت الثورة العرابية ثمرة من ثمار اليقظة التى بعثها جمال الدين الأفغانى ، وكان الشيخ محمد عبده قد عاد من منفاه قبل ذلك بسنوات قليلة عام ١٨٨٨ ، حيث عين قاضيا فى المحاكم الأهلية الابتدائية فى بنها ، ثم فى الزقازيق ، الى أن عين مستشارا فى محكمة الاستئناف بالقاهرة ١٨٩٠ وكان فى هذه اللحظة ما زال راغبا فى مكانه فى التعليم حيث كان من قبل فى دار العلوم التى أنشأها ، واذا كان قد حيل بينه وبين ذلك ، فقد أجرى محاولات كثيرة لاصلاح

لأزهر مع الشيخ محمد الانبابى شيخ الأزهر اذ ذاك وفى هـذا العام ١٨٩٢ توفى الخديو توفيق وخلفه ابنه عباس حلمى الثانى الذى كان يتطلع فى أوائل حكمه الى مقاومة الاحتلال البريطانى فأتيح للحركة السياسية والفكرية أن تجد مجالا فكت فيه بعض قيود الصحافة فصدرت فى هذا العام عشرات الصحف والمجلات وارتفع صوت مصطفى كامل فى جريدة الأهرام ..

وهنا وجد عبد العزيز جاويش أمامه فى القاهرة مجالا واسعا لمطامحه ، وتطلعاته الثقافية والوطنية ، فقد كانت جريدة « المؤيد » مجالا مفتوحا للمثقفين ، يردون مورد الشيخ على يوسف الذى كان يتحدث مع العشرات من مريديه وهو يكتب مقاله الافتتاحى ، لا على مكتبه ولكن على ركبته وقد ثنى وريقاته ومضى ينقل الطرف بين جلوسه وأوراقه ، ويجمع بين مشاركتهم الحديث . والنظر فى قصاصاته .

وهناك الرواق العباسى حيث الشيخ محمد عبده يلقى أحاديثه فى تفسير القرآن على النهج الحديث الذى يربط القرآن بالأحداث والاسلام بالعصر ثم لم يلبث أن عاد الى التدريس فى الأزهر ، فألقى به دروسه فى التوحيد التى عرفت من بعد باسم رسـالة التوحيد ونشرت ١٨٩٧ .

وقد ظل الشيخ محمد عبده معنيا بأمور الأزهر حتى أسند اليه عام ١٨٩٩ منصب مفتى الديار المصرية

ولكن عبد العزيز جاويش لم يطل مكثه فى الأزهر ، بل سارع

خلال عامين الى الالتحاق بمدرسة دار العلوم حيث تخرج بهـا عام ١٨٩٧ .

وقد أتيح له فى هذه الفترة أن يلتقى بالشيخ محمد عبده ، قدمه اليه الشيخ رشيد رضا ، فحضر مجالسه فى عين شمس ، واتصل به عن قرب وأحبه وارتبط به روحيا .

وبذلك جمع بين ارتياد أندية الوطنية والدين والعلم التى يرتادها صفوة المثقفين فى القاهرة والاتصال بالصحافة الوطنية ممثلة اذ ذاك فى جـريدة المؤيد حيث كان يكتب مصطفى كامـل وصفوة المكافحين والمجاهدين اذ ذاك ، فهى فى ذلك الوقت جريدة العالم الاسلامى التى تحمل لواء الدعوة الى الجـامعة الاسلامية ، وتأخذ طابع المتابعة لاتجاهات وأهداف « العروة الوثقى » التى أنشأها جمال الدين ومحمد عبده فى باريس ، وتهاجم « المقطم » لسان الانجليز ، وكانت كتابات « على يوسف » فيها مثلا عاليا من البلاغة والذكاء والبراعة السياسية ، وهو الأزهرى القديم ، وهى تسير فى ظل الخديو عباس الذى كان اذ ذاك على خلاف مع الاستعمار البريطانى وقد ظل على يوسف من أخلص الناس للخديو الذى أدار ظهره للحركة الوطنية ، وقد بقى على يوسف فى نفس الوقت مواليا للشيخ محمد عبده ورجال حزبه حتى بعد اختلافه مع الخديو عباس .

وكان المؤيد مدرسة كبرى التقى فيها مصطفى كامل وسعد زغلول وعبد الكريم سلمان وتوفيق البكرى وفتحى زغـلول والمويلحى والهلباوى وقاسم أمين واسماعيل أباظة .

وفى الجناح الآخر كانت « ندوة » الشيخ محمد عبده فى عين شمس تضم عشرات من تلامذته الذين كانوا يؤمنون بآرائه أمثال : مصطفى لطفى المنفوطى وحافظ ابراهيم وسعد زغلول ورشيد رضا وطنطاوى جوهرى ومصطفى عبد الرازق .

وكان هناك نادى دار العلوم حافلا بعشرات من رجالات هذه الدار أمثال الشيخ المهدى ومحمد شريف سليم وحسين توفيق العدل وسيد على المرصفى وغيرهم .

وبين هذه الأندية كان يتردد عبد العزيز جاويش ويجد مجاله كشاعر ومحدث ، وخطيب ، له طلعته المهيبة ، وخلقه الرصين ، وثقافته وذكاؤه .

— ٢ —

واذا كانت صورته فى مجال الأزهر لا تبدو واضحة تماما ، وذلك لقصر المدة التى قضاها به فان صورته فى دار العلوم تعطى مطالع حياة خصبة مشرقة قوامها شخصية طامحة فعالة قوية ، وكأنما توحى بذلك التاريخ الحافل من العمل والكفاح .

ان عبد العــزيز جاويش لم يلبث فى الأزهر الا عاما وبعض عام قضاهما على النحو الذى كان معروفا اذ ذاك ، حلقات حول كل عمود حلقة ، كل أستاذ له مريدون ، ومن حق كل طالب أن يختار حلقته ، يحضر ما يشاء من الدروس .

ثم تذهب الصفوة من هؤلاء لتتقدم الى دار العلوم لتدخل امتحانا قاسيا صعبا ، تحريريا وشفويا بين يدى لجنة من عشرة أعضاء فى كل علم من علوم الدين والعربية والفقه والتفسير والحديث والتوحيد والمنطق والنحو والصرف والبيان والبديع .. والعروض والانشاء والتاريخ .

وفى ذلك العام كان المتقدمون كثيرين ، وكان الامتحان قاسيا فلم ينجح غير سبعة عشر طالبا منهم عبد العزيز وصديق صباه الذى قدم معه من الاسكندرية حسن منصور .

وسرعان ما امتزج جاويش مع زملائه فى دار العلوم ، كانوا اذ ذاك صفوة المثقفين ، يميزون أنفسهم عن أبناء الأزهر بأنهم

أقرب الى الثقافات الحديثة ولم تكن الجامعة قد أنشئت بعد ، فكان عليهم الدور في حمل لواء نهضة الفكر ، ومنهم كانت تختار بعثات العلم الى انجلترا وفرنسا وألمانيا .

ولم يلبث عبد العزيز بشهادة زملائه أن برز بين زملائه ؛ فهو كما وصفه زميله الشيخ محمد عبد المطلب : « شاب بهى الطلعة وضيء المحيا ، ساطع الوقار ، جياش الأدب ، غزير المادة على حداثة سنه » . أعطته هذه الشمائل القدرة على التبريز والامتزاج ، فأحبه اخوانه وأعجبوا به فلم يمض نحو شهر على هذا الفتى حتى أصبح روح اخوانه وريحانهم ، وقوة كل عين ، وملء كل قلب ، وأنس كل نفس ، وقرارة كل فضيلة وخلق كريم ، ويزيده عظمة في أنفسهم أنه كان جامعا لكثير من الكفاءات التي نعدها كالصفات المقابلة ؛ فبينما هو معدود بيننا من النابغين في العلوم الكونية كالطبيعة والفلك مثلا اذ نراه من خيرة الأكفاء في علوم الدين كلها ، يعرف دينه عرفان من ذاق الحكمة ويطبقه على المدنيات الصحيحة ويردها اليه ، حتى لقد كنا معاشر الطلاب نغبطه على هذا المقام الكريم من الدين ، يغار على دينه منذ صباه كلما أنس من جانب ما يمسه أو يزرى به غضب له أو بكى حتى تسيل عيناه »[1] .

---

(1) عبارة الشيخ محمد عبد المطلب ـ جريدة العلم ـ ١٣ مارس ١٩٢٩ .

هكذا تبدو صورة عبد العزيز فى أول مراحل حياته ، شاب متطلع من أبناء الاسكندرية ، سمح الوجه والخلق ، نابغة ، أليف يؤلف ، سرعان ما اندمج فى بيئة العلم فبلغ مداها ، لم يطل به المقام فى الأزهر ؛ وفى دار العلوم — أرقى معاهد العلم اذ ذاك بطابعها الحديث — برز حتى أحرز اجازتها فى الحادية والعشرين من عمره (١٨٩٧) بدرجة عالية من التقدير أهلته للبعثة الى الغرب ، وعبور البحر .

ولم يصرفه علمه فى سنوات دار العلوم عن أن يكون شاعرا وخطيبا ، فهو شاعر الفرقة المطبوع وكاتبها الضليع (١) « فقد كان من عادة المدرسة يومئذ أن يكون لكل فرقة زعيم فى الأدب له الصدارة عنها فى مواقف القول ومحافل البيان ، فكان زعيم اخوانه فى هذا الميدان » .

* * *

من خلال هذه الصورة بدأت تكتمل شخصية نابغ له طابع التبريز فى العلم ، والسبق فى الاجازة الدراسية والزعامة فى مجال الخطابة والشعر ، ولم يكن بد من أن تستكمل هذه الشخصية خبرتها ، حين أتيح له بعد فترة قليلة من التدريس فى مدرسة الزراعة أن يعبر البحر الى أوروبا ، وأن يقصد انجلترا ، بالذات ليمضى بضع سنوات فى جامعة بروورود فى أحد المراجع ، أو جامعة كمبردج فى أغلب المصادر .

---

(١) نفس المصدر — محمد عبد المطلب مقال العلم ١٣ مارس ١٩٢٩ .

— ٣ —

وفى بريطانيا التى تحتل مصر أمضى عبد العزيز ثمان سنوات على فترتين بعمامته وملابسه العربية ، مؤهلا ليكون بعد عودته من أبرز العاملين فى مجال التربية والتعليم وفى المخطط الذى رسمه الانجليز وقد أمضى السنوات الثلاث الأولى فى جامعة بروورود تلقى فيها دراسات تربوية منوعة ثم عاد بعد عام ليعمل مدرسا فى اكسفورد خمس سنوات .

ولم يكن جاويش هو أول من ذهب الى الغرب ، فقد سبقه من أبناء دار العلوم محمد شريف سليم ، وحسين والى ، حسن توفيق العدل . وكلهم من أصحاب الصفحات الناصعة فى مجال التربية والثقافة .

ولا شك أن عبد العزيز قد أفاد لأمته ووطنه من هذه البعثة علما وتجربة بعيدة المدى فى حياته الفكرية والسياسية والتربوية فيما بعد ، فها هو الشاب الذى خرج من الثغر المصرى الذى شهد فى طفولته غزو الانجليز لبلاده ، يبرز فى مجال العلم حتى يتاح له أن يبعث الى أرقى جامعاتهم ليكمل تعليمه فماذا كانت تجربته ؟ لقد وجدهم خلقا من العاملين المؤمنين بوطنهم فأراد أن يكون

كذلك لوطنه ، ووجد لديهم من خبرات التربية والتعليم والثقافة فحرص على أن يعطى أمته ما يناسبها من هذا الحصاد الفكرى الانسانى وقد أراد أن يصور انطباعاته من رحلته تلك بعد ثمان سنوات فقال : ذهبت الى تلك الديار فوجدت الناس متمسكين بدينهم فزادونى تمسكا بدينى ، رأيتهم شديدى الحرص على لغتهم فزادونى حرصا على لغتى ، أبصرتهم يتفانون فى الدفاع عن بلادهم ، ويحرمون على الأجانب الاستيلاء على بعض شئونهم أو التصرف فى أموالهم ورقابهم ، فأخذت أحاكيهم فى هذه البلاد السيئة الحظ بالاحتـلال وأشـياعه . رأيتهم يحبـون الصراحة ولا يخشون مغبتها ولا يتهيبون متاعبها ما دام الحق لهم ، فأخذت أحاكيهم فى تلك الفضائل ، أبصرتهم يحبون العمل ويكرهون الكسل ويحضون على الفضيلة فعدت الى بلادى ثم صرت اشتغل بهمة لا تعرف الملل ولا الانقطاع » ..

ولا شك أن الحياة التى عاشها جاويش فى البعثة كان لها أثرها فى تفكيره ومفاهيمه فى التربية .

فقد أتيح له أن يتوسع فى الثقافة الغربية حيث ألم الماما مقبولا باللاتينية واليونانية وعلوم الأخلاق والطبيعة واللاهوت والقانون والتاريخ واللغات الشرقية ولغات العصور الوسطى واللغات الحديثة والعلوم الالهية والاقتصاد وعلم الانسان وعلم طبقات الأرض وعلم الحفر والتنقيب .

لقد عاش « جاويش » ابن الأزهر سنوات فى حرم جامعة اكسفورد العتيدة القديمة ذات الاسم المهيب ، فى بناء من مبانى القرون الوسطى وعصر الاصلاح ، وقد خلقت لها تقاليد خاصة بها ، لها طابع القداسة ومن حوله الطلاب الانجليز وطلاب من كل أنحاء العالم ، من الصين والهند . حيث تقوم الروابط بين الطلاب والأساتذة ، وخاصة المرشدين يوجهونهم ، ويبحثون معهم موضوعات دراساتهم ، وفى ظل طابع الجامعة التقليدى ووحدتها وتجانسها أساتذة وطلابا .

حاشية * ذكرت بعض المصادر أن « جاويش » تعلم فى جامعة كمبردج وقد سألت الدكتور احمد شلبى الأستاذ بدار العلوم وخريج جامعة كمبردج فذكر لى انه لا يوجد فى اسماء خريجيها اسم جاويش وذكر مصطفى صادق الرافعى (فى رسائله الى الشيخ أبى ريه) انه أحرز فى بعثته دبلوما فى التصوير .

عاد جاويش بعد أن استكمل دراسته بعد السنوات الثلاث من الدراســة فى جامعة برورود عام ١٩٠١ حيث عين مفتشا فى وزارة المعارف ، غير أن أمر ذلك لم يطل هذه المرة أيضا ، فقد كانت تنتظره تجربة أخــرى ، هى أن يعمل فى جامعة اكسفورد أستاذا للغة العربية بعد أن أتم دراسته فى انجلترا بعام وبعض عــام ؛ فيعود ليمضى خمسة أعــوام أخــرى فى بلاد الانجليز (١٩٠٢ — ١٩٠٦) .

والمعروف أن بريطانيا كانت قد وضعت خطة لاستقدام علماء انجليز الى مصر يلمون الماما كافيا باللغة العربية ، كذلك عمدت الى ارسال مستر برون المستشرق البريطانى المشهور ليختار بعض النوابغ فى اللغة العربية من رجال التعليم ليقوموا بتدريس اللغة العربية فى الجامعتين القديمتين أكسفورد وكمبردج فاختــــار « حسن توفيق العدل » مدرسا للغة العربية فى كمبردج ثم قدم مستر مرجليوت المستشرق البريطانى المعــــروف فاختار لكليته اكسفورد « عبد العزيز جاويش » ليقرىء العربية طلاب الوظائف المصرية أو السودانية من الانجليز على حد تعبيره [١] .

(١) اللواء — ٧ ديسمبر ١٩٠٨ .

وقد نصح له مستر « دسوب » مستشار وزارة المعارف اذ ذاك أن ينتفع بالتجربة التى سيعيشها هناك .

وهكذا أتاحت الظروف لجاويش أن يمضى فى بريطانيا ثمان سنوات ما بين طالب وأستاذ ، بين بروورود واكسفورد الجامعتين الكبيرتين وأن يدرس كيف يعيش الانجليز فى بلادهم ويقارن بينهم وبين حياتهم فى البلاد التى احتلوها ، ولقد أتيح له أن يدقق فى فنون ثقافتهم ومفاهيمهم كما اولى صحافتهم عناية كبرى وعرف وجهات نظرها واتجاهاتها ؛ فقد كان دائم التعرض لذلك من بعد عن المام وفهم ..

وقد كان لذلك أثر بعيد المدى فى حيـاة جاويش وتفكـيره وكفاحه وكتاباته وهو الاثر الذى لم يكن من قبل لغيره ، ولعـل هذا الاثر واضحا فى أمرين :

• قدرة الفهم ودقته وعمقه لتصرفات الانجليز ومواقفهم بالنسبة للحركة الوطنية فى مصر ؛ وقضايا العالم الاسلامى ..

• الرد على الكيد لهم بما يشبه الافحام ، عن النحو الذى يبلغ منهم مبلغه ، ويصل الى اعماق مشاعرهم ، ويلمس أحاسيسهم ؛ وهو مالم يستطع أن يصل اليه مثلا الشيخ على يوسف أو مصطفى كامل او محمد فريد او غيرهم من الكتاب الذين لم يعاشروهم ولم يدرسوا نفسيتهم عن كثب .

ولذلك فقد كان الأمر المثير ، البعيد المدى ، فى اغضـــاب الانجليز وازعاجهم هو الرأى الذى يبديه جاويش ، أو الكلمة التى يقولها ؛ بل ان الأمر بلغ اكثر من ذلك ، أنهم كانوا يحسون

شيئا ... ـهم لانهم آتاحوا الفرصة ، لرجل مستقل الفكر مؤمن بوطنه أن يصل الى أعماق مفاهيم ثقافتهم ؛ ثم يجعلها سلاحا ليحاربهم به ، حتى لقد ألغوا من بعد بعثات وزارات المعارف من مدرسى اللغة العربية الى جامعات انكلترا ، وذلك حتى لا يعود منها ــ وهذه عبارة جريدة الاجيبشيان غاريت [1] بالنص « رجال شديدو العداوة والكراهية ومن ألد خصوم الانجليز كالشيخ عبد العزيز جاويش الجالس على كرسى مصطفى كامل فى دار اللواء » ، وقد رد جاويش على هذه الكلمة فى حينها فقال :

ندم الانجليز على ما فرط منهم من ذلك الاختيار اذا رأوا أمامهم شخصا صعب المراس ألد الخصام ، فأرادوا ألا يستمروا على خطئهم ، فيخلقوا لأنفسهم كل يوم أعداء من الشيوخ الذين يرسلونهم الى بلادهم ، ونحن نقول للجازيت انها أخطأت فيما قالته ، فان سفر المصرين الى بلاد الانجليز لا يجعلهم أعداء للانجليز ولكن للاحتلال والمحتلين ... وقد كان على الانجليز ان يفخروا على العالم بأن من ذهب الى بلادهم من المصريين لا يعودون الا بعد ان تشرب قلوبهم حب العدل والانصاف ، حب الحرية والاستقلال ، حب العلم والفضائل .

ولكن أنى للاحتلال أن يرحب بتلك الفضائل فى بلاد لا يريد

(١) جريدة الاجيبشيان جازيت ٦ ديسمبر ١٩٠٨ ...

منها الا ان تكون أمة مطواعا لأمره صابرة على نوائبه يقول لها فتسمع ، ويأمرها بما يشاء فتصدع » .

ولا شك أن حياة « جاويش » فى بريطانيا كانت ذات أثر بعيد فى تفكيره عامة ، فقد منحته خبرة لا حد لها بشئون التربية والتعليم ، وبنفسية الشعب البريطانى ، وفتحت أمامه الآفاق للتطلع الى نهضة أمته على النحو الذى شاهده وعاشه .

ولكنها فى الوقت نفسه — لعظم الركيزة النفسية المؤمنة بوطنه وأمته والاسلام والعروبة — لم تحوله الى الاعجاب بالانجليز اعجابا يجعله من أنصارهم أو من السائرين فى ركابهم أو الداعين الى ما يريدون تطبيقه من مناهج فى التعليم ، أو مذاهب فى الفكر .

فقد فرق تفريقا دقيقا بين الأمة الانجليزية كأمة متحضرة ، وبين الانجليز .. كمستعمرين ، وتطلع الى ثقافاتهم وحضارتهم ليحولها الى كياننا ، فتزيدنا قوة كأمة لها تاريخها وماضيها وأمجادها وكيانها النفسى ، وشخصيتها ذات الملامح الأساسية ، وظل مع ذلك يكره الانجليز كمستعمرين يحتلون وطنه ، ويعاملون أهله أسوأ معاملة ويطمعون — فى أن يجدوا من الشباب المثقف النابغ الذى وصل من الدرجات ما أهله ليسافر فى بعثات ليتعلم فى أرقى جامعاتهم ، ثم عاد مرة أخرى للعمل بالتدريس فى جامعاتهم — يطمعون فى أن يكون أمثال هؤلاء من الصنائع الذين يمكن الانتفاع بهم فى وزارة المعارف لتنفيذ خطة المناهج الاستعمارية فى التعليم ، وما يتبعها من مفاهيم الثقافة ذات الولاء

لبريطانيا ومصادقتها ، والتخفف من القيم الاسلامية والعربية ؛ والدعاية لآراء كتابهم ومفكريهم أمثال سبنسر [1] وداروين ؛ والسير على النهج الذى كانوا قد رسموه فعلا فى ذلك الوقت ؛ والذى تكشفت عنه تلك الطبقة الأرستقراطية المصرية من « أصحاب المصالح الحقيقية » وما وراءها من مفاهيم التفاهم والمحاسنة والتعقيل ، والحد من تعليم العامة ، وتشجيع اللغة العامية ، وتمجيد الفكر الغربى والثقافة السكسونية لمقاومة الثقافتين العربية أساسا والفرنسية الوافدة ، وخلق جيل من الشباب الذى ينظر الى بريطانيا نظرة الاعجاب والاكبار والولاء ، وبذلك يتحقق للاستعمار البريطانى أن ينمو ويستمر ، وتتعمق جذوره فى الأرض المصرية .

ولكن « جاويشا » كان له من ثقافته الاسلامية العربية الأساسية ، وشخصيته الاستقلالية المؤمنة بتاريخ أمته ولغتها وأمجادها ، كان له حصانة تمنعه من أن ينزلق ، وكانت له حصافة لا تحول بينه وبين الانتفاع — الى أبعد حدود الانتفاع — بما فى الثقافة الغربية من فكر متفتح وآراء نافعة ومذاهب جديدة ونظريات جديرة بالنظر فلم يكن فى هذا المجال محافظا أو متخلفا ؛

---

(١) مما قاله جاويش « ان الانجليز لا تاريخ لهم يستحق القراءة ولا أفكار لهم تستحق الدراسة ولا فلسفة تستحق البحث . اللهم الا مذهب داروين وسبنسر والأول لا قيمة للانسان عنده والثانى لا قيمة عنده الا للأشياء المادية » .

ولكنه كان من أوائل من تحدثوا عن نظريات التربية الحديثة ، وارتباطها بعلم النفس ، ومدى حاجتنا الى الانتفاع بها .

* * *

وهكذا أتيح للشيخ « جاويش » أن يستكمل جوانب الثقافة بين الأزهر بروورود ، وبين دار العلوم واكسفورد ، طالبا ومدرسا ، فى مدرسة الزراعة والمدرسة الناصرية وأن يصل الى أرقى ما يمكن أن يصل اليه مثقف فى العالم الاسلامى اذ ذاك ، فقد كان قادرا فى اللغة الانجليزية على النحو الذى يتيح له أن يخطب بها فى أرقى مستوى بلاغى ، وهو فى نفس الوقت ابن الأزهر ، الشاعر الكاتب ، المتمكن من لغته العربية وفنونها .

وهو الذى عاش مع الانجليز ثمان سنوات طالبا ومدرسا فما استطاعوا أن يسرقوا قلبه الذى ظل ينبض بالايمان بمصر ، واللغة العربية والاسلام ، وتحرر العالم الاسلامى من براثن النفوذ الأجنبى ، وهو الذى خاصم الانجليز خصومة حادة عنيفة لم ترتفع الى درجتها الا خصومة موقظ الشرق « جمال الدين الأفغانى » وقد حاول فى كثير من أطوار حياته من بعد أن يترسم خطاه .

* * *

ولكن « جاويشا » لا يريد أن تمر هذه الفترة دون أن يكشف جانبا من شخصيته التى لم تكن قد عرفت بعد ، وأن يعطى لمحة خاطفة عن مفاهيمه ، فقد اختير عضوا فى مؤتمر المستشرقين الذى عقد فى الجزائر سنة ١٩٠٥ والجزائر يومها محتلة بالفرنسيين وقد قام المسيو فولرس الألمانى الذى كان يوما مديرا لدار الكتب

المصرية فألقى خطابا عن اللغة الفصحى واللغات العامية تطرق فيه الى الاستنتاج بأن القرآن الكريم ليس بفصيح ، بل انه أول كتاب كتب باللغة العامية ، فما لبث الشيخ جاويش أن طلب الرد علـى فولرس فأعطيت له الكلمة فى جلسة (٢٢ أبريل سنة ١٩٠٥) فأخذ يفند المقدمات التى بنى عليها ذلك المدعى كلامه فأبان فسادها بالمرة من الوجهة اللغوية ، ثم تكلم عن تاريخ جمع القرآن وتوزيع نسخه فى البلاد الاسلامية واعجازه وبلاغته « التى لولاها لما آمن به العرب ، وما ذلك الا اعترافهم بالعجز عن أن يأتوا بسورة من مثله مع انهم كانوا أعلم بلغتهم من المسيو فولرس ، ولو رأوا فيه شيئا مخالفا لقواعد لغتهم لما تأخروا عن اظهاره وأظهر به حتى لا يؤمن به أحد » .

وقد بهر « جاويش » السامعين بحديثه الذى وصفه محمد فريد — أحـد شهود المؤتمر — ببلاغة العبارة وجزالة المعنى « فصفق له الحضور مرارا وشهدوا له بقوة الحجة ومتـانة البرهان » .

وكان من نتائج ذلك أن طلب المسيو فولرس رسميا سحب موضوعه حتى لا ينشر ضمن بحوث المؤتمر ، واشترط أن لا تنشر كذلك كلمة الشيخ جاويش .

* * *

هذه المرحلة من حياة جاويش منذ قدم القاهرة فدخل الأزهر ١٨٩٢ الى أن عاد من انجلترا عام ١٩٠٦ ، حيث عمل مفتشا فى وزارة المعارف عاما وبضع عام حتى استقال فى أواخر أبريل ١٩٠٨

لرأس تحرير اللواء ، هذه المرحلة يمكن أن يقال انها مطالع حياة هذا الرجل اذ تشكلت فيها كل مكونات فكره وثقافته وتجربته والجذور الأساسية التى انبثقت منها فيما بعد تصرفاته أعماله فى مختلف المجالات التى تحرك فيها بحيوية وقوة ومن هذه البذور تفجرت الطاقة الضخمة التى عرف بها ، فى مجال السياسة والصحافة والكتابة والتربية والتعليم والاصلاح الاجتماعى خلال حياة عريضة ، قصيرة فى أعوامها ، ولكنها حافلة بالعمل والحركة ، فيها صور الخطيب والسياسى والسجين والمطوف حول الأرض ويمكن أن توصف هذه المرحلة بمرحلة الاستطلاع والتكوين النفسى والذهنى والتأهب للعمل الكبير الذى وجه نفسه اليه .

وفى خلال خمسة عشر عاما (١٨٩٢ — ١٩٠٧) تكامل تكوين هذه الشخصية ، ثقافة وفكرا ، فجمع بين ثقافة الاسلام والغرب ؛ والتقى بالأزهر وكمبردج ومزج بين العربية والانجليزية فلما بدا أنه قد أكمل جولته ، وآن له أن يعود الى عمل مستقر موفور الرزق فى مركز مرموق فى وزارة المعارف حيث تبدو الحياة طيبة لرجل مثقف ، أنفت النفس الطموح وتمردت فهى تريد أن تبدأ العمل الصعب الذى خلقت له واختارته فى مجال السياسة والصحافة والوطنية ..

واذا كانت النفوس كبارا تعبت فى مرادها الأجسام ..

المرحلة الثانية

مرحلة التألق

فى أوائل عام ١٩٠٨ ترك جاويش منصبه العلمى فى وزارة المعارف وتولى رئاسة تحرير جريدة « اللواء » ، وبدأ اسمه منذ ذلك اليوم يتألق فى مجال الصحافة السياسية والاصلاح الاجتماعى على نحو سريع خاطف ، وفى خلال أربع سنوات (هى كل سنوات عمله الصحفى) كان جاويش قد ملأ الدنيا وشغل الناس حقيقة بآرائه الجريئة ، وأسلوبه العنيف ، وحملاته النارية على الاستعمار والاحتلال والاستبداد الداخلى والمستوزرين ؛ حتى أنه قدم للمحاكمة ثلاث مرات ، وحقق معه أربع مرات ؛ وسجن مرتين ، وأنذرت « اللواء » وأغلق « العلم » ، ومن أجل حملاته القاسية وقلمه المر أعيد قانون المطبوعات القديم ، وعدلت نظم محاكمات الصحفيين ، ولكنه أنشأ لونا جديدا فى الكتابة السياسية له دوى ووهج ، ولم يكن جاويش فى الحق صحفيا ؛ ولكن الصحافة كانت جزءا من مفهومه للعمل الوطنى والسياسى الكبير الذى كان يتصدر له وكتاباته لا تعطى صورة « محرر » صحيفة حزب محلى مصرى ، ولكنها تعطى صورة « زعيم » يواجه مشاكل العالم الاسلامى كله ؛ ويحيط بقضاياه ، ويتخذ

من صناعة القلم ما يتخذه المحارب من سلاح للطعن والقتال .
وعندى أنه لم يقف عند العمل للحزب الوطنى فى قضاياه المحلية من مطالبة بالجلاء والدستور واطلاق الحريات ولكنه وسع قاعدة العمل ، فكأنما هو خليفة حقيقى لجمال الدين الأفغانى فى معالجته لقضايا العالم الاسلامى ، ووريث أصيل لمحمد عبده فى حلوله لمسائل الاصلاح الاجتماعى والتربية .

ولم يكن هذا العمل كله عند « جاويش » مجرد كتابات عنيفة ، أو عبارات ثائرة ، أو صيحات صارخة ، كما يخيل للبعض ؛ ولكنه كان عملا حصيفا مدروسا ، له طابع الوهج ليشعل الثورة فى قلوب الوطنيين ، ويقضى على عوامل التراخى والتمييع والتخدير التى كانت تواجههم بها تيارات دعاة المحاسنة وقبول الأمر الواقع .

كان هدفه الأساسى هو كشف مؤامرات بريطانيا ، ورد هجماتها ، ودحض أكاذيبها ، واثارة النفوس عليها ، والحيلولة دون الثقة بها ، أو التسليم لها ، وعنده أن الانجليز هم الخصوم الذين لا سبيل الى مصادقتهم أو التفاهم معهم أو الأمن لهم ، فهم الذين غدروا بهذا الوطن وغيره من الأوطان الاسلامية ، فلابد من المقاومة فى جبهتين يسيران جنبا الى جنب : المقاومة بالكلمة الحرة يقولها بكل قوة وحرارة ولا يبالى ماذا يحدث بعدها ، والمقاومة بالعمل الايجابى فى ميدان التعليم والتربية والاصلاح الاجتماعى ومنذ افتقد مكانه فى جريدة « اللواء » وهو يعمل فى

المجالين لا يتوقف ، الا حين يؤخذ الى المحاكمة أو السجن ، ثم يعود أشد مراسا وأقوى عزما وأشد قدرة على توجيه الضربات وتلقيها ؛ يفعل ذلك وما كان أغناه عنه وهو كبير المفتشين منذ عاد من بريطانيا ، وهو الرجل التى بنى بيته وتزوج منذ عام واحد ، ولكن الأمر لم يكن فى الحقيقة مفاجأة عابرة أو حكما سريعا ، وانما كان نتيجة لدراسة طويلة ؛ ولاستعداد نفسي واضح ؛ فقد كان جاويش يتطلع الى عمل كبير من أجل أمته ووطنه . تؤهله لذلك شخصية باهرة وكفاية عقلية وروحية وثقافة واسعة ؛ وخبرة وتجربة نمتها رحلته الى أوروبا واقامته فى بريطانيا ثمان سنوات على مرتين لقى خلالها كثيرا من شباب العالم الاسلامى ، ودرس قضايا هذه الأوطان وكيف تواجه النفوذ الأجنبى ، واتصل بالانجليز فى بلادهم ودرس نهضتهم وحضارتهم ، وقصد الى فرنسا والجزائر ، وحضر مؤتمر المستشرقين ، ولقى عشرات من أعلام الفكر والثقافة وتحدث معهم ، وكان قد كون رأيه فى كثير من الشئون السياسية والثقـافية والتربوية ، وأتاح له اقتداره فى اللغة الانجليزية وتفوقه أن يقرأ عشرات الأبحاث والدراسات ، وأن يتصل بشئون العالم الاسلامى فى الصحافة العالمية ويتعرف الى وجهة نظر الاستعمار ومؤامراته ودسائسه ، وكيفية مواجهته لعوامل اليقظة فى البلاد المحتلة .

وكانت أمامه دائما صورتا جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده .

* * *

وكان قد صاحب حركة مصطفى كامل منذ طالعها فى السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر ، وتتبع حركاته وأسفاره وكتاباته وخطبه فى مصر وفى الخـــارج عن مصر من بلاد أوروبا ، وفى بريطانيا .. (منذ بلغها عام ١٨٩٨ حتى عاد ١٩٠١) ثم عودته اليها بعد قليل حتى خلفها عام ١٩٠٦ كان يتابع صدى حركته عند الانجليز وكان قد تابع اللواء منذ صدر أوائل عام ١٩٠٠ م .

وكان للواء طابعه الواضح فى مهاجمة الاستعمار البريطانى ، وتوجيه الضربات اليه ، ولونه المتميز فى ايقاظ الروح المصرية ، ولم يكن اللواء كالمؤيد صحيفة اسلامية وطنية موالية للخديو ، ولكنه كان صحيفة « حركة » كبرى كانت موجودة فعــلا وان لم تتشكل بعد فى صــورة حزب ومع ذلك فان جريدة اللواء صــدرت بتأييد الخديو عباس ، وربطت نفسها به وبالسلطان عبد الحميــد ، وكانت مواردها الأولى من هذين المصدرين ؛ ولم تنفصل عن الخديو الا بعد خروج كرومر وقدوم غورست الذى حمل سياسة الوفاق مع الخديو ، هنالك تحول اللواء عن تأييد الخديو ، وكشف مصطفى حقيقة موقفه « رأيت أن أتحمل مسئولية الدفاع عن بلدى وحدى ، لذلك رأيت ابعادا لكل شبهة أن أعتزل الخديو » . وقد كان مصطفى كامل يفهم مهمة الصحافة فهما دقيقا ، تعبر عنها كلمته « اذا كانت الصحافة فى كل بلاد العالم شديدة التأثير عظيمة الفائدة فانها يجب أن تكون فى مصر أشد تأثيرا وأكبر نفعا ؛ لأن الأمم الحية غنية عن ارشاد الصحف فى

أكثير من الشئون ، أما فى مصر وبقية بلاد الشرق فوظيفتها أن تكون المهذبة المؤدية النشطة المشجية القائمة مقام المجالس النيابية حتى ترقى الأمة وتنال حقوقها » .

وقد هاجمت اللواء كل خصوم مصر والعـالم الاسلامى ، وركزت حمـلاتها على كرومر ، ومصطفى فهمى كبير وزرائه وغيرهم ؛ وكانت كتاباتها الوطنية ذات الطابع العاطفى تحمل طابع العلم والدراسة وتقديم الحقائق والدقائق ، وكان موقفها فى حادث دنشواى بعيد المدى وفى عشرات من الأحداث والمواقف ؛ وقد كانت هى الصحيفة الوحيدة التى يحسب الاحتلال حسابها ، ويعلق الأهمية الكبرى على ما تعرض له ، لسببين : الأول : انها جريدة وطنية لم يستطع الاستعمار معاونتها كما عاون غـيرها والثانى : ان من وراءها جمهورا شعبيا ضخما .

* * *

فى ظل هذا الجو ، وبينما كان « جاويش » يبحث عن دوره فى العمل السياسى والوطنى والعلمى ؛ تلقى عام ١٩٠٥ وهو فى أكسفورد خطابا من مصطفى كامل وهو فى باريس يسأله هـل هناك ما يمنع زيارته فى بريطانيا فرحب به جاويش ، فقدم بريطانيا وزارة ، وكان معه الدكتور محجوب ثابت ومحمود أبو النصر ؛ وفؤاد المنشاوى ، وربما كان مصطفى يظن ان جاويشا يمتنع عن مقابلته لأنه موظف ، ولقد رحب به جاويش فى اكسفورد ؛ وقدمه الى كثير من أساتذتها ، وقد تكلم معه فى أن يتولى تحرير اللواء ، وكاشفه باعتزامه باصـدار صحيفتين آخريين احداهما باللغـة

الفرنسية « لتندار اجيبشيان » وأخرى باللغة الانجليزية « ذى اجيبشيان استاندرد » وقد تقبل جاويش الدعوة ووعد بأن يقدم استقالته بمجرد عودته الى مصر ، وينضم الى جريدة اللواء .

وكان محمد فريد قد التقى بجاويش فى مؤتمر المستشرقين بالجزائر ، وتحدث اليه ، واستمع الى مناظرته للباحث الألمانى الذى هاجم اللغة العربية والقرآن ولعله هو الذى أغرى مصطفى كامل بدعوته الى اللواء ، فلما توفى مصطفى عام ١٩٠٧ جدد فريد خليفة مصطفى فى رئاسة الحزب الدعوة الى جاويش .

والواقع أن الحزب الوطنى كان قد أعلن تكوينه رسمياً عام ١٩٠٧ بعد ظهور حزب الأمة وصحيفة الجريدة التى يرأس تحريرها لطفى السيد ، وتكون حزب الاصلاح على المبادىء الدستورية فى نفس العام برئاسة الشيخ على يوسف صاحب المؤيد ، ثم كانت وفاة مصطفى كامل فى نفس العام وتولى محمد فريد زعامة الحزب ، وهو ليس بالكاتب الصحفى الذى يشغل مكان مصطفى ويهز نفوس قراء اللواء ، وانما كان فريد قبل ذلك كاتبا ومؤرخا على طريقة العلماء ، وأسلوبه أسلوب الباحثين الذين يعتمدون على الوثائق ويحاكمون الآراء بروح هادئة ، والحركة الوطنية اذ ذاك فى حاجة الى قلم قوى يجمع بين الحماسة والحكمة ، يستطيع أن يملأ مكان مصطفى كامل ، ويواجه المرحلة الجديدة التى تمر بها الحركة الوطنية بعد أن استطاعت بريطانيا أن تعقد مع فرنسا الاتفاق الودى فلا يجد فيها (أى فرنسا) رجال الحزب الوطنى متنفسا لمهاجمة بريطانيا ، وبعد أن أنفذت

بريطانيا معتمدها « غورست » بعد كرومر بسياسة الوفاق مع الخديو ، وبذلك واجهت الحركة الوطنية بريطانيا وجها لوجه ؛ وبدأت سياسة جديدة قوامها الاضطهاد والمحاكمة والسجن ، هذه السياسة التى انتهت قبيل الحرب العالمية بتشريد كل رجال الحركة الوطنية وفرض الهجرة والابعاد عليهم .

ولما كانت كتابات مصطفى كامل هى أبرز عناصر الحركة الوطنية اذ ذاك فقد كان لابد من اختيار قلم نارى يلهب العواطف ما ألهبها مصطفى كامل ، لذلك فقد كان اختيار « جاويشا » لمنصب رئيس تحرير اللواء عملا سياسياً بعيد الأهمية فى المحافظة على كيان الحركة الوطنية ، وبه انقسمت زعامة مصطفى كامل بين فريد فى مجال الحزب وجاويش فى مجال الصحافة .

ولقد كان واضحا فى خلال هذه الفترة ان جاويشا ليس رئيس تحرير لصحيفة حزب فحسب بل كان له طابع زعامه فى تعلقه بالدعوة الى الجامعة الاسلامية ، وله سمته الخاص المنبعث من ايمانه الذاتى فى كتاباته وأعماله الواسعة فى الاصلاح الاجتماعى والحركة التعاونية ، وانشاء النقابات العمالية والمدارس الليلة والجمعيات الأهلية وانشاء مجلة الهداية ولجنة الأزهر ، واعداد البعثة الأزهرية الى فرنسا ، وهى أعمال متعددة كانت تستنفذ منه وقتا وجهدا كبيرين ، ولكنه كان يراها استكمالا لعمله السياسى والوطنى وهى الشق الثانى لجهاده .

وكان « جاويش » بذلك شخصية بارزة ذات طابع واضح لا يمكن أن يقال عنه انه كان محررا لصحيفة حزب بقدر ما يقال

انه مصلح وزعيم له مجاله وأعوانه وأنشطته المختلفة دون أن يصطدم ذلك بزعامة محمد فريد الباهرة المتميزة بالاخلاص والتضحيه يبرز هذا المعنى فيما عبر عنه جاويش مرة حينما سئل عن علاقته بالحزب الوطنى فى قوله : « اننى أعمل معهم ولا أعمل عندهم » .

* * *

وقد كشف «جاويش» عن عوامل خروجه من وظيفته الكبرى فى وزارة المعارف فقال : اشتغلت بالسياسة لا حبا فى المال والدليل أن سعدا (وزير المعارف اذ ذاك) دعانى اليه فى اليوم الذى اعتزمت فيه ترك الوزارة فألقى الى بعض كلمات تدل على شدة رغبته فى بقائى ، وقال : [1] أطلب درجة أو رتبة ، أو مالا ، فقلت : لست فى شيء من ذلك أطمع ، وانما أردت أن أخدم أمتى حرا ؛ وسعد باشا يذكر هذا ويعلم أن خروجى من الوزارة كان لخدمة أمتى ، كان لأشقى فى سبيل اسعادها ، وأفنى فى سبيل بقائها وكنت قد عشقت مبادىء الحزب الوطنى قبل أن يتكون ؛ لأنى عشقت المبادىء التى تقمصت ذلك الجسم الضئيل الذى قتله الجهاد ، جسم مصطفى كامل ، كنت أرقب روح الحزب الوطنى فى أكسفورد كما يرقب الفلكى نجما جديدا ، وكان الحزب لم يؤلف بعد ؛ ولقد درسته ثم درسته ، فوجدت تلك الروح

(١) أشار جاويش فى مجال آخر الى خروجه من وزارة المعارف فقال : لقد هممت أكثر من مرة أن أفارق الوزارة لأنى رأيت المعاول وهى نهدم فى بنية هذه الأمة .

ليست باللاعقلية كما يزعمون ، ولا بروح العواطف التقليدية كما يحرصون ، ولكنه حزب العقل البعيد النظر ، رأيت فيما كان يكتبه مصطفى وأعــوانه ومريدوه وتلاميذه ؛ الدراية التامة والخبرة والحــزم والحــذق فى معــرفة الدهــاء الانجليــرى ومرامى السياسة الانجليزية . كانوا يطلعون علينا فى « اللواء » من الآيات ما زادنى يقينا من ذلك الوقت ان هذا الحزب حزب الله الذى لا يغلب » .

وهكذا تبلــورت فى نفس « جاويش » خطة العمــل التى اختــارها ، والطريق الذى رسمه لنفسه ؛ من أجل الأهــداف العليا ، والمثــــل التى تملأ قلبه ، لا من أجــل المطامع المادية ، والا لما ترك العمل الوظيفى الطيب المركز والراتب ؛ ليستقبل عملا كثير التكاليف والتبعات ، غير معروف الغد ، فى ظل خصــومة عنيفة مع من بيدهم السلطان والنفوذ من المحتلين وأذنابهم من المستوزرين .

فى وقت كان الموقف فى العالم الاسلامى كله مضطربا ؛ وفى مصر أشد اضطرابا ، ففى الدولة العثمانية حكم يسيطر عليه السلطان عبد الحميد ويوشك أن تتحول (خلال نفس العام) الى لون من الحرية يصدر معه الدستور العثمانى ، وتطلق حرية الصحافة فى مختلف أقطــار الدولة ؛ ويقوم نظام نيابى تتطلع اليه مصر . أما فى مصر فقد انتهى فيها الى عهد قريب (ابريل ١٩٠٧) نفوذ كرومر بعد خمسة وعشرين عاما من تسلط شديد عنيف عــلى البلاد وأمورها ، وحل خلفه الدون غورست الذى غير سياسة

الوفاق مع الخديو ، وما تزال وزارة مصطفى فهمى ذات الثلاثة عشر عاما تواصل حكمها ومن ورائها سعد زغلول وبطرس غالى ، حيث كان هذا التحول فى سياسة بريطانيا مع الخديو عاملا خطيرا فى مقاومة الحركة الوطنية حين تتعاون السلطتان الشرعية والفعلية معا لأول مرة فى الضغط عليها بعنف .

ولم يلبث مصطفى كامل ان ودع دنياه (فبراير ١٩٠٨) واختير محمد فريد رئيسا للحزب الذى كان قد تكون رسميا فى أواخر عام ١٩٠٧ ، بعد أن شكل حزبا الأمة والاصلاح ، بينما كان الحزب الوطنى قائما فعلا منذ ثلاثة عشر عاما وقبل أن تصدر صحيفة اللواء عام ١٩٠٠ .

فى هذا الجو المتجهم المضطرب ترك « جاويش » وظيفته فى وزارة المعارف ليحمل عبء العمل فى اللواء خلفا لمصطفى كامل وزميلا لمحمد فريد ، ومستقبلا مرحلة أخرى من حياته ؛ غاية فى الدقة والعنف ، ولكنها أيضا غاية فى التبريز والتألق فلا تكشف طبيعة الرجال غير المعارك والأزمات ؛ والنضار يعرف بالنار .

ولقد كان « جاويش » يشعر فعلا بأنه يواجه مرحلة صعبة حين أمسك قلمه ليكتب الكلمة الأولى فى جريدة اللواء وكان يحس مسئوليته تجاه أمته ، مسئوليته وهو يكشف عن نفس مؤمنة صادقة اليقين فى الكفاح وقد استهدف غايات خمس هى :

خدمة الامة المصرية — والدفاع عن الأريكة الخديوية « ما حرصت على مصلحة رعاياها » وجهاد الانجليز ما بقوا

محتلين البلاد . والحث على الفضيلة والأخلاق الكريمة والدعوة الى توحيد عناصر الأمة ، حقا لقد كانت الرؤيا واضحة تماما أمام جاويش فى مقاله الأول فى جريدة اللواء يوم ٣ مايو ١٩٠٨ .

« باسمك الله قد استدبرت حياة زادها الجبن وخور العزيمة ومطيتها الدهان والتلبيس ، فى أسواقها النافقة تشترى نفيسات النفوس ، بزيوف الفلوس وتباع الذمم والسرائر بالابتسام ، وهز الرؤس ، وبيمنك اللهم استقبل فاتحة الحياة الجديدة ، حياة الصراحة فى القول ، حياة الجهر بالرأى ، حياة الارشاد العام ، حياة الاستماتة فى سبيل الدفاع عن البلاد العزيزة ، بعد أن قضيت فى سابقتها ثمانى حجج ، بلغت بها ذلك المنصب الذى كنت فيه ما بين محسود عليه ومرجو فيه ، استقبل هذه الحياة المحفوفة بالمخاطر منبريا فى ميدانها ، فاما الى الصدر واما الى القبر ، موقنا بما أعده الله لعباده العاملين المخلصين من الظفر والفتح المبين ، عارفا أن الحى لا يموت الا مرة ، والموت أحلى من حياة مرة ، وكيف لا نقدم أنفسنا قرابين بين أيدى أهرام هذا القطر ونيله . أم كيف لا نصرف كل مرتخص وغال فى سبيل تحريره ، وقطع اليد الغاصبة له جزاء بما كسبت ، فلنتمسك بهذا المبدأ الشريف ماحيينا ، ولنعتصم به ما بقينا . سيسير « اللواء » على ما كان عليه خادما للأمة المصرية مدافعا عن الأريكة الخديوية ما حرصت على مصالح رعاياها مجاهدا الانجليز ما بقوا فى بلاده ، حاثا على الفضيلة والأخلاق الكريمة ، داعيا الى توحيد عناصر الأمة على اختلاف مللها ونحلها . وتباين مشاربها ولهجاتها فاللهم أسألك لسانا ناطقا بالصواب » .

ـ ٢ ـ

مفاهيمه الوطنية

مضى « جاويش » يشق طريقه الى التعبير عن رأيه فى مختلف القضايا الداخلية والخارجية بذلك الأسلوب الرائع البليغ ؛ فقد كان ذلك طابع العصر ؛ حيث كانت المقالة هى أبرز عناصر الصحيفة ، وكانوا يسمونها « الافتتاحية » وقد خلف فى ذلك مصطفى كامل ، حيث كان الوطنيون ينتظرون كلمته ويرددونها ، فربما جاوزت بلاغته وحماسته بلاغة مصطفى وحماسته وان كان لأسلوبه طابعه الخاص [1] ، وقد اتسع أمامه مجال القول اتساع العالم الاسلامى نفسه ، فكان دفاعه عن الوطن قائما على محاربة الانجليز والحملة عليهم حملة عنيفة لا هوادة فيها ؛ ممتدة مستمرة لا توقف لها ، وهو فى كل مرة يذكر بأحداثهم المتتالية ويعدد مواقفهم المتتابعة ، ما بين تبديد أموال البلاد ، وسلب مقدرات الأمة ، والجام الألسن عن الانتقاد ؛ وتقييد الأقلام ؛ وهى لا ينى يطالب بالجلاء والدستور والحكم النيابى ، ثم يتجه الى التعليم فيهاجم أنظمته ، وينحى باللائمة على وزيره فى حملة

(١) عرفت مقالته بأنها لا تقل عن عامود ونصف ولا تزيد عن عامودين ومكانها الصفحة الثالثة .

متصلة تحت عنوان « ظلموك يا سعد » يكشف فيها عن حقائق المؤامرة البريطانية فى وزارة المعارف ، وقد شهدها بنفسه . وتلاحق صحف الاستعمار حملاتها فلا يتردد فى مهاجمتها والرد عليها ؛ معلنا ان الاحتلال يسلط أمثال هذه الصحف على المصريين ويرسم لها الخطط غير الشريفة مستهدفا من ذلك اثارة النفوس ؛ ودفع الأمة التى التصادم والاقتتال ، ثم هو يهاجم الرتب والألقاب ، ولا ينسى قناة السويس وحق مصر فيها . ثم يقارن بين مجلس « المبعوثان » فى تركيا ومجلس شورى القوانين ، فاذا مرت ذكريات الاحتلال استقبلها مذكرا بها ، ذكرى بدء الاحتلال (١١ يوليو ١٨٨٢) وذكرى دنشواى .

ثم يجول قلمه جولات فى قضايا العالم الاسلامى ؛ فيتحدث عن « الدولة العلية » والممالك العثمانية ؛ ويرد على الشاه فى ايران حين يعارض الحرية ؛ أو يكتب عن مستقبل بلاد العراق ، ولا يلبث أن يكتب عن مستقبل الصين فى الشرق ، ثم يدافع عن اللغة العربية والاسلام والأزهر ، ويتحدث عن المرأة المصرية المسلمة ؛ ويدعو الى المصرف الوطنى ، ويتكلم عن التعاون والنقابات العمالية والاتحادات الزراعية ، لا يحمل فى ذلك طابع الاقليمية العنيفة أو التعصب ، وانما يحمل طابعا انسانيا واضحا ؛ فايطاليا عام ١٩١٠ (قبل أن تحارب طرابلس سنة ١٩١١) تصاب بالزلزال فلا يلبث أن يدعو لمساعدتها فى مصابها ، « ان لنا أيها الايطاليون لقلوبا تفرح بما تفرحون وتألم لما تألمون ، أنتم الذين جمعتم أشتات ايطاليا بعد ان كان لكل ملك منها نصيب ، وفيكم

تشأ غاريبالدى الذى ترك لكم الشرف الخالد والذكر الجميل »
فهو انسانى النزعة ؛ فخور بالأمم التى توحدت ، مقدر لأبطالها ،
غير انه لا يلبث أن يهاجمها بعنف بعد أن قذفت طرابلس الغرب
بحممها ، ويستصرخ العالم الاسلامى لمساعدة هذا الجزء الذى
يتعرض للاحتــلال ويقوم بدور ضخم فى سبيل تهريب المــؤن
والأسلحة (١) والمقاتلين اليها لمقاومة ايطاليا .

ولم يكد يمضى « جاويش » فى طريقه خطوات ، حتى كان
الانجليز قد ضاقوا به أشد الضيق ، وأزعجهم أسلوبه العنيف
الجرىء أشد ازعاج ، فبدأت خطة ذات حلقــات للتآمر عليه
وارهابه ، تمثلت فى وضعه تحت المراقبة الشديدة ، وتقديمه
للنيابة ، ومحاكمته وسجنه مرات ثلاث ، عل ذلك يخفف من
لهجته أو يعدل اتجاهه ، فقد كانت كتاباته تزعجهم ، وهو الرجل
الذى خبر كثيرا من أساليبهم وخططهم ، فحوكم فى يوليو ١٩٠٨
من أجل مقاله « دنشواى أخرى فى السودان » ثم حوكم فى يونية
١٩٠٩ من أجــل مقــاله عن « ذكرى دنشواى » وسجن ثلاثة
شــهور ، ثم حوكم فى يونيــة ١٩١٠ من أجل مقدمته لديوان
« وطنيتى » لعلى الغاياتى وسجن ثلاثة شهور .

ولم يضعف السجن من عزيمته ، فمضى فى طريقه طوال أربع

---

(١) اشــــار جاويش فى بعض كتاباته بعد عودته من مهجره
سنة ١٩٢٣ الى موقفه من معركة طرابلس فقال انه لولا جهده لما
استمرت الحرب خمســـة عشر سنة « تدور رحــاها وتطحن
الطليان » .

سنوات حتى فرض عليه ، فى فبراير ١٩١٢ أن يهاجر ، فقد ضيقوا عليه الحلقة تضييقا ، وكانوا قد رتبوا خطة للقضاء على هذه القوة الوطنية أو اخراجها .

غير ان هذه السنوات الأربع (مايو سنة ١٩٠٨ — فبراير ١٩١٢) كانت أخصب سنوات الكفاح الوطنى فى مجال القلم لجاويش ، فقد خلق مدرسة من الصحافة لها طابع الايمان الصادق المجرد من المنفعة والمطمع والمتاع ، مشى فى ركبها أمين الرافعى وصادق عنبر وأحمد وفيق رحمهم الله .

وقد واصل « جاويش » كتاباته فى اللواء ، واسمه على صدره رئيسا لتحريره ومديرا له حتى ٣ مارس ١٩١٠ حين اختلف الحزب الوطنى مع ورثة مصطفى كامل وأصدر العلم فى ٧ مارس ١٩١٠ ، وصاحب امتيازه اسماعيل حافظ وقد ولى « جاويش » ادارته وتحريره وان لم يوضع اسمه عليه .

وفى خلال ذلك كانت مقالته « الافتتاحية » هى أبرز مواد الصحيفة ، وان برزت الى جوارها مقالات محمد فريد وكثير من رجال الحزب الوطنى وكتابه وقد واجه اللواء الانذار تلو الانذار من أجل مقالات « جاويش » كما عطل العلم شهرين كاملين (١٨ مارس ١٩١٠ — ١٠ مايو ١٩١٠) وفى خلال ذلك صدرت صحف مختلفة بدلا منه هى صحف العدل والاعتدال والشعب الذى طال أمده (١٩ مارس ١٩١٠ — الى ٩ مايو ١٩١٠) وكانت الحجة فى التعطيل هو « سلوكها مسلك الطعن فى الحكومة بما يحمل الناس على كراهيتها » .

ومن أجل هذا المنهج الذى رسمه لنفسه احتمل المتاعب ، ودخل فى معارك متعددة وخصومات متصلة مع المقطم والمؤيد والجريدة والمنار بدا فيها منطقه عنيفا أشد العنف فقد كان خصما للاحتلال ؛ ولمن يظن انهم يسايرون منطقه وربما كان شديدا على أعوان الاحتلال غاية الشدة ولكنه كان سريعا الى الانصاف اذا ما حسن تصرفهم فى خدمة الوطن ، فلم يكن منعنتا أو ذاتى الخصومة يقول « كتب علينا انا اذا خرج وزراؤنا عن القصد انتقدناهم انتقادا يتسرب اليه شىء من الشدة ، وانا قد نأخذهم بذنوبهم أخذة من لا يعرف الرحمة لمن لا يستحقها ويعلم الله أن السبب فى ذلك هو شعورنا بما احتملناه من امانة المراقبة والنصيحة ، ولئن لنا بهم للقينا من ضمائرهم عذابا مثله ، ولكننا مع ذلك لا نكاد نسمع أخبار صالحاتهم حتى نطير فرحا ، ونسوق اليهم الكلم الطيب ؛ ولقد بلغ من اشتدادنا فى الحق ان ظن بعض البسطاء أن بيننا وبين الوزراء أحقادا شخصية ، وبلغ من عرفاننا لجميل صنعهم اذا أحسنوا أن ظن بعض المغفلين اننا متقلبون متذبذبون ، هل حسبوا انه ليس لمن انتقد وزيرا فى عمل سيىء أن يمتدحه فى عمل صالح ؟ » .

وهكذا يبدو « جاويش » منصفا يقول كلمة الحق فى حالتى النقد والثناء ، دون أن يجعل لمطمع شخصى أثرا فى كلتا الكلمتين .

* * *

وكانت مواجهة « جاويش » للأمور ايجابية حاسمة ، فالوطنية عنده ليست « ما يقرأ فى الكتب أن تخلقه بلاغات الخطب ، وانما

هى تلك الروح العالية التى تدفع صاحبها الى اقتحام المهالك ، والجود بالنفس والنفيس فى سبيل الحرية والاستقلال ، واحيـاء مجموع الأمة ولو بتجرع كؤوس الفناء » ومن مظاهر الوطنية عنده : « ألا تعز الأرواح على أصحابها ، فان من عزت روحه هانت عليه نفسه ، ومتى عزت نفسه كانت روحه أهون الأشياء عليه . ومن هنا كان أطهر الناس نفسا وأرسخهم قدما فى الوطنية أولئك الذين لا يقعدهم عن بلوغ مقاصدهم السامية مال يغنيهم أو عذاب يفنيهم »[1] .

وهو يدعو الى الموت فى سبيل الحرية والحق « ان لله رجالا تخلد حياتهم اذا ماتوا ، ويزيدون ظهورا اذا قبروا ، كما ان للنار أناسا يموتون وهم أحياء ، ويتعثرون فى ظلمات أعمالهم وهم على الأرض يمشون ولطالما كان يردد « ان للتـاريخ عينا وان للأمة حسابا » .

وهو دائما يدعو الى القوة والكرامة والعزة ، ويملأ نفوس المواطنين بحب الكفاح « نحن لا نرضى أن نقيم على الضيم ، ثم لا نرضى بسلطان أجنبى علينا ، نحن لا نقبل أن نباع بيع السلع فى الأسواق ، نحن لا نصبر على العسف والجور ، نحن لا نعرف للاحتلال بيننا صبغة تكسب المحتلين شيئا من النفوذ والسلطة الشرعية » وهو لا ينى يجدد مفاهيم العقيدة فى نفوس الوطنيين من أجل مقاومة الاحتلال والاستبداد معا « اذا كان للمرء عقيدة

---

(١) ٦/١٢/١٩١٠ العلم .

راسخة ثابتة بذل فى سبيل الدفاع عنها ما لديه من مال وعقار ، وبنين وبنات ، وهان عليه ما يلقـــاه من أعـــدائه من الظلم والاضطهاد » . ويهاجم الآراء الظالمة التى يذيعها المستعمرون عن بلادنا من أن طبيعتها لا تعد المصريين للنهوض ومجاراة الأمم الحية فى سبيل الرقى والنجاح ، وقد تمكنت هذه العقيدة من نفوس السواد الأعظم من أغنياء المصريين « فبرروا بها تقاعدهم عن الخير، واخلادهم الى المذلة والمسكنة ، وتغافلهم عن الأخطار المحدقة بهم من كل جانب ؛ والجوائح التى لاحت لهم ظلمات بوادرها ، ولو أنهم درسوا ماضى تاريخهم ، وكيف كان سلفهم يجاهدون فى سبيل العلم والنور ، واصلاح البلاد ، واعلاء كلمتها ؛ لرأوا رأى العين ما يدحض شبهاتهم ، وينقض مزاعمهم ، ومن شاء أن يتعرف ذلك فليقارن بين أطوار الأمة المصرية فى عهد الاحتلال ، فانه لا يكاد يمضى عليها عام الا ظهرت فى شكل غير الذى كان لها فى العام الماضى ، مع ان طبيعة الأرض التى هى بها وصورة الحياة واحدة لم تتغير . فاذا ما بحثنا عن مناشىء تلك التطورات والتغاير وجدناها تنحصر فى مقدار نشر العلم وتعميمه ومبلغ جهاد الجرائد الرشيدة ، ومثابرتها على نشر الحق .. » .

-٣-

الاحتلال وأعوانه

يحارب جاويش أمرين أشد الحرب : احتلالَ الانجليز واستبداد الحكام .. ولقد كانت حملة « جاويش » على الانجليز بالغة القوة ؛ وهو فى ذلك يمضى مع الهدف الرئيسى للحركة الوطنية أساسا ومستمدا من تجربته الخاصة بعد فهم عميق لنفسية الانجليز كمستعمرين .

وليست حملته على الاستعمار البريطانى والاحتلال جديدة بدأت منذ تولى تحرير اللواء ولكنه كان كذلك حتى فى ابان اقامته فى بريطانيا ، « مكثنا فى بلادهم عدة سنين فلا نذكر انه مر بنا يوم لم نشتبك فيه مع انجليزى أو انجليزية فى جدل وخصام فى سبيل مصر والمصريين ، وذلك لكثرة ما كنا نسمع من تبجحهم وأنهم هم الذين أرجعوا لمصر أيام السعادة والغنى ، وأنهم وأنهم الى نحو ذلك مما يثير نفس المصرى المحب لبلاده الغيور على مصالحها العليم بما يجرى فى ربوعها من السلب والنهب »[1] .

فجاويش خصم لبريطانيا ، عميق الخصومة ، ما تعرض مرة لأمر من أمور مصر أو العالم الاسلامى الا أرجع كل ما يصيب هذه

---

(١) ٢٣ يونية ١٩٠٩ العلم .

الأمة الى مؤامراتهم ، وهو يفضح دخائلهم على نحو لم يكن فى استطاعة الأهرام أو المقطم أو المؤيد أو الجريدة أن تتناوله على هذا النحو ، مثلا أمر تهريب الحشيش فى مراكبهم الحربية الى داخل مصر كوسيلة من وسائل تدمير كيان هذه الأمة يتناوله « جاويش » فى أكثر من مناسبة ويكشف عنه فى جرأة كجزء من مخطط استعمارى خطير : يقول :

« ان البلاد المصرية أخذت منذ بدء الاحتلال المشئوم تتدلى (أى تنزل) فى مهاوى الضعف والاضمحلال ، وانه لا منقذ لها سوى أن يرفع الاحتلال يده الثقيلة المفسدة عنها ، وأن يتولى أفراد الأمة نفسها ، اصلاح ما أفسدته سبع وعشرون سنة رزئت فيها مصر بالاستبداد المطلق والاحتلال ، وانه لا يجوز الاعتماد فى اصلاح البلاد على أمة تجلب « الحشيش » فى مراكبها الحربية وتدخل الصناديق مفعمة بأجود أصنافه باسم جناب قاضى القنصلية » .. [1] .

ولا يلبث أن يردد ذلك فى كل مناسبة « أما يكفى الاحتلال ما رمى به هذه الديار من النوائب ؟ ، وهل ذهب عن ذاكرتنا تلك الفظائع الدنشوائية وتبدد الأموال الاحتياطية واعادة قانون الصحافة ؟ وادخال الحشيش الى قلب البلاد على المراكب الحربية وتسميته بالأسلحة ، وغيره مما لو ارتكبته أمة من الأمم لسار بقبيح سيرتها الركبان » .

---

(١) ٥ يونية ١٩١٠ - العلم .

ويهاجم الصحف الانجليزية لحملاتها ومؤامرتها التى يتابعها يوما بعد يوم ، ويرى أن هذه الصحف انما تذيع هذه الأراجيف والقلاقل « لتهبط سهوم الشركات الأجنبية ، وسندات الديون المصرية ، وهنالك ينقض الماليون من الانجليز على شرائها حتى يكون لهم الشأن الأرفع »[1] .

وهو لا يتراجع أمام مؤامرات بريطانيا ويهددها بأسلحة مصر « يقول السير جراى انه ليس فى مصر ما يدل على أن هناك متاعب تقوم فى وجه الادارة الانجليزية اذا حالت بين الأمة وبين الحكم الدستورى فيها بقول السير جراى ذلك وهو يعلم ان أموال الأمــة المصرية فى أيدى تلك الحكومة الاحتلالية وأن السلطة الشرعية فى مصر قد أفرغت فيما أعدت له من القوالب ، وأن رؤســاء المصالح هم عبــدة الأكياس الذهبية وخــدمة القوة الاحتلالية ، ولكن من لنا بمن يفهم الحكومة الانجليزية وعميدها بمصر ان لدينا سلاحا لا يعرفون حكمته ولا مبلغ حدته ، ذلك هو قلوبنا التى ضمتها جوانحنا ، وشحذها نبل شعورنا وصادق

---

(١) ٥ يونية ١٩١٠ ــ العلم ، وفى موضع آخر من مقالاته قال « جائنا طائفة من جنود الاحتلال بألف كيلو جرام من الحشيش فى سفينة انجليزية من مالطة فهل استطاع مجلس النظار ان ينكر على المحتلين هذا العمل الشائن وهل وفق أحد من النظار فعير الاحتلال بأنه انما يسعى الى قتل نفوس الأمة » .

وطنيتنا فان هم صادونا بكلّ ما تصنعه المصانع من آلة القتال ، فان لنا من قلوبنا ما لا يستطيعون منه منالا » [1] .

وهو اذا ركز على القوى المعنوية للأمة كأساس للمقاومة فانه يحذر دائما من أعمال الفوضى والتخريب وليس كما كانوا يتهمونه مهيجا يثير الوطنيين على الاستعمار بلا روية ولا مخطط منظم . « فلتحذروا أيها المصريون أن تخرجوا بأعمالكم عن حد السكينة ، فلقد أراد مروجوا الشر من ساسة الانجليز أن يحضوكم على الفتنة والاضطراب ، والقيام بمظاهر التعصب والارهاب ، مستعجلين بذلك تلك الساعة التى يريدون أن يرفعوا فيها رايتهم ويخفضوا كلمتكم ، ولا يخرجن عملكم عن الحدود التى لا تناقض الأدب ولا تخالف القانون ، ولتحذروا أن يتطرق اليأس الى نفوسكم ؛ فانه لا سبيلَ الى الحياة مع اليأس [2] .

ويهاجم الاحتلال البريطانى لأنه يفتح الكتاتيب ويهدم المعاهد ويمزق الجيش : « راقبنا أعمال المحتلين فى ست وعشرين سنة فوجدناهم أقاموا دولة الكتاتيب ، وهدموا معاهد العلوم الراقية ، وجيشنا أصبح مغلول الأيدى قليل العلم بالفنون الحربية ، أخذه الانجليز فجعلوه فصائل صغيرة ضئيلة ، ثم بددوه وبعثروه فى ربوع السودان ليوهنوا من قوته ، ويكسروا من حدته ويقضوا على علمه حتى يخضعوا رجاله لسلطانهم ، ويستخدموهم ولو للفتك باخوانهم فى الوطنية أو الدين » .

(١) و (٢) اللواء ٢٥ اكتوبر ١٩٠٨ .

وهو يرى انه لابد لحل المسألة المصرية من أمرين أساسيين :
١ — خروج الانجليز من مصر .
٢ — اقامة حكومة نيابية دستورية ..

* * *

ويهاجم القوى الحاكمة كلها باعتبارها من أعوان الاحتلال ، من الخديو الى رئيس النظار الى النظار الى من دونهم فى حملات عنيفة قوية : أما الخديو فهو كما أعلن فى أولى مقالاته نؤيده ما دام حريصا على مصالح أمته فاذا خالف كان عليه أن يحتمل الهجوم والحرب ، وقد كشف موقفه منه على نحو صريح حين قال « ان الأمة أيها الأمير العزيز تناجيكم بألسنتها وأرواحها أن تأخذوا بيدها لتنشلوها من هول الاستبداد ، وذل الاستعباد ، قبل أن تتميز الصدور من غيظها ، وتضيق النفوس عن احتمال آلامها ، تقف الأمة اليوم تذكركم بأن الأمر فى حل هذه العقدة انما هو فى يدكم ، وقد نطقت الجرائد حتى الانجليزية باستحقاقها الحكم الذاتى ، وقد كانت لها اليابان مثلا صالحا خلع فيه امبراطورها شعار الاستبداد وأسلم أمته ما كان بيده من قياد ، فتألفت اذ ذاك الأرواح ، وتعاطفت القلوب ، هذا ما تقدمه الأمة بين أيديكم لتقولوا كلمتكم »[1] ..

وعبارة « جاويش » هنا واضحة وصريحة الى أبعد حد ، وأوسع مدى ، فهو يطالب الخديو بأن يتخلى عن استبداده ،

---

(١) اللواء — ١٧ سبتمبر ١٩٠٨ م

ويحكم من خلف دستور وحكم نيابى سليم . وهو دائما داعية هذا الحق من حقوق الأمة « ان من الخطأ الواضح والجهل الفاضح أن يقال ان الحكم الذاتى غاية لا يبلغها الانسان الا بعد أن ترتقى معارفه وتتم تجاربه ، فلقد ظهر ان الأمة لا يمكنها أن تتدرج فى سبيل السمو والكمال الا اذا كانت حرة فى تصرفاتها ، يمكنها أن تصلح شئون بلادها بمحض ارادتها وصادق رأيها .

ويظل يحمل بعنف على وزارة التسليم الكامل ثلاثة عشر عاما فاذا سقطت تلك الوزارة التى كان يرأسها مصطفى فهمى صديق الانجليز وشكلت وزارة بطرس غالى (نوفمبر ١٩٠٨) واجهها فى غاية من الاعتدال والانصاف :

« اذا كان لنا من رجال هذه الوزارة قلوب مخاصة وذمم جاهرة وأعين مبصرة ، وأيد كما يقولون مطلقة ، فان غاية ما يرجى منهم أن يتداركوا ما أفسدت السياسة الخرقاء للمحتكين فى تدبير الحالة الداخلية للبلاد ، وأن يقوموا ذلك العوج الذى يشاهد فى كل مصلحة .

نطلب مشاركة — الفئة الحاكمة فنجاب بأننا غير أهل لها . ننقد الظلم والعسف والتحيز فيقال قد أهنتم المصلحة ، هل يمكن لأحد أن يتخيل أن الوزارة الجديدة ستكون عونا للأمة على مطالبة الانجليز بالجلاء واراحة أعناقهم من نير الاستعباد الذى أوهنها وقد حملته أكثر من ربع قرن ؟ » ثم لا يلبث أن يكشف عن الطريق الحقيقى للحرية « ان الأمة يجب ألا تتكل على أمير أو وزير ، فانه لا سبيل الى انقاذهم من هذه الغمزات الآخذة

بأرواحهم سوى أن يجردوا سواعدهم للعمل ويعتمدوا بعد الله على أنفسهم فبحزمهم وصدق عزيمتهم يحرج الانجليز » [1] .

* * *

وهو يفتح الباب لسلسلة من المقالات عنوانها « خير أنواع الحكومات » يكشف فيها عن رأيه فى نوع الحكومة الذى تحتاجه مصر وبلاد الشرق والعالم الاسلامى . ويتحدث بصراحته المعهودة « يستحيل عمليا أن يستقيم شأن الحكومات الفردية أو تطول أعمارها ، أو يهدأ بال الأمم التى تخضع لحكمها . من مضارها أن رعايا هذه الحكومات التى فى قبضة الأفراد انما مثلها مثل قطعان الأغنام والسوائم فى البيداء ، ليس لها أن تفكر أو تدبر » [2] .

وعلى هذا النحو كان يمضى جاويش فى طريقه يكتب هذا بين لخروج من السجن ودخول اليه ، ومحاكمة واتهام ، فاذا توقفت مقالاته كان فى السجن فاذا عاد فانه يحمل نفس روح الصدق والجرأة .

---

(١) اللواء ١٧ نوفمبر ١٩٠٨ .
(٢) العلم - ٩/ مارس سنة ١٩١٠ .

- ٤ -

مصر والدولة العثمانية

كان جاويش صادق الايمان بأمرين جرد لهما قلمه :

١ — حق الأمة المصرية فى الحرية والدستور والجلاء وحق العالم الاسلامى كله فى ذلك .

٢ — وحدة العالم الاسلامى ممثلة فى الدولة العثمانية والعمل على بقاء هذه الوحدة ، ومقاومة تمزيقها ايمانا منه بأن فى تمزقها ضياعا للوطن كله ، وتمكينا للنفوذ الأجنبى من التهامه .

غير ان هذا الايمان لم يكن لينقص من ايمانه بحقوق مصر أو يجعل من هذا الولاء الكبير مدعاة للتضحية بكيان مصر أو حقوقها ، وعنده ان الحزب الوطنى هو أصدق هذه الأحزاب فى الايمان بمصر وحقوقها ، وأجرأ هذه الأحزاب فى الدعوة لها ومخاصمة الانجليز مخاصمة صريحة جريئة . « لا وطنى فى الأحزاب الا الحزب الذى يرى انه لا اعتدال مع الاحتلال ، ذلك الحزب الذى لا يستهوى رجاله شىء من الأوسمة والألقاب ، ولا التماس المجد باستفتاح الأبواب ؛ الحزب الذى يرى سعادته وعزه فى أن يتقلص ظل السلطة الأجنبية من الربوع ، وتذهب عن بلاده آثار الحكومة الفردية فيصبح بيد الأمة نفسها تدبير سياستها » .

ولكنه مع هذا الايمان بالحق القومى يتابع بقوة تطور الدولة العثمانية خاصة بعد أن صدر الدستور عام ١٩٠٨ وبدأ حكم جديد قوامه اطلاق حرية الصحافة العثمانية واصدار الدستور ، وهو فى عرضه لذلك يذكر مصر ويطالب لها بمثل ما حققت تركيا فاذا أتيح له زيارة (الآستانة) فى أوائل عام ١٩٠٩ توالت مقالاته ، وكلها منصبة على ما حققت الدولة العثمانية مطالبا به لمصر « لقد زرنا أثناء مقامنا بدار السعادة [1] مجلس النواب غيره مرة ، فرأينا مقام الرأى العام فى ذلك البلد ، ومبلغ سلطان الأمة على الأفراد القابضين على أزمة الأحكام ؛ رأينا الصدر الأعظم ومن دونه من الوزراء يؤتى بهم فى ذلك المجلس ليحاسبوا على ما قدمت آيديهم ، نعم يجب أن تقوم من الأمة طائفة تعرف من جسمها موضع الضعف فتقويه ، ومعهد النقص فتكمله ، ولا يغرن البسطاء ما يتشدق به الانجليز وعبادهم من موظفى الحكومة من أن الأمة (أى مصر) لم تتهيأ بعد للحكم النيابى ، وانه لابد لنا قبل أن تتمتع بتلك النعمة الجليلة أن نصرف ملايين من الجنيهات فى افتتاح الكتاتيب وتعليم البنات (كات ومات ورات) الى نحو ذلك من السخافات ، فان الأمة أحوج ما تكون الى الحكم النيابى ، وهى جاهلة منحطة ، فانه هو الذى ننهض بها ويرفع من شأنها ، وهو الذى يقود النفوس على الاقدام والجرأة ويطهر القلوب من آدران الأمراض النفسية » .

---

(١) هكذا كان يطلق على الأستانة عاصمه الدوله العثمانية وكان يقال ايضا الأستانة العلية .

ثم هو يوالى (الدولة العثمانية) فى تطوراتها ومختلف مواقفها السياسية فى عديد من المقالات تبدو فيها « مصر » دائما هدفه فى أن تصل الى ما وصلت اليه الدولة العثمانية أو مهاجما مؤامرات بريطانيا ضدها أو ضد هذا الجزء أو ذاك من الوطن الكبير [1] .

فاذا أحس أن بريطانيا توجه مؤامرة الى « العراق » لا يلبث أن يكشف عنها فيعلن أن السير ويلكوكس — معتمد بريطانيا فى الخليج العربى — يريد أن يكون غردونا آخر فى بلاد العراق (يقصد غردون الحاكم البريطانى الذى سلم السودان للانجليز وأدار مؤامراته فى الانفصال عن مصر) . فهو أى ويلكوكس — « يرسل الى وزارة خارجية انجلترا الخرائط والرسوم والفوتغرافيات التى أحاطت بكل ما يلزم الفاتحين معرفته من الأراضى الجيدة التربة والأنهار والجداول » والهدف هو التمكين للجنيه الانجليزى ، ثم يقول « ما ترجو للعراق اذا احتل الجنيه الانجليزى أرض الفلاح العراقى وملك مفاتح الخزائن العثمانية ، اننا نتوقع أن يأتى يوم تطلب فيه بريطانيا أن تصون أموالها وحقوقها فى تلك البقاع ، .. وسيزيدها تمسكا بذلك وجود من عسى أن يقيموا فيها من رعاياها الهنود ، وهل تذرع

(١) يقول مستر بلنت فى مذكراته « وقد نصحت لهم — أى للمصريين — أن تكون صلات المصريين بالدولة العثمانية حسنة بوجه خاص لأن العلاقة بينهما هى فى الواقع الضمان الحقيقى لسلامتها من مطامع الانجليز » .

الانجليز الى امتلاك أملاك أمريكا الشمالية وايران والهند بغير تلك الطريقة البسيطة التى هى طريقة الاستعمار والهجرة .. » .

وبالرغم من شعارات الحركة الوطنية بالدعـوة الى « مصر للمصريين » فقد توالت الاتهامات الموجهة اليها والى صحفها والى فريد وجاويش بالانحياز الى الدولة العثمانية والدعوة للجامعة الاسلامية ، ويكشف جاويش الحقائق فيعجب كيف انه « اذا أظهرنا عطفنا على المسلمين المضطهدين فى احدى بقاع الأرض ؛ فذلك لا يؤخذ دليلا على اننا نرمى الى الجامعة الاسلامية وانما عطفنا هذا كعطف الانجليز على الفنلنديين ؛ بل هو كعطفنا نحن المصريين على الترنسفاليين أمام حرب البوير ؛ وعلى الايرلنديين .

أما ما يرى من ارتباط مسلمى مصر بالدولة العلية فما ذلك لأنهم يريدون أن يكونوا عبيدا للترك أو يسلموا بلادهم الى الترك بما يسلبها مزاياها وامتيازاتها ، وانما ذلك لأنه لابد لكل أمة فى هذا الوجود من صديق تعتضد به وتتناول واياه المنافع العـامة .

ويتساءل جاويش « أو ليس تبادل المنـافع هو الذى خلق الاتفاق الفرنسى [1] الانجليزى ؟ ودفع الفريقين الى تناسى تلك الدماء العزيزة التى كست بها أراضى فرنسا قرونا عدة ؟ وتبادل المنافع هو الذى هوّن على فرنسا تنازلها عن مصالحها فى مصر ؛ ان المصريين يعلمون يقينا ان تركيا لا تطمع فى امتلاك بلادهم ؛ على أن مركز مصر الجغرافى السياسى ليس مما يحمل دول أوروبا

(١) يقصد الاتفاق الودى بين بريطانيا وفرنسا سنة ١٩٠٤ .

على التساهل مع تركيا اذا هى طمحت يوما الى ما لا يتوقع أن تفعله من الطموح الى امتلاك مصر امتلاكا .. » .

ثم يكشف جاويش عن هدف الارتباط بين أجزاء العالم الاسلامى ممثلة فى وحدة الدولة العثمانية ؛ هذا الهدف الذى يتلخص فى استنهاض همم المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها الى مجاراة الأمم الراقية فى أعمالها ومساعيها ، واستنفارهم الى الاستزاده من نور العلم وتثقيف النفس ، وتساءل عما اذا كانت وطنية الحزب الوطنى تتعارض مع نهضة المسلمين وحثهم على النهوض بأنفسهم الى « حيث النباهة والرفعة والعلم الصحيح » وقال ان الوصمة كل الوصمة أن يدعو الحزب أحد المسلمين الى مناهضة من يشاركونهم فى الحقوق الوطنية أو معاكسة من يخالطونهم من الأمم الأجنبية النازلة ببلادهم . ان العار كل العار أن يفكر أحد رجاله فى مقاطعة ضيوفهم من ذوى الملل الأخرى ومنافرتهم ، ومحاربة مصالحهم فى العلانية أو السر ، وانه لا يشين وطنية الوطنى ولا حرية الجرائد أن تشيع دعوته العامة الوطنية ، فى سبيل حماية مجموع الأمة » (١) .

وتعطى هذه الكلمات الصريحة الواضحة حقيقة موقف الحركة الوطنية وجاويش من اتهامات الاحتلال وأحزابه . ومقطع قوله فى هذا « لو كان الذين رمونى بهذه التهمة — أى الولاء للدولة العثمانية — ممن يعقلون لعرفوا ان الشرق برمته كتلة

---

(١) العلم ١٥/١١/١٩١٠م .

واحدة لا يسلم منه جزء الا يتماسكه هو وغيره ولا يمكن لأمة مهما بلغ عددها أن تفوز الا اذا اعتصمت بأختها المشاركة لها فى خصائصها » .

ويسير « جاويش » فى مواجهة قضايا للعالم الاسلامى على هذا النحو ، فاذا رفض الشاه أن يصدر الدستور فى ايران واحتج على ذلك ببعض علماء الدين ، واجهه مواجهة صريحة وهاجم العلماء فى عنف واتهمهم بأنهم لا يفهمون الاسلام وان الدستور ضرورة لابد منا وانه لا يعارض الدين ..

* * *

ثم تهاجم ايطاليا « طرابلس الغرب » فيهتز جاوش للموقف فى صيحة مدوية يومية تحمل جريدة العلم لواءها ويكتب كل يوم [1] مطالبا العالم الاسلامى كله بالتقدم للتطوع والتبرع بالمال « فالنجدة النجدة أيها المسلمون فانكم اذا تباطأتم فانه لا مطمع لكم بعد دولتكم فى الحياة ، النجدة النجدة أيها المسلمون ؛ قدموا أموالكم وتطوعوا بأنفسكم فانكم اذا لم تفعلوا اليـــوم فليأتين يوم فيه تشردون عن أوطانكم ؛ وتصادرون فى أموالكم .. » وتتوالى رءوس افتتاحياته : النجدة النجدة ؛ الخطر الخطر ، تلك دولتكم فانصِروها ، لمثل هذا اليوم ولدتكم أمهاتكم ، ســلام على المجاهدين ، انفروا خفافا وثقالا ، ثم يوالى كتاباته « سلام على أولئك المجاهدين الذين دعاهم وطنهم لرد عادية العدو عنه

(١) بدأت هذه المقالات فى ٢٨ سبتمبر ١٩١١ (العلم) .

فأجابوه ، واستنفرهم لاغاثته فأغاثو ، وأهاب بهم أن ضـونوا الذمار فأطاعوه ؛ سلام على أولئك الطرابلسيين المقاديم الذين بايعوا وطنهم على أن يريقوا حول حماه آخر قطرة من دمائهم فى سبيل الجهاد دونه ، وهبوا فى وجه العدو يصدونه وهم يرتضون احدى الحسينيين » ثم يواصل حملته « أيها المصرى المسلم : أخوك أخوك لو شطت داره ونأى مزاره ، تراك تشفق عـلى الكلب اذا قرصه البرد ؛ أو آلمه الجوع ، ثم لا تخف الى اسعاف اخوانك الذين تتنازعهم عوامل الشقاء والبؤس من أمامهم ومن خلفهم » .

ولم يتردد فى أن يحمل حملة عنيفة على لطفى السيد رئيس تحرير الجريدة عندما عارض فى معاونة طرابلس داعيا المصريين الى التوقف عن تقديم المساعدات .

- ٥ -

محاكماته وسجنه

واجه « جاويش » فى خلال الفترة القصيرة التى ولى فيها تحرير « اللواء » و « العلم » محاكمات متعددة . اتسمت بالعنف والقسوة . فقد كان ذلك طابع الفترة على ضوء الاتجاه الذى رسمه « غورست » خليفة كرومر ؛ بعد أن أرضى القصر وتضامن هذا الأخير مع سلطان الاحتلال لمناهضة الحركة الوطنية . التى كانت قد فتحت صفحة جديدة فى المقاومة العنيفة للاحتلال بزعامة فريد وقلم جاويش . على أساس مفهوم واضح هو مقاومة الاحتلال ذاته . لا مقاومة سياسته أو تصرفاته على النحو الذى كان يضعه أصحاب سياسة « منتصف الطريق » وصحفهم . هنالك كان لابد من مواجهة صحافة الحزب الوطنى بالمقاومة عن طريق التشريع والمحاكمة . فأعيد تنفيذ قانون المطبوعات الصادر فى ٢٦ نوفمبر ١٨٨١ وكان قد أوقف العمل به وهو قانون يفقد الصحفيين كل ضمان ويجعلهم تحت رحمة الادارة مباشرة بحيث يمكن تعطيل أى جريدة بدون محاكمة بأمر من ناظر الداخلية بعد انذارين .

كما ألغيت الضمانات التى كانت تتمتع بها الصحافة . فقد كانت محاكمة الصحفيين تتم على درجتين ابتدائية واستئنافية .

وكان من شأن هذا النظام اطالة مدة المحاكمة فيزداد اهتمـام الجمهور بالحركة الوطنية فظهر قانون احالة جنح الصحافة الى محكمة الجنايات للحكم فيها حكما نهائيا — وقد كان استفاد جاويش بالنظام القديم فى قضيته الأولى حيث حكمت محكمة أول درجة بتغريمه عن احدى التهمتين الموجهتين اليه وفى محكمة ثانى درجة رفعت الغرامة وحكم بتبرئته من التهمتين : وهنا أحس الاحتلال بضرورة الغاء هذا النظام .

وقد هاجمت « اللواء » اعادة قانون الصحافة القديم عندما تقرر اعادته (مارس ١٩٠٩) واتهمت الحكومة بأنها تخشى ثورة الناس لسوء تصرفها . وقد حاولت صحف المؤيد والجريدة أن تتهم اللواء بأنها هى السبب فى بعث القانون القديم وكتب جاويش كلمته الخالدة « أيها القلم » .

« أيها القلم : لو كنت سيفا لأغمدتك فى صدور من يحاربونك أو سهما لأنفذتك الى أعماق قلوبهم ؛ ولو كنت جوادا لوجدت لك ميادين النزال مجالا للكر والفر ولكنك ذلك العدو الذى أيسر ما ينال منه عدوه أن يعالجه بالمبراة فيشققه أو بالأصـابع فيكسره أو يحطمه .

أيها القلم : استلانوا عريكتك واستهانوا بقوتك فمدوا اليك يدا مجرمة ما كان أولاها أن تقطع . كفروا بنعمتك ، وأنت جميل الغرض . نبيل القصد ؛ تسهر وهم نائمون وتجرى وهم قاعدون ؛ لم يزدهم نورك الا ضلالا اقتربت منهم فأبعدوك وأطلقت ألسنتهم فأخرسوك .

فلتكن أيها القلم كما شاءوا لك ، اما نائما الى حين أو ميتا أبد الآبدين فقد تركت بعدهم عيونا لا يأخذهم النوم وقلوبا لا يملكها اليأس ، وأيدى لا تخاف السلاسل والأغلال ، وأرواحا تفدى الحرية والاستقلال . وأنت يا رب القلم : اصبر على ما سينزل به وأنت رابط الجأش ، قوى الفؤاد ثابت العزم ؛ فكم ابتلى قبلك المصلحون وكم أعنت فى سبيل بلادك العاملون . لا يصرفك عن تأييد مبادئك ، الدفاع عن عزيز وطنك ما يرجف به المرجفون فيد الله فوق أيديهم والله لا يهدى كيد الخائنين » [1] .

* * *

وقد واجه « جاويش » الصحف التى أيدت اعادة قانون المطبوعات وكشف عن الهدف الأساسى لاعادة القانون وهو مقاومة صحف الحزب الوطنى وحدها وقال ان الصحف الاحتلالية تخرج طافحة « بسب » الصحف العربية والطعن فى كرامة أصحابها ومحرريها وقال : ان غاية ما تستطيع الحكومة هو أن تكم الألسنة عن الكلام وتمنع الأقلام من الصرير والأشخاص عن الاجتماع ولكنها لا تستطيع أن تمنع القلوب عن التقلب والعقول عن التفكير والنفوس عن الانفعال . وأشار الى أن الصحف الموالية للاحتلال تنشر ما يكدر السلام ولا تجد من يحاسبها على ما تنشر . وقال « ان الذين اتخذوا صحفهم اشراكا لمنفعة أو شفاعة بين يدى سلطان أو أمير فهؤلاء فى سياج من مقاصدهم لا يهدمه قانون المطبوعات » .

---

(١) اقرأ المقال كاملا فى اللواء ٢٦ مارس ١٩٠٩ م

وقد حوكم جاويش ثلاث محاكمات كبرى :

المحاكمة الأولى : حادث الكاملين فى السودان (١٩٠٨) .

المحاكمة الثانية : ذكرى دنشواى (١٩٠٩) .

المحاكمة الثالثة : تحسين كتاب وطنيتى وكتابة مقدمته (١٩١٠) .

وفى المحاكمة الأولى حكم بالبراءة وفى كل من الثانية والثالثة سجن ثلاث شهور ولا حاجة بنا الى تفصيل هذه المحاكمات هنا فان المجال لا يتسع لها [١] وكل ما يمكن أن يقال ان جاويش كان فى المحاكمات الثلاث رائعا ، نفس الطبيعة الغنية بالشجاعة والمقدرة الى حد العنف الذى يتسم به والجرأة التى يحملها على سن القلم . كان يعرف تماما الجو حوله . وكان مؤمنا بأنهم انما يريدون أن يتخلصوا منه بالسجن أو النفى أو أى وسيلة أخرى يقاوم الاستعمار بها الأحرار : « أحرار القلم » ولكنه كان مؤمنا كبير الايمان بالله قادرا على مواجهة المعركة . وقد كان يعرف — كما روى لى صهره الدكتور محمد فهمى الفولى — انه مطلوب للتحقيق فى الغد ، أو ربما فتش بيته وطلب لتسليم نفسه أو وجد من يراقبه ويحصى عليه خطواته ، فما كان ذلك ليصرفه قيد أنملة عن برنامجه الطبيعى ، ينام ملء عينيه ؛ ويؤدى واجباته كما هى ؛ ولا يغير من عاداته شيئا فاذا

---

(١) محاكمات جاويش بالتفصيل فى كتابنا « تطور الصحافة العربية » يصدر قريبا .

كان خارج المحكمة وعلم بالحكم أسرع من فوره فسلم نفسه لأقرب قسم بوليس ، لا يتردد ولا ينتظر حتى يخطروه وقد ألف السجن ولم يكن يعده أمرا مزعجا بالنسبة له . وهو فى سجنه ، كما هو فى خارجه ، لا يضيق بشىء ، يقـرأ فى كتابه أو يصلى أو يتأمل دون أن تفارق وجهه ابتسامته وهدوءه ، أينما يحل موضع التقدير والتكريم .

ففى قضية « الكاملين » هاجم حكومة السودان على تصرفها بالنسبة لزعيم ناحية الكاملين (عبد القادر امام) الذى ادعى النبوة وتبعه الكثيرون فسيرت اليه حكومة السودان قوة ودارت معركة انتهت بمقتل جنود بريطانيا التى لم تلبث أن حشدت قوات ضخمة وأصدرت أحكامها على ٧٠ بالشنق و ١٣ بالسجن فلما نشر جاويش هذا الخبر وعلق عليه قدم للمحاكمة . ومنع من أن يقدم الأدلة والأسانيد التى تثبت صحة الخبر . وحيل بينه وبين تقديم الصحف السودانية التى نشرت الخبر .

وبدا واضحا من سرعة تقديم جاويش للمحاكمة وتحديد جلسة سريعة ، ومحاولة اخفاء المستندات التى تؤيد رأيه . انه انما يراد ضربه بشدة منذ الشهر الأول لتوليه رئاسة تحرير اللواء بعدما بدأ من عنف مقالاته وجرأته . وقال جاويش أمـام المحكمة عبارة واحدة : « انى رويت خبرا بغير سوء قصد » وكانت النيابة العامة قد وجهت اليه تهمة تكدير السلم العام ، ولكن القضاء برأ جاويش فى الدورين الابتدائى والاستئناف .

ولم يتوقف جاويش ، بل أنه فى خلال المحاكمة التى امتدت

من مايو الى أغسطس ١٩٠٨ ظل يوالى مقالاته العنيفة فى الهجوم على بريطانيا دون أن يجعل لما لقيه من متاعب أثرا فى تخفيف لهجته .

ولم تلبث أن اقتربت ذكرى دنشــواى فى مايو ١٩٠٨ وقد وقعت هذه الحادثة عام ١٩٠٦ واهتز لها الرأى العام العالمى ؛ وكان للحزب الوطنى وصحفه ومقالات مصطفى كامل أثر واضح فى حمل بريطانيا على سحب معتمدها كرومر وقد صادفت ذكرى دنشــواى وجود بطرس غالى ناظر الحقــانية ورئيس المحــكمة المخصوصة التى علقت المشانق قبل نظر القضية تصادف أن كان رئيسا للنظار . وكان فتحى زغلول عضو محكمة دنشواى قد ترقى وكيلا لنظارة الحقانية وكان الحزب الوطنى يحتفل بهذه المناسبة دائما وكان لابد أن يتناول « جاويش » هذه الذكرى بمقال ، غير انه على طريقته فى العنف والشدة لم يتردد فى أن يوجه لبطرس غالى وفتحى زغلول أقسى عبــارات اللوم والتقريع والاتهام . ولا شك أن تولى بطرس غالى لرئاسة النظار بعد اقصاء مصطفى فهمى واجه روحا من السخط من قبل الشعب ولقى حملة عنيفة من الحزب الوطنى ووصف بأنه ثمن الخيانة . وقد كتب جاويش يقــول :

« سلام على أولئك الذين كانوا فى ديارهم آمنين مطمئنين ؛ فنزل بهم جيش الشــؤم والعدوان فأزعج نفوســهم وأحرق حصادهم ، فلما هموا بصيانة أرزاقهم التى عملوا فى ســبيلها بأجسامهم ، ودابتهم وأرضهم ، قيل انهم مجرمون فسيقوا فى

السلاسل والأغلال ثم صلبوا على مرأى ومسمع من زوجاتهم وأمهاتهم وبناتهم وعيالهم وأصدقائهم وجيرانهم ، سلام على تلك الأرواح التى انتزعها بطرس غالى رئيس المحكمة المخصوصة القضائية من مكانها فى أجسامها كما تنتزع السلوك الحرير من خلال الشوك قبضها بيده فقدمها قربانا الى ذلك الجبار الظالم لغاصب القاهر القائم فى بلادنا بنفاقنا وضعة مقاصدنا المستبد بالأمر فينا بسبب تفرقنا وضعف عزائمنا .

سلام على أولئك الذين وقف هلباوى بك فثار فيهم ثوران الجبارين ، ثم انثنى على رقابهم فقصمها وعلى أجسامهم فمزقها وعلى دمائهم فأرسلها تجرى فى الأرض تلعن الظالمين وتتوعد الآثمين [1] .. الخ .

ولم يلبث جاويش أن اتهم باهانة رئيس مجلس النظار ووكيل الحقانية وقدم للنيابة العامة وجاء فى القرار انه نسب الى « عطوفة الباشا » انتزاع أرواح بريئة بقضائه ليقدمها قربانا للورد كرومر . والطعن فى عطوفة الباشا وسعادة فتحى باشا بأن الذى أنطقهما بهذا الحكم الجائر هو رغبتهما فى المناصب ورهبتهما من عظمة الاحتلال وغير ذلك من ألفاظ السباب والفحش كرميهم بخيانة بلادهم وبيعهم ذممهم » .

وكانت الحكومة قد أفادت من تجربة المحاكمة الأولى فوضعت القيود التى تكفل لها الحكم بالادانة وسرعة المحاكمة واعتبار الحكم نهائيا منذ النطق به .

(١) مقال ذكرى دنشواى « اللواء ٢٨ يونية ١٩٠٩ » .

وأعلن المقطم قبل صدور الحكم بأن المحكمه لن تمكن المتهم من اثبات الوقائع التى ذكرها وعندما صدر الحكم بسجنه ثلاث شهور استقبل ذلك أسوأ استقبال من المواطنين وانهالت البرقيات بالاحتجاج واستمرت أياما طويلة تغطى أعمدة كثيرة فى صحف الحزب الوطنى .

واستقبل جاويش الحكم راضيا باسما وعاد منه أشد صلابة . فلما حان موعد الافراج عنه أخرج فى منتصف الليل حتى لا تستقبله الجموع التى كانت تنتظره فى الصباح فقد حمل فى عربة تحت جنح الظلام الى بيته . وقد احتفل بتكريمه فى فندق شبرد وأهدى اليه « الوسام الوطنى » هدية الشعب الذى اشتركت جميع طوائفه فى تقديمه على نحو رائع مؤلف من ثلاث قطع من الذهب صنعه محمد على الجواهرى بالصاغة وعلقه على صدر أحمد لطفى وكيل الحزب الوطنى . كما أهدى اليه طبق من فضة عليه محابر من خالص اللجين ومعها أدواتها وقد احتشدت الجماهير فى الطرقات المتصلة بالفندق مزدحمة بعشرات الألوف من المتحمسين .

وفى كتاباته عن « خواطر السجن » وخطابه فى حفل تكريمه كشف عن نفسيته فهو « لا يتلقى الوسام لأنه من الذهب الوهاج . بل لأنه كرامة ولا يأبى الكرامة الا لئيم » وهو لا يستطيل ولا يتعالى بل يتواضع حين يقول : « أين أنا ممن جاهدوا بأموالهم وأنفسهم وبلغوا بأممهم ما بلغوا من المجد والرفعة » ثم قال ان خدمة الوطن فريضة ولا جزاء على الفريضة .

وعاود انذاره لمن أسماهم أدعياء الوطنية . وأعلن أنه لن يتردد في مهاجمتهم وعاهد مواطنيه على أنه لن يألو جهدا في سبيل الكفاح ولو أسلم جسمه للبلاء وروحه للفناء .

وقال : هذا عهدى فيكم ما حييت . لا ابتغى مالا ولا تشبع ان الدنيا بمالها وجمالها وكبريائها ووزرائها ، لا تعدل عندى أن كونى معافى فى وطنيتى فى اخلاصى لأمتى وخدمتى لدولتى .

* * *

وقدم للمحاكمة ١٩١٠ فى نفس موعد القضية الأولى ١٩٠٨، والثانيــــة ١٩٠٩ بتهمة كتابة مقدمة لديوان عـــلى الغاياتى « وطنيتى » .

وكانوا قد حققوا معه فى أوائل ١٩١٠ بمناسبة حادث مقتل بطرس غالى لما عرف من صلته بقاتله « ابراهيم ناصف الوردانى » الذى كان من شباب الحــزب الوطنى فى محاولة لاشراكه فى الجريمة . وأن ظل متهما فى نظر الاحتلال والحكومة الموالية له لأن كتاباته فى تقديرهم كانت ذات دخل فى كثير من الأحداث .

ولما أفلت من قضية الوردانى جاءت مناسبة كتابه « مقدمة ديوان « وطنيتى » وسيلة طيعة لمحاكمته مع زميله فريد الذى كتب مقدمة أخرى للديوان ولمؤلف الديوان نفسه الذى نصحه جاويش بأن يفر سريعا مختفيا عن الأنظار . أما محمد فريد فقد كان غائبا عن مصر اذ ذاك فى رحلة الى أوربا وكذلك وجهت المحاكمة الى رجل واحد هو «جاويش» محرر العلم والمقيم بالعباسية بجهة ميدان الحرية بملك الشيخ عبد الرازق عوض . والمعروف أن جميع

قصائد الديوان نشرت فى صحيفتى اللواء والعلم كما نشرت مقدمات الديوان بالعلم دون أن يوجه اليها أى اتهام . ولكن الديوان كله اعتبر حين صدر وسيلة جديدة لتهديد جاويش ولقصف القلم الحر ولو لمدة ثلاث شهور أخرى فى ذلك العام . والواقع ان محاكمات جاويش لم تفلح فى تخفيف لهجته أو تغيير اتجاهه . وكان جاويش قد ترك (اللواء) الى (العلم) ورؤى أن لا يكتب اسمه على رأس الصحيفة تخفيفا لبعض القيود الادارية . ولكن (العلم) ظل هو (اللواء) الذى كان يحرره جاويش ، نفس الطابع وحرارة الكلمة وعنفها . كانت روحه واضحة فى كل صفحة وكلمة .

وقد وجهت النيابة الاتهام الى جاويش لأنه مجد الديوان وحسنه فى مقدمته وحض على قرائته . وبذلك اعتبر مسئولا عن الجرائم التى كتبت فيها القصائد التى وصفت بأنها تحض على القتل وكراهية الحكومة وتحسين الجريمه . وقد اعتبر فاعلا أصليا مع الغاياتى « لاتيانه عملا من الأعمال المكونة لهذا الكتاب وشريكا للمؤلف وذلك بمساعدة الفاعل مع علمه بالجريمة على ترويج ونشر هذا الكتاب » .

وكان هذا غاية فى افتعال الاتهام ومحاولة قصف هذا القلم بأى محاوله . وقد نظرت القضية فى ٦ أغسطس ١٩١٠ وقال الدفاع : المقدمة التى كتبها جاويش قد كتبت قبل فراغ على الغاياتى من تحرير كتابه وأن القصد منها ليس تقريظ الكتاب .

بل الحديث عن الشعر وتأثيره . وبذلك لا يجوز اعتباره فاعلا أصليا فى تلك الجرائم بفرض وجودها .

وأمضى جاويش شهور السجن الثلاثة راضيا قارئا ومتأملا ومفكرا فى أمر وطنه . وأخرج من السجن مرة أخرى على النحو الذى جرى معه فى المرة السابقة فى كتمان وسر حتى لا يحتفل باستقباله وعاد الى الكتابة بمقال عنوانه « ما هى علتنا الحقيقية » يبدو منه أنه صار أشد عمقا فى فهم مبادئه . وان بدا للمرة الثانية أنه قد أصبح يرى أن « التربية الوطنية » أكثر أهمية فى بناء الأمم وأشد ضرورة لمقاومة الاحتلال ونفوذه .

وقد دعا الى توجيه الهمة الى تكوين نفسية الشباب وتربيتهم التربية الحقيقية التى هى مجمع الفضائل ومبعث الكمالات وقال ان « التربية النفسية » هى التى تتوقف عليها رفعة الأمم وانحطاطها بل يتوقف عليها عدلها ووجودها . ودعا الى تأسيس معاهد للعلم والتربية تضم أقسامها الحسية والعقلية والنفسية مما لا يوجد فى مصر اذ ذاك ودعا الى تأسيس ادارة معارف أهلية .

وكانت هذه هى تجربة السجن . وخبرة المفكر المنطلق غير المقيد خلال ثلاثة شهور وهى ليست انحرافا عن اتجاهه الأول بل تعميق له وليست انصرافا عن المقاومة ولكن توسيعا لنطاق دائرة العمل . ولقد عاش « جاويش » حفيا بالعمل التربوى الى جانب العمل السياسى والاجتماعى خلال هذه الفترة . وكان ممكنا

أن يقدم ثمرة ضخمة فى هذا المجال لولا أن السياسة كانت تشده دائما اليها .

وبعد فهل كانت هذه المحاكمات هى نهاية الشوط ، الواقع ان لا . فقد بدا واضحا ان الدائرة تضيق على جاويش وأن الطريقة فى الخلاص منه كانت هى أهم ما يشغل خصومه من رجال الاحتلال وأعوانهم من الحكام .

وكان السؤال هو : هل سيترك الاحتلال « جاويشا » وقلمه الحر ، وهل يدخله السجن كل عام مرة ، ثم مر عام ١٩١١ دون أن يدخل جاويش السجن . وكان قد بدا يعمق عمله الثانى فى مجال التربية والخدمة الاجتماعية وبناء العقول والنفوس . وأخذ يتوسع فى مجال انشاء المدارس والجمعيات والمؤسسات والنقابات .

وكان هذا الاتجاه أشد خطرا على الاحتلال من الكلمات الداوية التى تمثل الأبخرة المتصاعدة فى الهواء . ذلك ان بناء الشباب أشد خطرا من الكلمة النارية المشبوبة .

ولذلك كان لابد من « اجراء » حاسم للتخلص من جاويش ومن الحركة الوطنية والقضاء على هذا الصنف من العاملين على نحو آخر .

- ٦ -

معاركه ومساجلاته

كان لابد أن تثير مواقف « جاويش » معارك فى المعسكرات الأخرى ، هذه المعارك التى لم يكن يحجم عن أن يخوضها بنفس العنف والمرارة التى عرفها قلمه فهو لا يجامل فى الحق ، والانسان عنده اما على الرأى الصحيح فى الوطنية والايمان بالحرية والدفاع عنه ؛ أو هو منتفع أو عميل لخصوم هذا الوطن ولا وسط .

ومن أجل هذا دارت المعارك بينه وبين البارزين فى المعسكرات الصحفية الأخرى : أصحاب المقطم ، ولطفى السيد محرر الجريدة ، وعلى يوسف صاحب المؤيد ، ورشيد رضا ، منشىء المنار .

* * *

أولا — أما أصحاب « المقطم » فقد كانوا عملاء الانجليز علانية — لا سيما فى هذه الفترة وحتى الحرب العالمية الأولى ، ولقد كانت مقالات الدكتور فارس نمر فى خصومة اللواء ومصطفى كامل ومحمد فريد غاية فى العنف ، هذا العنف الذى كان يحمل الألفاظ المقذعة ، مع اللؤم والمكر . فى الدس والتآمر على نحو

غاية فى القسوة ، وكانت حملاتها كلها موجهة فى هذه المرحلة الى جاويش والى صحف الحزب الوطنى .

وكان « المؤيد » — وهو جريدة الخديو — يسير فى نفس الصف المحاسن للاحتلال بعد أن تم الاتفاق بين غورست وعباس ، وكانت « الجريدة » دائما على نفس الطريق فى محاسنة الانجليز ، ولذا فقد حملت الجريدتان على جاويش واللواء والعلم من بعده ؛ بمناسبة اعادة قانون المطبوعات ، وظهور قوانين تقييد الصحف أكثر مما حملا على الحكومة نفسها .

ولطالما قدم أصحاب المقطم كتابا أمثال « ولى الدين يكن » لمهاجمته بشدة على أساس الخلاف فى وجهة النظر بينه وبينهم حول متابعة الانجليز أو خصومتهم وحرض ولى الدين يكن على هجاء جاويش فقال انه : لا رادع له من الحاكم ، ولا رادع من المحكوم ، متنقلا من سجن الى سجن ، لا يحب الانجليز ولا يحب الفرنسيين ؛ ولا يحب العثمانيين [1] الخ » .

وقد كان الخلاف واضحا بين جاويش وأعوان الانجليز من الأتراك ، أمثال ولى الدين يكن ، أو أعوانه من السوريين أمثال أصحاب المقطم .

ولكن « جاويش » لم يكن يدعهم يقولون كلمة كاذبة حتى يوجه اليهم أعنف النقد .

وفى موقفين من أبلغ المواقف هاجم ادعاءهم (أولا) عندما

---

(١) المقطم — ٣٠ مارس ١٩١٠ .

ادعوا انهم كانوا السبب فى نوال تركيا الدستور فكشف لهم جاويش عن حقيقتهم :

« لقد أقام فينا أصحاب المقطم السنين الطوال ، فكانوا حجاج بيت اللورد كرومر الحرام ، يتعبدون بطوافه ، ولثم حلقة بابه ، استصفاهم ذلك اللورد بعد أن عجم عودهم ، وغمز قناتهم ، فوجدهم كما يشاء دهائا وملقا ومكرا وخداعا ، وجدهم أكفر الناس ببلد أنقلهم باللحم والشحم ؛ وأنقذهم من الفاقة والعدم ، وكونهم بعد أن آكلتهم بلادهم ، ثم لفظتهم لفظ القدر ، ولو علمت فيهم خيرا لأبقتهم لها ذخرا حتى يفيدوها بفلسفتهم ؛ ويصلحوها بعلى حكمتهم ، أقام فينا أولئك الفلاسفة عمرا طويلا فكانوا ربيئة الانجليز ، لا يتركون خبيئة من الخبايا ، الا نقلوها اليهم كما يشاء لهم أولياؤهم من المحتلين ، ولو علم اللورد كرومر بأقدر منهم على السعاية والوشاية والافساد لضرب اليه آباط الابل ، ولما استحفظهم على سره ، واستخدمهم فى تزيين حكومته الجائرة ، وترويج سياسته البائرة »[(1)] .

(ثانيا) هاجم المقطم مرة أخرى بعنف لموقفه من معركة مد أجل امتياز قناة السويس سنة ١٩١٠ وكانت الوزارة القائمة قد تقدمت الى مجلس الشورى بمد أجل امتياز قناة السويس الذى ينتهى ١٩٦٨ الى عام ٢٠٠٠ فى نظير منح مصر مبلغا كبيرا من المال ، فقد وقفت الصحف المصرية كلها تقاوم هذه المؤامرة الا المقطم

---

(١) العدد الصادر فى ٨ سبتمبر ١٩١٨ من اللواء .

الذى توعد المصريين بالخسران لضياع الصفقة فلم يلبث «جاوش» أن كتبت تحت عنوان (لا كرامة لمأجور ، ليخرس المقطم) .

« ما بال أولئك الغرباء عن جميع الأوطان كلما رفع وطنى صميم صوته فى شأن من شئون وطنه صاحوا بأنكر صوت نافمين ؟ وما حكوه طاعنين ؟ وسخروا منه حاقدين ؟ عرفت الأمة هؤلاء الأعداء الذين لا يهنأ لهم عيش الا اذا ضاع لها حق ، وعرفت صحيفتهم الصفراء بوقا للاحتلال يصوت فيها فتردد صداه ، وآلة يديرها فتستدير .

ظهر مشروع قناة السويس فتلقفته الصحافة الوطنية بالتسوئة والتخطئة ولم تأل جهدا فى بيان ما استتر فى ثنايا هذا الموضوع ، ولكن « المقطم » الذى هو انجليزى أكثر من الانجليز ، قام نذيرا للأمة بالويل والثبور يهددها ان رفضت المشروع فانها تخسر خسارا ما منه عوضه ؛ قام بتصيد المزور والمختلق من الأقوال ، يريد بها أن يلبس الأمر على الأمة ، ويتظاهر بأنه مصرى أكثر من المصريين فاذا جاهر نائب برفض المشروع شتموه ، واذا خطأه سخروا منه وأنبوه ، واذا سوأه كاتب أنحوا عليه وطعنوه كأن مصر قد ثكلت أهلهـا ، ولم يبق من ينطق بلسـانها الا نفاضة الآفاق ؛ جاش الحقد فى صدر تلك الصحيفة فكتبت أمس فصلا تنفث فيه سـم الضغن على المصريين ، وأخـذت تطعن فى (مدكور بك) [1] وغيره من صفوة المصريين ، زاعمة لذاتها ان من

(١) أحد أعضاء الجمعية التشريعية الذين هاجموا مشروع مد امتياز القناة .

لم تلفظه قريبا سوق العرب وكفر شيما [1] فليس بسياسى ؛ وان السياسة وقف على هاتين القريتين . من لم ينبت منهما لم يكن بسياسى ؛ ولا يعرف كيف يخدم الأوطان ، يحاول المقطم أن ينال من نائب عظيم هو مدكور بك بقحته ، لأنه رفع صوته عاليا ، ووضع تلك المذكرة ، المشهورة التى كشفت عن هذا المشروع الستار ؛ وأظهرت ما كان مضمدا من الأسرار .

ألا فليخرس المقطم ، فانه أحقر عند الأمة من أن تلقى له بالا أو تقيم لحماقته وتضليله وزنا .. » [2] .

٢ — أما « الجريدة » فانها منذ اليوم الأول لها ، وهى موالية للاحتلال على نحو فيه ذكاء وبراعة ، فهى تدعى انها تمثل وجهة نظر أصحاب المصالح الحقيقية ، وهم أصحاب البيوتات والقصور وممثلو الطبقة الأرستقراطية المصرية التى كونها كرومر وقدمت ولاءها للانجليز ، وتؤمن الجريدة بأن الاحتلال أمر واقع لا سبيل لمقاومته ، ومن المصلحة الانتفاع بما يمكن الحصول عليه . ولكن المواقف المتوالية كانت تكشف تبعية الجريدة يوما بعد يوم ، ولم يكن طيبا من الجريدة على لسان لطفى السيد فيلسوف الحرية أن تؤيد عودة قانون المطبوعات ، ومن رأى جاويش انها فعلت ذلك لأنها تعلم انه لن ينفذ عليها .

وفى الوقت الذى يدعو فيه الحزب الوطنى الى مجلس الأمة المنتخب الممثل للأمة يذهب لطفى السيد الى أن « مجلس

---

(١) القريتان اللتان ولد فيهما فارس نمر وصروف .

(٢) العلم ١٩ فبراير ١٩١٠ .

الشورى » الذى صنعه الانجليز ، يصح أن يطلق عليه مجلس الأمة ، ويقول جاويش فى استهلال احدى معاركه مع مدير الجريدة :

« اذا سألنا مدير الجريدة عن المجلس الممثل للأمـــة ، ذلك المجلس الذى نطالب به ونلح فى طلبه ، لأننا الآن محرومون من مجلس يمثل الأمة تمثيلا بكافة طبقاتها ؛ واذا جارينا مدير الجريدة فى اعتبار مجلس الشورى [1] ممثلا للأمة لاعتبر ان كل ما يقرره كأنه صادر عن مجموعها ، وهذا ما لا يقول به أعضاء الشورى أنفسهم فأين هذه القواعد التى يقررها الآن مدير الجريدة من مبدأ سلطة الأمة الذى ينادى به فى كل حين ؟ هل يتفق هـــذا المبدأ الشريف السامى مع اعتباره مجلس الشورى بنظامه الحاضر ممثلا للأمة أمام السلطة التنفيذية ؟

ثم يعرض « جاويش » لما ذكره لطفى السيد من أن « لهجة » اللواء تغيرت مع الجريدة بعد موت مصطفى كامل ، وفسر ذلك على هذا النحو : اننا عندما رأيناك تنوح على فقده — أى مصطفى كامل — مع النائحين ، وتدعو الى اقامة تمثال له يمثل الوطنية الحقيقية — رجونا أن يستقيم أمرك ، وتخلص فى خدمة أمتك .

وأعاد رأى لطفى السيد فى اللواء فى أكثر من موضع .

---

(1) المعروف أن مجلس الشورى ليس مجلســا منتخبا على النحو البرلمانى الدستورى وان رأيه ليس ملزما للحكومة . وقد صنعه الانجليز بعد أن الغوا الدستور »

١ — صاحب اللواء الكافر الذى لا ينطق الا بالكفر .
٢ — سياسة اللواء خرقاء ، وكتاباته نوبة عصبية ليست من العقل فى شىء .
٣ — قوله عن خطبة مصطفى كامل فى حفل انشاء الحزب الوطنى فى ٢٧ أكتوبر سنة ١٩٠٧ : ناقل الكفر ليس بكافر .

وقال (جاويش) : اذا كان ما تحتوى عليه خطبة الاسكندرية كفرا ، فالايمان فى مذهب « الجريدة » هو الرضا بالاحتلال ، وعدم المطالبة بالاستقلال وهل يمكن أن يقال ان حزب الأمة متحد مع الحزب الوطنى ؟

وأشار (جاويش) الى موقف لطفى السيد من الذين هاجموا تكريم كرومر عند انتهاء مدة حكمه ، وحملة مصطفى كامل عليه اذ ذاك ، قال جاويش : « أنسيت حملته الصادقة على الجريدة عندما كنت تدعو القوم الى اقامة احتفال بلورد كرومر ؟ وتنشر فى صحيفتك (الجريدة) هذه العبارة : « ومما يذكر لجناب اللورد كرومر من علو الهمة والثبات على مبدأه أن كبار الأعيان طلبوا اليه أن يقدموا له هدية تذكارا لشخصه يذكر به المصريين الذين أقام بينهم هذا الزمن الطويل موفور القسط من الرفعة الذاتية والشمم وحسن اللقاء والحلم » .

وردد جاويش — فى مجال تصوير الفرق بين مفاهيم الجريدة واللواء للوطنية قول مصطفى كامل « ان سياسة الجريدة تدلنا على انها أشد الجرائد تعلقا بالاحتلال وحسبنا قدحها فيمن استنكروا

الاحتفال باللورد كرومر ، أعدى أعداء المصريين ، والطاعن على الاسلام والمسلمين » [1] .

وأضاف جاويش قوله : « ولا عجب من أن يكون مــدير الجريدة هو الآلة الخادمة لهذه السياسة .

* * *

وتدل هــذه الصورة على مدى الفارق الواضح بين اتجاه جاويش واتجاه لطفى السيد ، هذا الاتجاه التى تبدى من بعد فى صورة أخرى ، عندما هوجمت طرابلس الغرب ، فنهضت مصر كلها لتدافع عنها ، وتقدم لها الأموال والرجال والأسلحة ، لمقاومة الاحتلال الايطالى العنيف ، الذى كان يدمر السواحل الليبية جارة مصر ، هنالك تصدى لطفى السيد للأمر فسخر من المصريين لموقفهم من طرابلس ، وقال : ما لنا نحن وهذا الأمر ؟ وقال ان ما يحدث هناك لا يهم مصر ولا دخل لهــا فيه ، ودعا الى سياسة المنافع لا العواطف ، ودعا الحكومة الى محاكمة من يحملون لواء الدعوة الى مساعدة طرابلس .

وهنا تصدى له « جاويش » فى أكثر من حملة ..

« لقد خسر الذين فتنتهم وساوس صدورهم ، وأعمتهم عن الحق سخافات مكتشفاتهم ، يحاولون أن يصرفوا الأمة المصرية الاسلامية عن تخفيف ويلات اخوانهم الذين أغارت عليهم دولة الخيانة والغدر .. اخوانهم فى الجوار ، اخوانهم فى الانسانية .

---

(١) ١٩٠٧/١١/١٧ .. اللواء .

« ان مساعدة المصريين للدولة العثمانية مساعدة حربية أمر لا يصح معه اتهامهم .. بالتعصب » [1] .

ولم يلبث أن وجه اليه نقدا تحت عنوان : « الى مدير الجريدة : أى عدو نفسه » هل نقمت منا أن ندعو المسلمين لنجدة المسلمين ، وان تستنفر الموحدين لاغاثة الموحدين ، فماذا كنت تريد ؟ ان الأمر لم يزد على أعمال الاعانة ، أعمدنا الى السيوف فسللناها ؟ والى البنادق فصوبناها ؟ والى الرماح فشددناها ؟

أى عدو بلاده ، رأيت مصر العزيزة مشرفة على موسمها المالى ، ثم رأيت بنظارتك كيف تجلب اليها الأموال من كل جانب ، فعز عليك أن تحسد ذا نعمة ، وشق على نفسك أن يستفيد غيرك من أصحاب المزارع ، ثم علت (ومثلك من تعلمه الفلسفة) .

مكانك مكانك أيها الجبان فسالك بميادين تمينك صورتها ؟ وتصعقك ذكراها ؟ ان لم تشأ فخير لك أن تحفر الأرض بأظافرك ، وأن تتردى فيها ، ثم ارطم رأسك بالحجارة حتى يخرج من دماغك ذلك المخ الذى كان سبب شقائك وأصل بلائك » [1] .

٣ — أما معاركه مع الشيخ على يوسف صاحب المؤيد فقد كان قوامها اختلاف الفهم بينهما واختلاف الهدف ، فعلى يوسف هو الشاب الأزهرى الذى لم يكمل تعليمه والتقطه الخديو عباس الطموح ليفتتح له صحيفة كان لها ثقلها فى العالم الاسلامى ؛ وقد سار فى ركبه طوال حياته كان معه فى الفترة الأولى داعيا الى

---

(١) العلم — ٣١ اكتوبر ١٩١١ .

الوطنية ومحاربا الانجليز ، ولما تم التفاهم بين الانجلبز والخديو بعد خروج كرومر وقدوم غورست تحول عن الحركة الوطنية وسار وفق خطة « المحاسنة » التى رسمها كرومر وقامت على أساسها صحيفة الجريدة ، ومن هنا كان هجومه على الحزب الوطنى ؛ واتهامه اياه بالتهييج .

ولقد وقع الخلاف كثيرا بينهما ، ففى الوقت الذى نحى السلطان عبد الحميد وهاجمت حكمه كل الصحف أخذ صاحب المؤيد يدافع عنه مما حمل الحكام فى الدولة العثمانية على منعه من دخول الممالك العثمانية وتوالت كتاباته على طريقة المقطم فى التفريق بين الترك والعرب » (١) .

ولعل أشد مواقف جاويش عنفا فى مهاجمة على يوسف كان فى مناسبة تأييد المؤيد لتقييد حرية الصحافة ، ومهاجمته للقضاة الذين حكموا ببراءة اللواء وجاويش فى قضية الكاملين ، وتجريحهم .

غير ان عبارات « جاويش » فى مهاجمة على يوسف كانت قاسية وعنيفة فقد كان يذكره بأنه خرج من بلصفورة زرى الهيئة ، وانه لم يكمل تعليمه فى الأزهر ؛ وأن قلمه خلق من اللؤم وانه اختطف احدى كرائم الأشراف فتزوجها .. على ذلك النحو الذى تراه فى مقاله عنه فى ٢٥ مارس ١٩٠٩ فى العلم « ما بلغت الرذيلة

(١) العلم — يناير ١٩١٠ .

ولؤم الطبع من رجل مقدار ما بلغت من صاحب المؤيد .. الخ الخ .. » .

٤ — أما خصومته مع « رشــيد رضا » فقد كانت شبيهة بخلافه مع لطفى السيد مدير الجريدة يضاف اليها أن رشيد رضا فى هذه الفترة بالذات (بعد عزل عبد الحميد سنة ١٩٠٩) قد أخذ يهاجم حكام الدولة العثمانية ويؤيد خطة العاملين باســم الحركة العربية فى الشام ، وهى الحركة التى عقدت مؤتمرها فى باريس ١٩١٤ ، وقاومت استبداد حاكم سوريا القــائد التركى أحمد جمال باشا ، وكان من نتائجها التفاهم الذى وقع بين انجلترا والعرب عن طريق الشريف حسين وقيام الثورة العربية ، وتوقيع اتفاقية (سايكس باكو) بين فرنسا وانجلترا ، وتقسيم الشام بأجزائه والعراق بينهما ؛ وصدور صك وعد بلفور لاقامة وطن قومى لليهود فى فلسطين .

كان « رشيد رضا » يمثل اتجاه العرب فى الشام الى الانفصال عن الدولة العثمانية ؛ وهو اتجاه أملته الضرورة والأحداث ، وأبرزها محاولة الاتحادبين ، (الذين حكموا عام ١٩٠٩) تنفيــذ سياسة « تتريك العناصر » وهى سياسة الجامعة الطورانية ، وقد كان بعض ضــباط الاتحــاديين يعارض هذا الاتجــاه ؛ كأنور باشا .. و ..

وكان اتجاه الحزب الوطنى وجاويش وعدد من مفكرى العالم الاسلامى أمثال شكيب أرسلان وغيره يهدف الى معارضة الاتجاه

الاستعمارى الذى يرمى الى تمزيق الدولة العثمانية ، باعتباره من وسائل القضاء على قوة العالم الاسلامى المجتمعة ؛ وغايته التهام الأقطار المختلفة ، وفى مصر بالذات لم يكن الموقف يتطلب مهاجمة الدولة العثمانية ، وانما كان مطلوب تركيز العمل فى مقاومة الاحتلال البريطانى ولا مانع من مساندة الدولة العثمانية .

فالخلاف بين رشيد رضا وجاويش هو خلاف بين وجهتى النظر السائدتين فى ذلك الوقت ، وقد كان جاويش فى المعسكر المعادى للانجليز دائما بصرف النظر عن أى اعتبار آخر . وكان مع زميله محمد فريد يقاوم مشروع تقويض المملكة العثمانية واقامة خلافة عربية بدلا منها وقد عارض جاويش مشروع رشيد رضا الذى أطلق عليه « مدرسة الدعوة والارشاد » باعتباره عملا موجها ضد الحركة الوطنية ؛ فقد أشار جاويش الى أن رشيدا كان متفاهما مع الانجليز بشأن هذا الموضوع وكان ذلك مرجفا الحزب الوطنى خصم الانجليز وكان الشيخ رشيد قد اتصل بغورست معتمد بريطانيا لهذا الغرض سنة ١٩١١ وقد بلغ « جاويش » فى معركته مع رشيد رضا غاية العنف ، ومقاله « المنار ضال سفيه » فى مجلة الهداية (مايو ١٩١١) يمثل هذا الاتجاه ، وقد توالت مقالات الاتهام بينهما فى المنار والهداية وبلغ فى هذا الأمر قول جاويش عن رشيد أنه « ليس داعيا الى الله بل الى نفسه ، وانه يتخذ الدعوة الى دين الله سبيلا الى الشهرة وسلما الى الصيت .. » وأشار الى أنه كان عدوا للأمير فى غير موضع من

صحيفته ، ثم أصبح يرجو عطفه ويبتغى فضله ، وكان عـدوا للمؤيد فى كثير من المواطن ثم أصبح ظهيرا له .. [1] .

وكان الشيخ رشيد قد اتهم جاويشا بأنه ليس صالحا للحديث عن الدين ، وهذه عبارته « لا عبرة بكلام الشيخ جاويش فى انكار حديث (نبوى) ولا فى اثباته فانه ليس له فى علم الحديث شىء وهو جرىء على القول فى الدين بالهوى والرأى ، حتى انه أنكر بعض أحاديث الصحيحين بغير علم ؛ فهو ينكر ما لا يوافق عقله ورأيه » [2] .

وكان انشاؤه مجلة الهداية فى نظر البعض محاولة لمنافسة مجلة المنار التى يصدرها رشيد وقد امتدت مواقف الخلاف بين جاويش ورشيد فيما بعد خلال هجرة الأول الى تركيا وأوروبا .

* * *

وقد جرى على ذلك « المنفلوطى » أحد كتاب المؤيد اذ ذاك فى هجومه على جاويش وعبارته المشهورة التى رددها مصطفى صادق الرافعى فى رسائله الى الشيخ محمود أبو رية هى :

« لولا مقامه فى الهجاء ؛ ووجوده فى اللواء ، لكان هو وفريد وجدى سواء » وقد علق الرافعى على هذه العبارة بقوله : لو رأيتم الشيخ عبد العزيز جاويش لرأيتم الأدب والرقة والذكاء والألف فى رجل واحد ، وهو بعد عالم مدقق ؛ يحمل شهادة علم النفس وفن

---

(١) ابريل ١٩١١ ـ الهداية .

(٢) م ١٧ جـ ٣ المنار ص ١٨٧ .

التصوير من جامعة كمبردج ، وشهادة دار العلوم ، فى حين ان الذى كتب عنه يحمل شهادة التقرب من سعد زغلول » ..

* * *

والحق فان فترة التألق فى حياة « جاويش » بالرغم من قصر عمرها خلال أربع سنوات كانت حافلة عامرة ، خصبة لم تكن عملا صحفيا محضا ولا عملا من أجل مصر والعالم الاسلامى فى مجال السياسة فحسب بل كان لها مجال آخر ، هو مجال التعليم والتربية ، والاصلاح الاجتماعى وهو مجال توقف بهجرة جاويش ، ثم امتد بعد عودته حتى أوفى على نتائج دانية القطوف .

وفى خلال فترة التألق عمل جاويش من أجل بناء المدارس وجمع التبرعات لها ، وانشاء المعاهد الليلية وايفاد البعثة الأزهرية الى أوروبا ، وانشاء مجلة الهداية واصدار عديد من الكتب .

وكل هذه أعمال تدخل دراساتها فى جوانبه المتعدده . معلما ومصلحا ، ومؤلفا وباحثا ومفكرا ..

المرحلة الثالثة

رحلة الهجرة والاغتراب

كانت كل الأحداث فى حياة « جاويش » فى السنوات الأخيرة توحى بالهجرة ؛ فقد ضيقت حلقات الرقابة والمحاكمة ، وتضاعفت عوامـــل الاضطهاد والمحاسبة ، وحوكم عـــام ١٩٠٨ فى قضية الكاملين ؛ وعام ١٩٠٩ فى مقال ذكرى دنشواى وعام ١٩١٠ فى تقديم كتاب وطنيتى ، أما عام ١٩١١ فقد كان عاما من الاضطهاد والترصد ؛ ولمعت فيه لأول مرة كلمة النفى أو الابعاد .

وكانت معركة طرابلس بين الايطاليين والدولة العثمانية ، وهى المعركة التى حاربها « جاويش » بكل قطرة دم فى جسده ، لم تكفه الكتابات النارية فى الصحف ولكنه كان يعمل بهمة ، يجمع الأموال، ويهرب الأسلحة ، والمجاهدين وكان قد أعد وسائل كفيلة بذلك بواسطة أخوته أحمد وعبد اللطيف التجار فى منطقة الضبعة غربى الاسكندرية .

وعاش عام ١٩١١ مضربا ، كانت كل الأحداث تحمل طابع التآمر عليه وفى أكثر من اشارة بجريدة العلم تكشف عن مراقبة جاويش ومصاحبة رجال البوليس السرى له مصاحبة الظل فاذا سار ساروا وراءه ؛ واذا ركب عربة امتطوا دراجة ، وتستمر الرقابة حتى منتصف الليـــل ، وبين آن وآن يزوره هذا أو ذاك من

المختصين ليسألوه عن جمعية أنشأها أو أموال جمعها ، وأشار جاويش الى أن هناك من كان يلقاه نازلا من قطار فى الاسكندرية مثلا فيحدثه عن الحزب الوطنى وحرب طرابلس وحرية القلم ؛ ويكتشف بينه وبين نفسه انه من البوليس السرى [1] .

ثم تواترت الأنباء بأنه يؤلف جمعية سرية ، ونشرت الصحف الأجنبية هـذه الأخبار ، وطلبت جريدة الغازيت الفرنسية من مندوبها فى القاهرة أن يحدث « جاويش » حول هذه المسألة ، وقد دار بينهما حديث طويل سخر فيه من فيكرة ايجاد أى جمعية سرية ثورية فى القاهرة ، وأشار الى أنه لا يعرف شيئا عن هذه الجماعة الا منذ ورد اسمه على لسان شاب يدعى ابراهيم فرج الذى قرر أنه جمع نقودا وسلمها اليه بقصد وقفها على مشاريع التعليم ، وانهم عثروا عنده على أوراق منها ورقة كتبها وهـو متأثر بالشراب .

ويبدو أن « جاويش » قد اتجه فى خلال السنوات الأخيرة الى توسيع نطاق العمل فى اصلاح التعليم ، وكون لجانا صغيرة فى البـلاد لجمع الاكتتابات اللازمة ومن بين هذه اللجان لجنة أنشئت فى القاهرة باسم جمعية تشجيع التعليم الحر ، وقد أثارت هذه التبرعات ثائرة الاحتلال ؛ الذى ظن أن هذه الجمعة لها باطن غير ظاهرها [2] .

---

(١) العلم ـ ٩١١/٥/٢٠ و ١٩١٠/١١/١٥ .

(٢) العلم ـ ٢ يوليو ١٩١١ .

ولم تكد تمر أيام قليلة حتى ذكرت صحف الحزب الوطنى أن الحكومة تفكر فى وضع قانونين أحدهما لتضييق الاجتماعات والمحاضرات والثانى للنفى السياسى ووضح أن الهدف من اذاعة هذه الأنباء هو ازعاج الوطنيين ، وقد سارع جاويش فكتب فى هذا المعنى وكشف الموقف ، وروى كيف جاءه رسولهم وكان على وشك السفر الى احدى عواصم المديريات لحث الناس على تأسيس النقابات الزراعية وشركات التعاون المنزلى والتعاون المالى فقال له : انهم يرجونه ألا يسافر ، فان فى ذلك ما يغضب الانجليز ويحملهم على وضع قانون للخطابة والاجتماع .

ولكن جاويش لم ينتصح ولم يذعن وقال انه سيظل يعمل حتى تصادر حريته ثم تطور الموقف فبدأ الهمس ، بعزم الحكومة على نفى جاويش بحجة الخوف من أن يحدث فتنة لا تقوى الحكومة على اطفاء لهبها .

وواجه جاويش الموقف بصراحته المعهودة وكشف عن مؤامرة نفيه ، وقال ان هذه بدعة لم ترها مصر من قبل فى أشد عهودها سوادا .

وقال أنه قد أعد نفسه لمواجهة كل حادث ، وتأهب لكل موقف صابرا محتملا موقنا « بأن كل باطل زائل وأن العاقبة للمتقين » .

وقال « لقد عركتنى الحوادث قديما فلم تنكشف الا عن نفس لا تروعها مثل هذه النذر » وأنه عندما اختار لنفسه هذا الميدان كان يعلم بأنه سيلقى فيه الكثير من المتاعب والأهوال ، وانه كان يستطيع أن يفعل غير ذلك ويكون من مأجورى الوزارات ، وقد

جرب السجن فلم يغيره ، أما النفى فان فعلوا « فليجدن منى عزمة تستصغر النوازل الفظيعة — وقلبا يتضاءل الكوارث المريعة » .

« ليذهبوا كل مذهب ، فان دانت لهم الأرض بأقطابها ، وخضعت لأحكامهم مشارق الأرض ومغاربها ، فليتخذوا لى فيها ما شاءوا من الكهوف والأغوار وليحيطونى بأسوار من الحديد والنار ، فليذهبن الباطل ولو عزت أنصاره ، وليدومن الحق وان اخفيت آثاره .. » (١) .

* * *

كل هذه النذر كانت ارهاصات الهجرة ؛ التى لم تقع الا فى فبراير ١٩١٢ ، عندما بلغت الأمور غايتها من التضييق والتآمر ؛ وفى مراجعات كثيرة كان هذا هو السبب الفعلى الذى أغـرى « جاويش » بالهجرة حيث تبدو صورة محاولة ضخمة لاتهامه فى أمر خطير يؤدى به الى محاكمة حاسمة ، أو نفى يلزمه الاقامة فى احدى الجزر النائية ؛ وقد ذكر لى الدكتور محمد فهمى الفولى شقيق زوجة جاويش انه اكتشفت برقيات متبادلة بين المعتمـد البريطانى فى مصر وحاكم جزيرة مالطة بشأن الاستعداد لاستقبال جاويش ، وان حاكم الجزيرة رفض استقباله وقال انه يرى أن يرسل جاويش الى أى جهة أخرى اتقاء لمتاعبه . ومما يذكر أن بريطانيا كانت قد بعثت فيما بعد الى الجزيرة عددا من الوطنيين المصريين .

---

(١) العلم — ٢١ اغسطس ١٩١١ .

وقد صور جاويش هذا المعنى على نحو غامض بعد عودته من منفاه فى أواخر عام ١٩٢٣ فقال « خرجت لكيد عمله سعيد باشا (وزير الداخلية اذ ذاك) لأنه حينما أعيته الحيل دبر لى أمرا ، وأراد أن يبطش فى شخصى بالحزب الوطنى كله كما فعل ذلك غير مرة من قبل .. وقد تهيأ وتأهب للوثوب ودبر أمرا فظيعا ، أقول انه فظيع يعرفه أفراد أحياء يرزقون ، فقد ذهب الى الانجليز ، ووشى بى فى أمر اسلامى مصرى محض ، كان لخير طرابلس فلما رأيت الأمر يكاد يفضى الى ما لا نحب ، والى اعتقالى ، رأيت أن أخرج لا فرارا ولكن استعدادا ، كما يحصل فى الحرب من التقهقر الذى لا يكون الغرض منه الفرار ، وذهبت الى تلك البلاد الحرة » [1] ، ولطالما ذكر جاويش « الهجرة » فى كلماته وأشار اليها قبل ذلك بسنوات وقال « انما يحبب الى الانسان الاقامة فى وطنه أمران التضامن والعدل ، فاذا تقوضت فيه أركان العدل مالت النفس الى مغادرته الى غيره لا انسلاخا منه ولا كراهية له ، ولكن قد تلجىء الضرورات المرء الى النزوح عن بلده وهو أشد ما يكون تعلقا به وتذكرا له واشفاقا عليه اذا كان مطرودا منه مشردا عنه » .

(١) جريدة الأخبار - ١٩٢٣/١٢/٣١ .

أولاً : فى تركيا الاتحادية

طالت مرحلة الهجرة وامتدت اثنى عشر عاما (١٩١٢—١٩٢٣) ومضت على ثلاث فترات : فى تركيا الاتحادية وفى ألمانيا وفى تركيا الكمالية وكان « جاويش » قد غادر مصر فى مارس ١٩١٢ فالى أين يذهب ؟ كان من الطبيعى أن يذهب الى بلد لا تحتله بريطانيا التى كانت تتآمر للقضاء عليه ، فاختار تركيا ، وكان جاويش يعرف حكام تركيا بعد سقوط عبد الحميد ، وقد زار استانبول . عام ١٩٠٩ بعد الانقلاب ، وله معرفة وثيقة بالرجال البارزين اذ ذاك من الاتحاديين : طلعت ، أنور ، عصمت وغيرهم ..

ولقد كان واضحا أن « جاويش » لا يذهب الى تركيا ليكون لاجئا سياسيا فذلك أمر .. يختلف عن تفكيره ومنهجه ، وانما يذهب ليفتح جبهة جديدة لعمله فى سبيل تحرير وطنه ، والدعوة الى مقاومة بريطانيا ونفوذها فى العالم الاسلامى كله .

ولذلك فقد كاشف الزعماء الاتحاديين برغبته ، فأتاحوا له الفرصة للعمل ، فأنشأ صحيفة (الهلال العثمانى) وأصبحت دارها موئلا للعاملين فى المجال السياسى ، والدعاة الى الحرية ، والمقاومين لنفـوذ البريطانى الفرنسى الذى كان على وشك أن يلتحم فى ضخم مؤامرة ضد العالم الاسلامى كله .

واتجاه « جاويش » واضح صريح ، آنه دائما فى الجبهة التى تخاصم الانجليز ، ولن يكون فى الجبهة الأخرى .

وكان هذا معسكرا معروفا صريحا ؛ يتخذ من الدولة العثمانية سنادا لمقاومة بريطانيا ، ومحاولة المحافظة على وحـدة العـالم الاسلامى والقضاء على مؤامرة تمزيقه (التى حققتها بريطانيا بعد الحرب العالمية الأولى) .

وفى الفترة التى سبقت الحرب ، كان جاويش يصدر جريدة « الهلال العثمانى » التى جعل هدفها الدفاع عن حقوق مصر فى الحرية والاستقلال ، ومناهضة الانجليز فى كل مكان ، وأقام دارها فى حى شعبى فى استانبول ، هو حى حيدر باشا ، ثم انتقلت فيما بعد الى حى جامع بايزيد ، فكان مجلسه يضم كل المسلمين والعرب الذين يردون تركيا ؛ من الهنود والجزائريين والجاويين ، ومن مختلف بلاد العالم الاسلامى ، يلتقون ويتحدثون معه عن أمورهم .

وكان جاويش أول المهاجرين ، ومن بعده هاجر كثيرون الى تركيا : محمد فريد وصل بعده بشهر واحد ، (مارس ١٩١٢) ؛ ثم عبد الملك حمزة ، اسماعيل كامل ، عوض البحراوى ، الدكتور أحمد طاهر ، الخ ..

وعندما اندلعت نار الحرب العالمية الأولى (سبتمبر ١٩١٤) كان الموقف قد تحدد : تركيا فى صف ألمانيا ، والعرب فى الشام والحجاز فى صف بريطانيا وضد تركيا ، أما الموالون لتركيا فقد كانوا يؤملون فى انتصارها وبذلك تتحرر مصر من الاحتـــلال

البريطانى ، أما الذين كانوا فى صف بريطانيا فقد كانوا يطمعون فى تحقيق قيام الدولة العربية التى جرت المحادثات بشأنها بين الشريف حسين ومكماهون قنصل بريطانيا فى مصر .

* * *

ولكن هل ترك « جاويش » فى تركيا آمنا مطمئنا ؟ ، ان ذلك أمر لا يكون ، فلا بد من اضطهاده ، واعادته الى مصر والتحقيق معه واعادته مرة أخرى ، فقد حدث فجأة أن غطيت الأبنية والعمارات فى أحياء القاهرة بمنشورات ضد الحكم القائم اذ ذاك ، كان ذلك فى خلال الحرب العالمية الأولى (ونشرت أخباره مطولة ومفصلة فى الصحف خلال شهر أغسطس ١٩١٧ وما بعده) وقالت الصحف الموالية للاحتلال ان هذه أعمال مدبرة فى الآستانة ؛ وتصادف أن فتشت حقائب مصرى قادم من تركيا هو « أحمد مختار » فوجدت فيها منشورات تحرض المصريين على ثورة دموية وقيل انها أعدت فى نادى مصر فى الآستانة الذى يضم ٥٠ طالبا مصريا ، وطلبت الحكومة المصرية من الحكومة العثمانية تفتيش منازل المصريين فى استانبول ، ولم يلبث (أحمد مختار) أن اعترف بأن « جاويش » أغراه وشجعه على حمل هذه المنشورات معه من الآستانة الى مصر ، وفتش منزل جاويش وادارة الجريدة وقبض عليه وحملت أوراقه معه ووضع فى الباخرة رومانيا القادمة الى مصر وكتبت المقطم تزف البشرى « توقيف جاويش وارساله الى مصر » وحملت عليه حملة شعواء مؤداها انه يسعى الى تأسيس حصه فى مصر بالاتفاق مع جمعية الاتحاد والترقى التى

تسعى للقيام بحركة فى مصر وانها هى المحرك الأكبر للسكان المصريين هناك [1] .

وقد وصل جاويش (٩ سبتمبر ١٩١٧) الى الاسكندرية ووجهت اليه تهمة التحريض على الثورة ضد « الأريكة الخديوية والحكومة المصرية » وأولت الصحف الحادث المثير اهتماما كبيرا ، وتساءلت كيف يعتقل فى عاصمة السلطنة العثمانية ويرسل مخفورا للمحاكمة ؟ وعندما وصل فى الباخرة اتخذت الاحتياطات لمنع المظاهرات ووقف الجمهور وراء حاجز من الخشب بعيد عن مرسى السفينة ، وجاء البكباشى بلانز الذى سيلازم « جاويش » وساروا به الى سجن الحضرة رأسا ..

ثم وصل النائب العمومى « عبد الخالق ثروت » ، للتحقيق ، الذى حضره رشدى باشا ناظر الحقانية .

ووصفت الصحف « جاويش » بأنه قد تقطب جبينه منذ اعتقاله لم تفارقه العبوسة وكان طول الطريق ، اما صامتا أو مطالعا فى كتاب متشحا بزيه المغربى المصرى الذى كان يتزيا به ينظر أمامه ولا يلتفت ، وعلائم الصحة بادية على محياه .

وهاجمت الصحف فى مصر السلطنة العثمانية اذ أمرت بتوقيفه ، وأظهرت صحف طنين وترجمان التركيتان الاستياء والأسف لذلك ؛ غير ان الآستانة أصدرت بلاغا رسميا قالت فيه ان مصر جزء متمم للسلطنة العثمانية فلا مانع من أن يرسل مواطن

---

(١) ٢٥ سبتمبر ١٩١٧ ـ المقطم .

مصرى للتحقيق معه ، وأنكر جاويش التهمة المنسوبة اليه ، وكذب أحمد مختار فى مواجهته ، واحتج على المحقق بعبارة مؤثرة فى التجائهم الى والده للتأثير عليه من أجل تبديل أقواله الأولى .

ووالت الصحف أخبارها يوميا عن التحقيق مع جاويش ، وقالت ان المحققين لم يجدوا فى أوراق جاويش ما يثبت التهمة المنسوبة اليه ، وقالت الأهرام (١٧ سبتمبر ١٩١٧) ان «جاويش» متجلد فى حبسه ، ولكنه يتألم كثيرا من داء البواسير ؛ وانه طلب يوم الجمعة مصحفا وأجيب الى طلبه .

وظل جاويش فى السجن منذ وصوله فى ٩ سبتمبر الى أن غادر الاسكندرية ١٨ أكتوبر ١٩١٧ بعد أن ثبت انه لا صلة له بالمنشورات ويرجع الاتهام الى خلاف بينه وبين سعيد الشيمى الذى كان يعمل معه فى الهلال العثمانى ثم انفصل عنه حيث كان جاويش مقاطعا لنادى الطلبة المصريين فى الآستانة ؛ وأشارت الصحف الى أن عبد الخالق ثروت استدعاه وأبلغه بأنه قد أخلى سبيله بدون كفالة لعدم وجود أدلة تثبت التهمة المنسوبة اليه وكان ذلك فى ١٧ أكتوبر ، فانصرف فى الساعة الخامسة بعد الظهر حرا طليقا وأقبل عليه الأصدقاء من أحياء الاسكندرية يهنئونه باخلاء سبيله ، ولم يلبث أن غادر الاسكندرية فى اليوم التالى .

وقد تكشف من بعد أن « أحمد مختار » حامل المنشورات قد أغراه بعضهم بتخفيف الحكم عليه اذا قال ان « جاويش » هو المدبر لأمر المنشورات ، وقد عزى اليه قوله « فاضطررت أن أقول ذلك لأخلص نفسى » وقال جاويش ان السر فى عودته الى تركيا

مرة أخرى بعد براءته من التحقيق هو ما أسره اليه عبد الخالق ثروت النائب العام من أن الحكومة لا ترضى ببقائه فى مصر ، قلت اذن أذهب الى الآستانة .

* * *

ومضت « المقطم » تشن هجوما شديدا على رجال الحزب الوطنى الذين كانوا قد هاجروا جميعا قبل الحرب تحت ضغط الاضطهاد البريطانى لهم فى مصر ، واختاروا تركيا للاقامة فيها أملا فى انتصار ألمانيا حليفتها على الانجليز ومما قالته المقطم ان الاتحادين قد اشتروا لجاويش مطبعة بألفى ليرة ، وأعطوه راتبا شهريا قدره ٣٠ ليرة أو ٥٠ ليرة ، ونفقات تبلغ ٣٠٠ ليرة فى الشهر ؛ وعهدوا اليه باصدار جريدة « الهلال العثمانى » مدعيا انها تسعى الى تأسيس الجامعة الاسلامية ، وقالت ان الغرض هو الطعن على الخديو وحكومته ، وحث المصريين على الثورة ، وأوهموا محمد فريد وجاويش انهما يمكن لهما أن يحدثا من الانقلاب فى مصر ما أحدث الجيش العثمانى فى الدولة باسم جمعية الاتحاد والترقى وفاتهما ان بريطانيا أقوى من السلطان عبد الحميد ورجال المابين [1] .

* * *

وردد رشيد رضا فى المنار مثل هذه الأقوال [2] وقال ان جمعية الاتحاد والترقى عدوة العرب والاسلام أنشأت لجاويش

(1) المقطم ٢ أكتوبر ١٩١٧ .
(2) ج ٤ م ١٦ (ابريل ١٩١٣) .

مطبعة وجريدة فى الآستانة ، وكانت تنشرها فى البلاد العربية بقوة الحكومة هى (الهلال العثمانى) ثم بعد سقوط وزارة سعيد فى تركيا ، وفى وزارة شوكت أنشأت له جريدة أخرى باسم (الحق يعلو) واتهم جاويش بأنه ظل يطلق العنان لقلمه حتى زجه فى السجن غير مرة ، ثم أخرجه من القطر المصرى كله وقال أنه مفتون بحب الشهرة والزعامة ، وهو يحاول أن ينال بجاه الاتحاديين ما أعياه نيله بغلوه فى الحزب الوطنى المصرى ..

ولا شك أن هذه الاتهامات واضحة الدلالة لأنها تجىء من المعسكر الموالى للانجليز والذى يرى ان التفاهم مع بريطانيا يحل مشاكل مصر والعرب ، ولسنا نستعجل الأحداث فى الحكم على صحة اتجاه هذا المعسكر أو ذاك ، فان الحرب العالمية الأولى انتهت بهزيمة تركيا وألمانيا ، ولم يجد معسكر « جاويش » ما يحقق به أمله بينما تآمرت بريطانيا على العرب الذين انفصلوا عن تركيا وحطمت أحلامهم فى الدوله العربية ، وأقامت احتلالا كاملا لكل أوطانهم فى العراق والشام وشعر المعسكر الثانى بالفشل بعد أن قدم كل ما يمكن لبريطانيا من مساعدات .

وقد قدم « جاويش » دفاعا عن موقفه فى هجرته الى الدولة العثمانية ربما يكشف وجه الحقيقة قال :

« نشر المفسدون أننى عندما هبطت أرض تركيا ١٩١٢ أصدرت جريدة الهلال العثمانى ، وصدرت بعض أعدادها بالطعن فى مصر وتشبيه الأمه المصرية ازائى بكفار قريش يوم ائتمروا

بالرسول ، ولم يكتف أولئك بهذا بل جعلوا يذيعون انني اتفقت مع حكومة تركيا على أن تعود مصر اليها كولاية من الولايات العثمانية ، وفى الرد على هؤلاء اكتفى بذكر حادثتين أسردهما لا من باب المن والمباهاه ، ولكن ليعلموا كيف كانت جريدة الهلال تجاهد فى سبيل بلادى جهادا أقلق انجلترا وأزعجها » .

وأشار جاويش الى حادثة المنشورات عندما استقدم الى مصر وحقق معه ثروت باشا النائب العام اذ ذاك وحاسبه حسابا عسيرا على ما ورد فى أعداد كثيرة من « الهلال العثمانى » ، وكانت براءته ، أما الحدث الثانى فقد جـــرى فى بيت جاويد بك مع جمال باشا محافظ الآستانة وقد وقع هذا الحادث عام ١٩١٢ ، وكان بالمجلس طلعت باشـــا ناظر النظار العثمانى ويرى هـــذا الحادث كيف كان يقف من زعماء الدولة العثمانية موقفا واضحا صريحا هو مخاصمة بريطانيا من أجل تحرير وطنه ، ويرسم كيف كانوا يهابونه ويحرصون على ارضائه ، وما يدحض ما كان يقال من انه كان عميلا لهم وهذه عبارته فى مواجهة هذا الموقف :

« لم يكد يستقر بى المجلس حتى ابتدرنى جمال باشا بقوله :

« يا فلان لا تنفك تهاجم صديقتنا التاريخية انجلترا ، واننى أخشى اذا استمررت على ذلك أن أعطل جريدة الهلال العثمانى ، أما أنا فما كان جوابى الا أن قلت له اننى ما قصدت بما أكتب فى موضوع انجلترا الا خدمة بلادى وتحذير من يجهلون دسائس انجلترا من الساسة هنا ، ولكن ما دمتم ترون ان هـــذا مناف لمصلحتكم ومضر بصديقتكم فحرام على البقاء فى بلادكم ، قمت

مسرعا الى الباب ، ولكن المرحوم طلعت باشا اشتد يعدو خلفى ؛ ثم ما زال يتكلف بى ويعالج ما بدر من جمـال باشا بصنوف التأويل حتى هدأت عصبيتى ؛ ثم جاء جمال واعتذر عن بادرته تلك وشرح كيف أن سفير انجلترا كلما ظهر عدد من الهلال العثمانى أرسـل مستشاره الى الباب العـالى والى دار المحافظة مرغيا مزبدا (١) .

وقد واصل « جاويش » اصدار جريدة « الهلال العثمانى » ثم جريدة « الحق يعلو » وكانت تصل الى مصر وتلقى اعجابا وتقديرا ؛ حيث كانت تدافع عن حقوق مصر فى الحرية وتهاجم الاحتلال البريطانى .

---

(١) الاهرام ١٩٢٣/١٢/٢٨ .

ثانيا : فى ألمـــانيــا

كانت هزيمة تركيا واعلان الهدنة من أسوأ ما مر بجاويش من أحداث ، فقد قضى على كل المخطط الذى عمل من أجـله خلال الحرب ، وقد اضطر جاويش ورجال الحزب الوطنى الى الهرب من تركيا بعد هزيمتها الى ألمانيا .

كان ذلك عـام ١٩١٨ حيث غادروا تركيا خفيـة عن طريق سويسرا وبدأت فترة الضنك والقســوة التى عاناها جاويش وزملاؤه ، فقد كان المارك الألمانى فى نزول ولم تعد هناك وجوه للكسب ، هنالك عاش جاويش وعبد الملك حمزة حياة قاسـية ، حيث اضطروا الى الاحتطاب فى الغابات وعاش جاويش بين ألمانيا وسويسرا من أجل تحقيق ما يمكن تحقيقه فى مؤتمر الصلح ؛ ولم ييأس .

سافر مع فريد وعبد الحميد سعيد وعبد الملك حمزة وعوض البحراوى الىَ برلين وانتهز فرصة عقـد المؤتمر الاشتراكى فى سويسرا برئاسة هندرسن وقابله جاويش مطالبا بتمثيل مصرفيه ، وقد طلب هندرسون اعداد مذكرة فى هذا الشأن ، غير أنها مع الأسف لم تعرض على أعضاء المؤتمر .

وهكذا ظل يعمل فى ظل المسغبة والاجهاد فلما قامت الثورة فى مصر ١٩١٩ فرح بها جاويش ووضع نشيد الأحرار :

مصر رجّى من دمانا ما اشتهيت من فـــدا
واطلبى العــز منا نحن نكفيك الحـــــد!

ولم يتوقف جاويش عن العمل بالرغم من الأزمة الخانقة كان كما روى — الدكتور الفولى — كلما التقى بأحد الأغنيـــاء من المسلمين قال : ساعدوا مصطفى كمال ؛ وقد دعا جماعة من الأفغان الى ذلك فأوصوا على صناعة بعض الملابس العسكرية والمهمات فى مصانع ايطاليا وأرسلوها اليه .

ولعل هذا هو ما حمل مصطفى كمال بعد انتصاره عــلى القوات اليونانية المحتلة لتركيا أن يستدعى « جاويش » الى تركيا للعمل فى منصب ثقافى كبير .

* * *

وتستطيع حياة « جاويش » فى مهجره بالرغم من كل ما أحاط به من مشاق ومتاعب أن تكشف عن جوهره فى حسن التجمل والصبر حتى وصفه بعض من رآه فى هذه الفترة بقوله :

كنت تحسبه من عزة النفس وابائها وسموها على الضرورات كأنما يبذل عن سعة وما وقف أحد منه على مظنة حاجة ولا كان لأحد عليه منّة .

وقد عرض عليه كثير من المناصب فرفضها ، كان يخشى تقييد حريته ، يؤلف الجماعات من الطلبة المسلمين للدعاية الاســلامية ويذهب الى برلين خـــلال الحرب لانشاء مكتب للدعاية للقضية المصرية ؛ ويولى ادارة المكتب لعبد الملك حمزة ؛ ويصدر مجلة

اسلامية باللغة الألمانية ، ويزور الأسرى المسلمين فى برلين ، ويفاوض أنور باشا فى حقوق مصر ؛ حتى يقول له أنور : لا يمكن أن تنسى ما قمت به لمساعدتنا فى حرب طرابلس ، وأنت تعلم انك بسبب ذلك أخرجت من وطنك ، وكان له مقام كريم ؛ فى تركيا ، وكلمة مسموعة ورأى مطاع ، وكانت كلمته عند أنور باشا لا ترد .

وكانت قدرته على الحديث باللغة التركية بالاضافة الى الانجليزية والعربية من عوامل نجاحه ؛ وكذلك استطاع أن يحصل لاخوانه فى تركيا على معاشات شهرية .

ولقد ذكر لى الدكتور محمد فهمى الفولى ان جاويش استطاع أن يحصل لاخوانه على مرتبات بين ١٠٠ ؛ ٣٠ جنيها . وكانت تصرف عن طريق أنور باشا وأثبت ذلك جاويش فى مذكراته فقال : أما الأرزاق والتخصصات الشهرية التى كانت تجرى على اخواننا المصريين فانها كانت تجرى عن طريقى ؛ لأن الناس كانوا يلجأون الى لمكانى من أنور باشا ، فكنت أقدر لهم ما يكفى حاجتهم ، ثم استصدر به أمر ناظر الحربية ، أما الذين كانوا فى أوروبا من أعضاء اللجنة الادارية للحزب الوطنى ومن الطلبة فكان لهم أختام ووكلاء عنهم فى الآستانة يحصلونها .

وكان دؤوبا على العمل من أجل رفعة المسلمين ، حتى انه سافر عام ١٩١٤ وقبل اعلان الحرب مع الأميرال رؤوف قائد المدرسة التركية الشهيرة ، وكان قد اتفق مع أحد أغنياء الهنود على انشاء أسطول اسلامى ، وسافر الى القدس ١٩١٥ مع الحملة التى قادها الجيش التركى لتخليص مصر من الاحتلال الانجليزى .

ثم سافر الى المدينة حيث أنشأ الجامعة الاسلامية بها ووضع أساسها ثم أعاد اصلاح كلية « صلاح الدين » بالقدس الشريف وتولى ادارتها .

ولما أعلنت هدنة الحرب العالمية الأولى وكانت الآستانة على وشك احتلال الانجليز لها غادرها جاويش وزملائه المصريون الى برلين ولم يكن يسيرا أن يقيموا فى المدن فلجأوا الى القرى وكان يقيم مع صديقه الدكتور أحمد فؤاد قريبا من ميونخ فى قرية اسمها (فيلدافنج) يعيشان على الكفاف يغسلان ملابسهما ويطهوان طعامهما البسيط الساذج .

وقد تحل الأزمة عندما يلتقى بصديق قديم ، ثم تعود مرة خرى فيضطرون الى الاحتطاب فى الغابات .

وقد وصف « أحمد وفيق » حياة « جاويش » فى هذه المرحلة فقال « هو فى هجرته أشد منه فى وطنه ، لا يعرف للراحة طعما ، ولا للتوانى فى خدمة مصر اسما ، جاب سهول وجبال أوروبا من الدردنيل الى سويسرا . ثم الى منطقة القنال النمسوية ، الى السويد وطوى فيافى آسيا وقفارها من البسفور الى قناة السويس دون كلل ولا ملل ينتهز وقت الراحة عقب تحرير المقالات أو القاء الخطب العديدة لتأليف الكتب ، وتصنيفها بقلمه المعهود وكلها دائرة حول المسألة المصرية سواء بالعربية ، والانجليزية أو الألمانية التى أتقنها ، وسافر جاويش مع الحملة المصرية وبقى فى القدس الشريف ؛ ثم عين مديرا لجامعة القدس وجامعة المدينة ، التى كان فى النية انشاؤها ، وفى الآستانة استمر فى اصدار مجلة

العالم الاسلامى باللغة العربية علاوة على المقالات التى كانت تنشر فيها بأقلام كبار الساسة وعظماء الرجال »[1] .

أما أهل جاويش فى هذه الفترة فقد كانوا لا يعرفون عنه الا القليل ، كانوا يقيمون معه فى تركيا فلما هاجر منها ١٩١٨ تركهم هناك حتى التقى بهم فى مصر فى نهاية ١٩٢٣ .

(١) الافكار ـ ٣ نوفمبر ١٩١٩

ثالثا : فى تركيا الكمالية

لما وضعت الحرب العالمية أوزارها سنة ١٩١٨ فر مع آخوانه من الآستانة وهو مصاب بالحمى الاسبنيولية ودرجة حرارته ٤٠ درجة ، فى باخرة أقلتهم الى روسيا ، ثم استقلوا من الشواطىء الروسية قطارا من قطر الحيوانات وقضوا خمسة عشر يوما فى هذه العربة بين الخنازير والروائح الكريهة وكان معه محمد فريد وعبد الحميد سعيد والدكتور أحمد فؤاد وفؤاد سليم .

وبدأ يعمل مع زملائه من أجل مؤتمر الصلح بعد أن فشلت لخططهم بهزيمة تركيا فلما اندلعت ثورة ١٩١٩ فرح بها ، ولما أفرج عن سعد من مالطة ، ليقصد الى مؤتمر الصلح فى باريس ، اقترح أن يعمل الوطنيون مع هذه الطليعة الجديدة فأرسل جاويش تلغرافا لسعد يهنئه بثقة الأمة ، ودعا له بالتوفيق ، وكذلك أرسل فريد .

وكانت عبارته دائما فى هذه الفترة :

« لا نريد الا أن تحيا مصر ويموت جاويش وغيره فى سبيل مصر » .

* * *

وقد صور هذه المرحلة فى مذكراته فقال : لما جاءت الهدنة ذهبنا الى سويسرا وكانت مجال العمل ، ولم نيأس لأن الايمان

لا يجتمع مع اليأس ، واذا « الوفد » قد نفى زعماؤه الى مالطة ؛ وكنت أرأس اللجنة الادارية للحزب الوطنى فى برن ، لأن « فريد » كان مريضا يستشفى فى الجبل ، فقلنا يجب أن نضع أيدينا فى أيدى من فوضتهم الأمـــة وأن نفنى فيهم ، فوافقوا عـــلى ذلك بالاجماع ، وأرسلنا تلغرافا لسعد باشا أمضيته أنا وقلت له ما معناه : نحن نهنئك بثقة الأمة المصرية ونرجو أن يكتب لك التوفيق ، وتكلمت مع فريد فقال : انه أرسل تلغرافا بهذا المعنى ؛ وارتاحت فى ذلك الوقت قلوبنا لأننا شعرنا بأننا اندمجنا فى كتلة واحدة كنا نتمناها ، كما نتمنى اتحادا لا تفرقة فيه ولا تفكك ..

لم يأتنا جواب (للبرقيات) ولكن هل أثر ذلك فى نفوسنا ؟ هل صرفنا عنهم لا والله ، بقينا نرفع الدعاء لهم ، وفوق الدعـــاء أرسلنا الى ســـعد باشا نقول ان لدينا أشياء كثيرة قد تنفعك وأمددناه بكل ما فى وسعنا ، وبأسماء من نعرفهم من الساسة وقلنا : يمكنك أن تعتمد على هذا ، واذا شئت فخابرنا بالطريق الفلانى ولم يأتنا جواب ؛ ولكن هل أقعدنا ذلك عن موالاة الاشتراك ؟ رأينا أمريكا بعد اتفاقها مع انجلترا ، وكذلك فرنسا ، تقوم فى وجه الوفد الذى أرادوا ايفاده الى أمريكا ، فنحن على عجــزنا وفاقتنا ، تمكنا من تمهيد السبيل لهم ، وأرسلنا لسعد باشا نقول : لقد مهدنا الطريق ، فأخبرنا بأسماء من تريد أن يسافروا ولم يأت جواب ، ولا أريد أن أنتقد أحدا ، وانما أريد أن أقيم الأدلة على اننا لا نريد الا أن تحيا مصر ، وأن يموت عبد العزيز وسعد وكل واحد فى سبيل مصر » .

وأضاف جاويش قوله : هلَ أضعفَ ذلك من عزائمنا ؟ هلَ غير نفوسنا ؟ هل أوغر صدورنا ؟ كلا والله ، بل قلنا لعل له عذرا ؛ لما عدت الى أنقرة واعتقل من اعتقل من رجال الوفد ثم سهل الله لهم وعادوا ، أرسلت لاخوانى فى مصر أقول انى أهنىء الأمــة المصرية بخلاص المعتقلين ، وأرجو أن يطيلَ الله فى حياتهم حتى تنال الانتصار بفضلهم مجتمعين على الانجليز » .

* * *

كان كفاح جاويش خلال الحرب صادقا مخلصا من أجل مصر ؛ ولكن الأمور كانت تجرى على غير ما يحب ، انهزمت تركيا وألمانيا وانتصرت بريطانيا وحلفاؤها وانتصر معها معسكرها ، وبرزت معاهدة « سايكس باكو » السرية ، وبدأت تنفذ فى تقسيم سوريا ولبنــان تحت الانتداب الفرنسى ، وفلسطين والعــراق ، تحت الانتداب البريطانى وأعلن وعد بلفور ١٩١٨ .

وفى مصر بدت الأمور فى يد خلفاء حزب الأمة الأقدميين ؛ وكان الأمر قد اختلف اختلافا كبيرا عما كان من قبل ، حقيقة ان ثورة ١٩١٩ هى ثمرة كفاح الوطنيين وعصارة الأحلام والآمال التى عاشت فى ضمير الأمة طوال أيام الحرب على صدى كلمات مصطفى كامل وفريد وجاويش ، ولكن بريطانيا قد لونت الصورة على نحو آخر ، كانت ثورة ١٩١٩ كفيلة بتحقيق استقلال مصر وقيام حكم وطنى فيها ولكن الذين جاءوا على موج الثورة كانوا يؤمنون بالتفاهم مع بريطانيا . وعدم مقاومتها ، وبذلك وضعوا الماء على نار ثورة ١٩١٩ ؛ وقبلوا الحلول الوسطى فبقى جيش

الاحتلال وأعلن الاستقلال من جانب بريطانيا وحدها بتصريح ۲۸ فبراير ۱۹۲۲ ، ومنحت مصر الدستور .. وبدأ الاستعداد للانتخابات البرلمانية ، وعاد المنفيون والمهاجرون ، وكان لابد أن يعود « جاويش » .

* * *

أعلن استقلال مصر فى ١٦ مارس ١٩٢٢ ، فبدأ جاويش يستعد للسفر الى مصر وأعطت بريطانيا كل الراغبين فى العودة تأشيرات الا جاويش ، فقد عارضت طلبه . وفى ١١ أكتوبر ١٩٢٢ انتصر مصطفى كمال قائد الانقلاب التركى فى حرب الأناضول على الجيش اليونانى ، وتولى القائد رءوف صديق جاويش رئاسة الوزارة التركية ، فأعلن عن اسناد رئاسة لجنة الشئون الثقافية الاسلامية اليه ، فلم يلبث أن سافر فى ١٩٢٢/١٠/٢٣ الى تركيا حيث زار الخليفة وحيد الدين ، وتولى عمله رئيسا للأكاديمية الاسلامية ، وفى ١٩٢٢/١١/٢٥ قابل مصطفى كمال ودار معه حديث طويل ، تبين منه ان آراء « جاويش » لم ترق فى نظر الزعيم التركى ولا سيما ما يتعلق بايمانه بضرورة بقاء الخلافة .

وقضى جاويش ثلاثة عشر شهرا فى تركيا هذه المدة (أكتوبر ٢٢ — نوفمبر ٢٣) استطاع بعدها أن يخرج من تركيا مهاجرا متخفيا الى مصر بالرغم من عدم التصريح له رسميا بالعودة .

وقد صور هذه المرحلة حين قال : اننى خرجت من أنقرة رغم ارادة الحكومة ، كان يقول لى شيخ الاسلام فوزى أفندى ،

أرجو أن نذكر دائما أن انفصالك عن هذه الدائرة سيكون سببا فى هدمها فاحذر التاريخ » .

* * *

والواقع ان أمرين لا أمرا واحدا هما اللذان حملا «جاويش» على العودة الى مصر (أولا) : انهيار كل الخطط التى كانت مرسومة بهزيمة تركيا ؛ وكان واضحا أول الأمر أن مصطفى كمال لن ينفصل عن العـالم الاسـلامى ، فأيده « جاويش » غير انه لم يلبث أن كشف عن دخائله فى اقامة دولة تركية علمانية . وكان أنور باشا صديق جاويش ورجال الدولة العثمانية قد اختفوا ، (ثانيا) كشف له لقاؤه لمصطفى كمال عن حقيقة مفهوم القـائد التركى لنظام الدولة الحديث ، وموقفه من وحدة العالم الاسلامى التى ظل جاويش يدافع عن معناها ممثلا فى الدولة العثمانية فاذا هو يواجه مفهوما يقوم على أساس الغاء الخلافة جملة .

ولعل ذلك كان بعيد الأثر فى نفس « جاويش » بل لعله كان أسوأ أثرا من كل ما مر به من مواقف ومن هزيمة تركيا نفسها فى الحرب العالمية .

وقد صور لقاءه مع مصطفى كمال فقال : هبطت أرض أنقرة فى ١٧ ديسمبر ١٩٢٢ وبعد بضعة أيام ذهبت مع صديق لى من الوزراء الى دار المجلس الوطنى لزيارة مصطفى كمال باشا ، وقد كنت عاهدت نفسى ألا أتكلم معه فى أمر الخلافة ، لما اتصل بى من نيته تجاه البيت الشاهانى قبل ذلك بأيام ؛ أى يوم هبطت مدينة

أزمير ، ولكن لم نكد نأخذ مجلسا حتى استقبلنى بهذا السؤال :
ما رأيك يا فلان في أمر الخلافة وأثرها على سياسة الدولة
فاستقبلت السؤال معتذرا بأن فى المجلس الوطنى الكبير من
العلماء وذوى الرأى من يغنونه عن رأيى ، ولكنه أصر أن أبسط
له ما لدى من الرأى وقد علمت انه ما كان يريد من استقبالى
الوقوف على ما حف به ذلك الأمر الخطير من المحاذير والأفكار
أو العلم بما جاء فى الشريعة من أحكام الخلافة ، ولكن كان كل
همه أن يسبر غورى ويعرف مجرى فكرى .

فلم أجد بدا من أن أجيب انه ليس فى الاسلام خلافة بلا قوة
كما انه ليس فى الاسلام خلافة مستبدة ، أجبته بهذه العجالة
الوحيدة ، وكنت أرجو أن يجد فيها من المعانى والمغازى ما يصرفه
عن الاسترسال فى المناقشة ولكن عاد وسألنى اذن بم تفسر
ما فعله عبد الحميد وغيره من الخلفاء العثمانيين والأم تعزو
ما أصابوا به الدولة من النكبات ؟ أو ليسوا هم الذين ساقونا
الى تلك الحرب الطاحنة ، وضاعفوا مصابنا بما أصدروا من فتوى
الجهاد وأمثالها قلت : ان الخلفاء الذين قاموا فى السنوات
الدستورية لم تطلق أيديهم فى تدبير البلاد ، ولا كانوا مستبدين
بأمرهم ؛ بل كانت تجرى الأمور فى المملكة لا يحيطون بها علما ،
وكلنا نعلم كيف تقرر اعلان الجهاد ، على انه اذا كان لهؤلاء الخلفاء
فى زمن الدستور شيء من الامتيازات القانونية فما ذلك الا لكون
الدستور جعلهم خلفاء على الأصول الرومانية لا وفق الشريعة
الاسلامية .

فقال : كيف ذلك ؟

قلت : ان الاسلام أنكر الفرق الطائفية وامتياز الطبقات والأفراد بعضها عن بعض فى الأحكام بل أقام سائر العوالم البشرية فى مستوى من تكاليفه تتحاذى فيه الأقدام والرءوس ، فلا يمتاز فى أحكام دين الاسلام رجل عن امرأة . ولا أمير عن سوقة ، بل كلهم خاضعون للقانون السماوى ، وبذلك سوى الاسلام بين الرعاة ، والرعايا فى سائر الأحكام والتكاليف ، فقضى بمجازاة من يعدون حدود الله تفرقة ولا تفاوت ، فليس فى دين الاسلام فوق الشرائع والأحكام أمير ولا خليفة الا سلطان ، ولكن « تركيا » التى قلدت أوروبا اقتبست من القوانين الرومانية قاعدة ان الخلفاء فوق القانون والشرائع فأصبح الخلفاء بهذا خلفاء رومانيين لا خلافاء اسلاميين ولو عقل رجال النهضة الدستورية لأدركوا ذلك الفرق بيننا وبين شرائع قامت فى أقوام كانت تعبد الملوك والأباطرة وتعدهم مصدر الاشتراع والحكم ..

وبينا نحن كذلك دخل أحدهم فقال : يا باشا ان أعضاء المجلس قد اختلفوا أمن قيام يقرأ تلغراف الخليفة الذى أرسله بقبول بيعته أم من جلوس ؟ فسأله الباشا وكم القائلون بالقيام ؟ قال فوق الثمانية فما لبث مصطفى أن أقبل على وقد قطب غضبا يسألنى :

— أحكومة شعب هذه التى تريد قراءة تلغراف الخليفة من قيام ؟

فأجبته : انه ليس فى الشريعة ما يوجب القيام ولا يمنعه ، انما يرجع فى أمثال هذه الحالة الى ما يجرى به العرف والعادة بين الناس .

وهنا أحس مصطفى باشا عين ما أحسست أننا لا نتفق أصلا ، فهم بالوقوف ايذانا بالانصراف ، فخرجت من عنده ، وقد فهم كنه رأيى وفكرى ولكنه لم يكتف بذلك فلقد أوعز الى فرقة فى المجلس أن تدعونى فحادثنى (جلال نورى) لأكون بمركزها فى ٢ يناير ١٩٢٣ .

قال جاويش انه ذهب الى هناك حيث وجد الكثيرين ممن كان يعرفهم ، وأخذوا يسـألونه عن الخـلافة ، وهل هى ضرورية للمسلمين واذا كانت واجبة فما فائدتها ؟ وما حكم فصل الخلافة عن السياسة شرعا ؟ (أى أن تكون خاصة بالشئون الروحانية فقط) وهل يجوز أن تكون فى طائفة من الناس كالمجلس الوطنى الكبير بدلا من شخص واحد يستبد بالأمة فيفسد شئون الدولة ويرهقها بالمغارم والمظالم وماذا أفادت الخلافة الترك منذ تولاها السلطان سليم ؟ ألم تكن سببا فى تقديس الخليفة فى داخل المملكة وتأليب دول أوروبا على تركية حتى حرموها الراحة والطمأنينة ؟ ثم ماذا كانت عاقبة اعلان الجهاد وخلال الحـرب العامة ؟ وهل ظاهرنا المسلمون على أعدائنا ؟ وهكذا مضت الأسئلة تثير كل ما يتعلق بماضى تركيا العثمانية وقد دار الجدل أكثر من ساعتين ، وكشف جاويش عن رأيه فى التحول الذى أصاب الخـلافة ، مما جعلها شبيهة بالوثنية اليونانية ، وعبادة الملوك ، وان الاسلام

جاء بتحرير النفوس البشرية ، وتخليص القبائل والشعوب من السلطان الذى فرضه الملوك والأمراء وان الاســلام لم يخص الخليفة بعصمة من خطأ أو اثم ؛ ولم يمنحه الاستئثار بتفسـير كتاب أو سنة ، ثم أوجب عليه اقامة العدل طبقا لما نصت عليه الشريعة وجعله مسئولا أمام عامة المسلمين وجعل لهم اذا عـدل الخليفة عن الحق أن يخلعوه أو يقتلوه ، وليس الحاكم فى الاسلام نائبا عن الله .

وانتهى الى القول بأن العيب ليس فى الخلافة بل فى تطبيقها ، وليس فى الاسلام بل فى المسلمين . وقد كان مفهوم الترك واضحا فى أنهم يهدفون الى تأكيد طابع العلمانية وموالاة النظام الغربى الخالص والقضاء على الخلافة كجزء من الخطة التى رسـموها للقضاء على أنظمة الحياة المرتبطة بالاسلام ، ولم يكن فى هــذا الجو الجديد ما يشجع جاويش على الاستمرار وكان من رأيه أن مصر أحق بجهوده العلمية والتربوية ، لذلك كان لابد أن يعود الى مصر ..

العـــودة

وعاد جاويش الى مصر فى ديسمبر ١٩٢٣ علَى نحو مثير ، شبيه بالقصص الخيالية ، أضاف به مغامرة جديدة الى مغامراته فى السفر ، عندما هاجر من مصر الى تركيا خفية ، وعندما سافر من تركيا الى ألمانيا فى قطار حيوانات وليس معه قرش واحد ، أما فى هذه المرة فقد طالب « جاويش » أن يعطى تأشيرة عودة فرفضت بريطانيا ذلك ؛ وكان قد أزمع السفر فعلا ، فاذا أراد أمرا ، فما كان لقوة أن تقف دون تحقيقه وكان أعضاء الحـزب الوطنى وجميع المنفيين والمبعدين قد عادوا .. ما عداه ، وفيما يروى الدكتور الفولى ان العرارجى وزيان والدكتور محفوظ من أعضاء الحزب الوطنى فى الاسكندرية عملوا ترتيب ذلك وكانت ابنة أخت « جاويش » متزوجة فى تركيا ، فأخذوا لها (كابينة) فى باخرة قادمة الى مصر ، وارتقاها جاويش دون أن يشعر أحد ؛ وظل مقيما طوال الوقت لا يواجه المسافرين حتى بلغت الباخرة الاسكندرية وكان والد الدكتور الفولى وصهر جاويش يعمل فى الجمرك فأمكن اخراجه دون أن يتنبه اليه أحد ؛ ثم لم يلبث أن زار أسرته زيارة خاطفة لم تتجاوز دقائق وعاد فاختفى عند الدكتور محفوظ وظهر فى اليوم التالى فى جميع الصحف بيانه المشـهور « تجديد العهد » وقد كشف فى هذا البيان عن وجوده فى مصر

فكان ذلك مثار التعليقات فى صحف الوفد التى كانت تقـاوم الحزب الوطنى وكانت مصر قد أخذت تدخل معركة الانتخابات الأولى بعد اعلان الدستور وعودة سعد زغلول من منفاه (للمرة الثانية) ؛ وكان الحزب الوطنى قد نزل المعركة فعلا ، واحتجز دائرة الجمرك فى الاسكندرية ، لجاويش منازلا لمحمد سعيد باشا وزير الداخلية فى وزارة مصطفى فهمى والذى طالما أذاق جاويش المتاعب وقد ضمن جاويش كلمته « تجديد العهد » التى نشرتها الصحف يوم ١٩ ديسمبر ١٩٢٣ اعتذاره عن وصوله خفية ، وكيف انه لجأ الى الحكومة طالبا الاذن فى العودة وظل مترقبا ذلك زهاء أربعة شهور وقال ان عودته حق خوله الدستور لكل مصرى .

وذكر كيف ان الحكومة المصرية لم تذكر له سابقة جهاده فى سبيل بلاده ، وابتعاده عن قومه وأهله وأنها لم « تحترم ذلك المقام الذى أحرزته فى تركيا ؛ وغيرها من أرفع الممالك أرفع به ذكر مصر فى الأمصار ، وأحارب العداة الأشرار » .

وأشار الى السر فى منعه من العودة وقال ان ذلك يرجع الى اتهامه بأنه صنيعة الخديو السابق « عباس » وانه ما أراد بالعودة الا أن يروج لعودته الى عرشه . ثم كشف عن تاريخ الخديو معه وقسمه الى أدوار ثلاثة :

(ولندع له الكلمة)

الدور الأول : عندما كان ملك مصر — يأمر وينهى ويمنع ويعطى ، وتعنو له الجباه ؛ وتطأطىء الرءوس ، فهل اجتذبتنى

اليه رغبة ؟ أو هالتنى منه رهبة ، لقد والله تذرع بكل الوسائل ، واستدرجنى الى لقائه بصنوف المغريات فهل أفلح له سعى ؟ أو تحقق له أمل ؟ لا يزال أولئك الذين كان يرسلهم الى أحيـاء يرزقون ولقد أرضى التاريخ يوما بالكشف عن أسمائهم ، واعلان ما كان من سفاراتهم ، وان كنت أبيت أن أصالح الخديو السابق أو ألاقيه فى ذلك العهد الرهيب فهل يعقل أن أترامى على أعتابه أو ألتمس لقـاءه خلال سنوات الحرب فى بلاد كنت فيها أنفذ منه أمرا ، وأرفع ذكرا ؟ ..

بلى ، قد تلاقينا ولكن لماذا وكيف ؟

وذكر جاويش كيف وسـط الخديو البارون وانجهايم سفير ألمانيا فى تركيا وأنور باشا القائد التركى لذلك ، يقول جاويش « لقد كنت أحسب ان تلك الظروف (ظروف خروجه من مصر ومنع عودته وعزله) قد غيرت من أطواره وأحواله ، ولكن تجاربى فى السنوات التى أعقبت ذلك ما انفكت تؤكد لى أنه ما زال ذلك الرجل الذى عرفته فى مصر ، واننى أعتقد أن رجال الخـديو وحاشيته ما زالوا يذكرون تلك الأيام وما جرى بينى وبينه فيها من الأحداث ، وكيف كانت علاقتنا وصلاتنا ؛ ومن السهل أن يسأل شيخ المعية الصادق [1] سعادة أحمد شفيق باشا فانه جهينة تلك

---

(١) سئل جاويش فى التحقيق الذى أجرى معه سنة ١٩١٢، بمناسبة قضـية المنشورات عما اذا كان يحصل على مرتب من الخديو عباس فقال : اسألو شيخ المعية (احمد شفيق باشا) الذى أدلى أمام نيابة الاستئناف بأن جاويش ما كان يمكن أن يأخذ مرتبا من الخديو اقرأ (مذكراتى فى نصف قرن جـ ٢) .

الأخبار ، الواقف على ما ظهر منها وما استتر أما الدور الثالث الذى بدىء بالهدنة فها أنذا أتحدى من يزعم أن لى بالخـــديو صلة ما ، أتحداه أن يأتى بآية تحفظ ماء وجهه » .

ثم تحدث جاويش عن ما وجه اليه من اتهام بشأن علاقته بتركيا وقال انه « رجل وقف حياته وسائر مواهبه على خدمة قومه لا يهاب المعاطب ، ولا تملك قلبه المناصب ولو كنت من الذين لا هم لهم الا أن يحسدوا بما فعلوا وما لم يفعلوا ، لكنت من المؤلفة قلوبهم الذين يمنون على الدولة وهم حديثوا العهد بما يظهرون من الهداية والتوبة والوطنية ولو كنت من هؤلاء لما تقاذفتنى البلدان ، وطوحت بى أمواج الصروف الى صخور الشدائد ؛ لأتكسر عليها ، ولهلت على هذا الوطن من تراب المزاعم والدعاوى ما يجعله منى كالقبور يهال عليه التراب » .

ثم صور موقفه من وطنه بعد اثنى عشر عاما من الغيبة القاسية فقال : « اننى ذلك الجندى الذى تحيا بلاده بموته ، ويسعدها بشقائه ، ويديمها بفنائه .. » .

وعرض لأمر الانتخابات فقـــال : « لتكن نتيجة الانتخابات ما شاءت الأقدار ، فاننى لا أنفك قائما على العهد الذى قطعته على نفسى أمام الله وأمام وطنى ، أن أجاهد فى سبيل بلادى الى آخر الأنفاس ولا أطيع فى سلامتها والدفاع عن كامل حقوقها سوى حبها الذى ملأ قلبى وأمرها الذى هو من أمر الله » .

وتساءلت الصحف عن موقف الحكومة من عودة جاويش وهل ستسمح له الحكومة بالاقامة وانتهز أمين الرافعى مدير جريدة

الأخبار فرصة اجتماعية مع يحيى ابراهيم ، رئيس مجلس الوزراء ، فسأله عن موقف الحكومة ، فأعلن يحيى ابراهيم ، ان الحكومة لن تتعرض لحرية الشيخ جاويش اذا ظهر ، ولن تمسه بسوء الا اذا ارتكب ما يجعله تحت طائلة العقاب ، ودعا الوزير جاويشا لمقابلته ، وقدم جاويش القاهرة من الاسكندرية فنزل فى فندق جردن هوس بشارع بولاق وزاره حسن أنيس وكيل الخارجية المصرية ، وقابل يحيى ابراهيم رئيس الوزراء فى مكتبه وزار ادارة الأخبار ، وقدمت وفود من طلبة المدارس العليا تهنئة بعد طول غيبته وتلقت الأهرام والصحف الأخرى عشرات الرسائل والبرقيات بالتحية والتنويه بمواقفه فى خدمة الوطن ، وأشارت الصحيفة البريطانية (دايلى تلغراف) الى عودة جاويش وقالت انه كاتب بارع ، ومن مشاهير المشتغلين بالشئون المصرية والاسلامية واشتهر بتأسيس عصبة الشعوب المظلومة فى برلين ، ووصفته جريدة الديلى كرونيكل فقالت « ان جاويش لا يملك الا جبته التى عليه » .

* * *

وانطلقت صحف الوفد تهاجم « جاويش » بشدة وتلقى عليه عشرات الشبهات واتهمته بأكثر من اتهام ، وكان أقساها ان الانجليز هم الذين أعادوه فى طيارة ليناهض سعد وانه رجل انقطع سنوات طويلة عن شئون مصر فهو لا يحسن الخوض فيها أو فهمها ، وانه قبل يد الخديو عباس فى تركيا عند ما التقى به

ومضت الصحف تطعن فى اخلاصه وماضيه ، وأجاب جاويش عن كل الإتهامات فى خطبه التى ألقاها خلال المعركة الانتخابية فى الاسكندرية (٢٩ ديسمبر ١٩٢٣ — الى ١٠ يناير ١٩٢٤) فقال : كيف ان الانجليز هم الذين أعادوه ، بينما هم الذين كانوا يحولون دون عودته وأنهم أبلغوا عن أسماء معينة لا يؤشر لها بالعودة ، وان اسمه كان من بينها ، وانه بذل جهده لدى قنصلية انجلترا بالآستانة لتختم جواز سفره فألقى به أحد رجالهم أمامه ولم يلتفت اليه .

وهذه عبارته « يقولون : انى جئت فى طائرة انجليزية لأجل أن أقوم فى وجه سعد ووفد سعد ، أنا ؟ أنا اذا جئت فلا أجيء الا للاتحاد ، أنا ما جئت لأحارب سعدا ولا غير سعد ، أنا ما جئت الا لأؤدي واجبى نحو مصر ، وما لى من أمل الا أن أرى فى مصر أمة عظيمة ، ولو شئت أن أكون خصما لسعد لكنت خصما له منذ سنين ، نحن ذلك الجندى الذى يفنى ليبقى وطنه ، والذى يذوب ليجتمع وطنه ، ويصير ترابا وينام فى الأخاديد ولا يعرف لنفسه شيئا ، يشقى لتسعد بلاده ويموت ليحيا وطنه ويحترق لتنبعث تلك النار المقدسة وتقوى نار الوطنية وما مثلنا الا كمثل الشمع يحترق ويذوب ليشيع ضوءه » .

وأشار الى قول جريدة الكرونيكل حين قالت ان عبد العزيز لا يملك الا جبته : « وقد والله صدقت ما عندى جبة غير هذه التى على بدنى ، نعم نقول لهم ان الناس الذين لا يملكون غير الجبة التى على أبدانهم هم الذين يحبون بلادهم ، أما غيرهم من

أصحاب المآرب الذاتية ، فيتمكنون من الحصول على المناصب والوصول الى الوظائف .

ودافع عن ما اتهم به من تبديد أموال الدولة العثمانية فقال ان ذلك لو كان صحيحا لما ترددت الحكومة الحاضرة (بعد انقلاب مصطفى كمال وقد عاد اليها وعمل بها ثلاثة عشر شهرا) فى محاسبتى عليها ، ولما عينتنى رئيسا لأكبر دائرة علمية لديها ؛ مؤكدة انه لولا يقينها من قبولى لتلك الرئاسة لما أسست تلك الدائرة .

وقال انه خرج من أنقرة رغم ارادة الحكومة وكذب ما قالوه من انه خرج فارا من « محكمة الاستقلال » .

وأشار الى خصومه فقال « هال بعض الناس رجوعى وجزعوا وطفقوا يسردون عنى التهم المضحكة ؛ انهم لا يزالون يذكرون مواقفي معهم أيام كانوا يتسكعون على أبواب قصر العميد الانجليزى وكانت أقصى أمانيهم فى الحياة أن يبتسم لهم معتمد الدولة البريطانية وأشار الى أن الكثيرين خوفوه من العودة وقالوا له لا تذهب الى مصر ؛ لأنه قد يصيبك كيت وكيت ، فقلت : « ماذا ؟ أأقتل ؟ قالوا يجوز .. قلت وماذا يكون ؟ اننى لا أخشى أن أخر صريعا فى ميدان الشرف » .

ولكن موقفه فى الانتخابات كان قاسيا ؛ فقد كان الوفد يؤيد محمد سعيد باشا ، وزير الداخلية عام ١٩٠٩ أو ١٩١٠ أو ١٩١١، والرجل الذى قاوم الحركة الوطنية وقدم جاويش للمحاكمة ثلاث

مرات ، وأنذر اللواء ، وأوقف العلم والشعب .. وأوعز الى أحمد مختار حامل المنشورات أن يتهم جاويش ليخفف عنه الحكم .

وكان الوفد يسيطر على الحركة الوطنية بعد ثورة ١٩١٩ محاولا حجب تطور الحركة الوطنية والاغضاء عن فضل الحزب الوطنى وجاويش على قيام هذه الثورة ، وان كتاباتهم هى التى أوقدت جذوة الوطنية فى نفوس الأمة ، قبل الحرب حتى أتيح لها أن تنفجر على هذا النحو .

ولكن الشقة قد بعدت بين جاويش وبين الشعب ، وقد أثار الوفد فى صحفه شبهات كثيرة تجاه مفاهيم الوطنية كما كان يدعو اليها الحزب الوطنى ، فقد لقى جاويش فى المعركة متاعب لعله صورها فى عبارته القصيرة :

« لقد كان رجل منكم خرج مبرءا فى قضية الكاملين فكانت أمه تجر عربته بعد أن أخرجوا خيلها ثم يحمله الشعب بوسامه ليلة فارق السجن ، أوليس من العجيب أن يتهم هذا الرجل فى اخلاصه ؟ وان يحصب هذا الرجل بالحجارة .. » .

وكانت معركة الانتخابات ختام الموقف السياسى كله بالنسبة لجاويش منذ بدأ تحرير اللواء ١٩٠٨ حتى أمسية الانتخابات ١٠ يناير ١٩٢٤ ، وفى خلال ستة عشر عاما كاملة .

هنالك اتجه جاويش الى العمل الصحفى وكتب فصولا متعددة فى جريدتى الأخبار واللواء المصرى أهمها عن سقوط الخلافة فى تركيا ، ولكنه لم يكد يخطو بضع خطوات حتى وقع الاعتداء على سعد زغلول رئيس الحكومة التى نالت الأغلبية ،

والتى لم تتح الظفر بالنجاح الا لرجل واحد من الحزب الوطنى أن يمثل فى برلمانها هو « عبد اللطيف الصوفانى » .

وقع الاعتداء يوم ١٢ يولية وهـو فى طريقه الى محطة باب الحديد وألقى القبض على جاويش ولفيف من أعضاء الحزب الوطنى ، منهم أحمد وفيق وعبد الملك حمزة واسماعيل كامل ويحيى الدرديرى وظل جاويش مسجونا حتى ٥ أغسطس ١٩٢٤ عندما أفرج عنه وقد لقى فى سجنه متاعب جمة ، فلا شك كانت السجون المتوالية ومتاعب الهجرة وقسوتها ، قد أثرت فى صحته حتى عرف عنه قوله :

« لا تخرجونا من السجن أمواتا » .

كان ذلك نهاية أحداث حياته السياسية ، فقد انطوت تلك الصفحة العريضة المثيرة كما ينطوى الشريط ، وكانت المعركة هزائم متـوالية ، وقد قامت فى مصر حكومة جديدة تمثل قوة جديدة تصارع قوى من نوع آخر ؛ أما الوطنيون فقد بَعُدَ بهم الطريق ، وانتزع منهم اللواء ، فعادوا غرباء وكان جاويش قد فتح لنفسه آفاقا أخرى الى جوار عمله السياسى والصحفي منذ السنوات الأولى فى مجال التعليم والتربية والاصلاح الاجتماعى .

وكان هذا مجاله الذى كَرَّسَ له السـنوات الباقية من حياته ، غير ان الدولة لم تلبث ان رأت الانتفاع بخبرته التعليمية والتربوية . فوكلت اليه أخطر مهمة ؛ ووضعته فى منصب له جلاله وخطره ذلك هو منصب (مدير التعليم الأولى) وذلك وفق خطة لمحو الأمية وتوسيع نطاق التعليم .

كان ذلك عام ١٩٢٥ فمضى يعمل من جديد حتى انقطع الزيت وانطفأت الشمعة فى أوائل ١٩٢٩ .

فقد آن لهذه النفس الطموح أن تؤوب بعد رحلتها الطويلة فى خلال سنوات قليلة لم تزد عن ثلاثة أعوام بعد الخمسين ، فقد ولد ٣١ أكتوبر ١٨٧٦ وتوفى ٢٥ يناير ١٩٢٩ ، واذا كانت حياته قصيرة فانها كانت عريضة حقا ، قطعت ألوف الأميال فى رحلة عجيبة حول العالم الممتد من تركيا الى بريطانيا فى جولات متعددة بين الجزائر وفرنسا وألمانيا وسويسرا ، كانت مصر فيها هى قطب الدائرة ؛ فقد أحبها حبا فاق كل حد ، وجاهد من أجلها وضحى بكل شىء .

وكان جاويش قد أصيب عام ١٩١٨ بذبحة صدرية كاذبة وهو فى منفاه على أثر المجهود الضخم الذى بذله فى تلك السنوات المظلمة الكئيبة والتى صورها مرة حين قال : « ما لقيت فى سبيل بلادى من غصص العيش المر فى ديار هجرتى » .

ولقد عاد الى مصر فواصل العمل ولم يتوقف بالرغم من ضعف صحته ، ولم يستمع الى تحذير من حذروه من أن يعود المرض مرة أخرى ، فانكب على العمل المضنى الذى وكل اليه فى مجال التربية والتعليم ومضى يجوب البلاد بلدا بلدا ينشىء ويعمل ويوجه ويكوّن الأجهزة ، ولقد كان حفيا فى سنواته الأخيرة بأن يرعى أسرة زميل الجهاد محمد فريد الذى توفى فى برلين ١٩٢٠ ، ثم كان عليه أن يرعى أسرة أمين الرافعى الذى توفى قبله بعام واحد .

وقد كتب فى مذكرته فى ٢٩/١/٢٣ — أى قبل وفاته بيوم واحد كلمه حمدا لله فيها أن وفق الى أن يتفق مع الأوقاف والجمعية الخيرية على دفع مرتبات ثابتة للأسرتين .. كما كان قد أرسل مبلغا الى احدى الأسرتين ، فلما توفى لم يكن فى بيته مليم واحد بشهادة الدكتور الفولى وأسعد جاويش فى حديثهما الى وقد كان بيته مدينا للبقال والجزار والخضرى .

وكانت كلمته دائما : لو مت اليوم لا أدرى ماذا يأكل أولادى غدا .. ثم أسلم الروح فى فجر الجمعة ٢٥ يناير ١٩٢٩ وسقط ذلك الفارس المجاهد الذى حمل اللواء من أجل أمته أكثر من عشرين عاما ، لم يتوقف خلالها عن العمل لما اعتقد انه الحق .

فاذا أردنا أن نرسم صورة موجزة لحياته الخاصة فاننا نجده قد وهب حياته كلها لأمته ، ولم يجعل منها لأسرته الا أيسر اليسير فلم يكن جاويش فى الحق متفرغا لأسرته ، وكان يلم بداره المام الراحة والضرورة .

كان يسكن فى منشية الصدر أول عمله باللواء (١٩٠٨) ثم أقام فى بيت شعبى بالبغالة . وقد أصهر قبل ذلك بعام الى بيت « الفولى » من الاسكندرية قبل خروجه من خدمة الحكومة ، وكان موفقا فى هذا الاختيار فقد كان لهذه الأسرة دور بارز فى الحركة الوطنية حيث يعمل أفرادها فى الموانى ويلتقون بأسرة جاويش فى الطريق الممتد من الاسكندرية الى بنغازى حيث قوافل التجارة كانت تحمل العتاد والذخائر وتهرب الأسلحة والرجال الى طرابلس خلال حرب المقاومة ضد الاحتلال الايطالى ١٩١١

وما بعدها . وكان لهذه الأسرة دورها فى تهريب رجال الحركة الوطنية ١٩١٢ الذين تركوا البلاد مهاجرين هربا من القيود القاسية التى بدأ يفرضها الاحتلال عليهم بغية التخلص منهم نهائيا وافساح الطريق أمام قيادة جديدة يصنعها .

وقد كان الدكتور محمد فهمى الفولى شقيق زوجة جاويش رفيقه فى خلال هجرته وهو المصدر الوحيد الذى أتاح لنا معرفة تفاصيل أساسية عن هذه الفترة الدقيقة (١٩١٢ — ١٩٢٣) والذى ولى أمور أسرة جاويش خلال تحركاته بين تركيا وأوربا .

أما جاويش فقد عاش بمرتبه (أربعون جنيها) يحصل عليها من اللواء مجزأة وينفقها قسمة بين بيته وبين اعانة الأسر الفقيرة ومساعدة القادمين من هنا أو هناك ؛ ولم يكن أهله يرونه الا لماما ؛ كل وقته مشغول بالناس والعمل من أجل الآمال الكبرى التى تملأ صدره .

فلما هاجر عام ١٩١٢ سافرت أسرته من بعده فلحقت به فى استانبول أو (الآستانة العلية) كما كانوا يسمونها ؛ فلما وقعت الهدنة وسافر جاويش ورجال الحزب الوطنى من تركيا الى أوربا بقيت أسرته فى استانبول فى رعاية الدكتور الفولى حتى عادت الى القاهرة ١٩١٩ غير أن جاويش أجهد فى أوربا وأصابته ذبحة صدرية كاذبة ، فنصحه الأطباء بالتزام الراحة فلم تلبث أسرته أن سافرت الى ألمانيا للاقامة معه هناك . ولم يلبث جاوش أن تلقى دعوة من مصطفى كمال — بعد الثورة الكمالية — للالتقاء به فى أنقرة فترك أسرته فى بافاريا (قرية بجوار ميونخ) ويذكر

العميد أسعد عبد العزيز جاويش الذى ولد فى الآستانة أنهم فى هذه الفترة بعد سفر والدهم كانوا يعيشون على الفتات حتى أن والدتهم كانت تعطى كلا منهم سلة صغيرة فيخرجون الى الحقول ويقطفون الخضروات ، وكان هذا أغلب غذائهم فى تلك الفترة ثم عادوا الى الاسكندرية فى يونيو ١٩٢٣ .

ثم عاد جاويش فى نهاية العام فدق عليهم الباب ، وفتحت له ابنته الصغيرة التى لم تكن رأته منذ ولادتها فلم يلبث فى بيته قليلا حتى اختفى عند صديقه الدكتور محفوظ الى أن أتيح له أن يقيم مع أسرته فى حلوان فترة ثم لم يلبث جاويش أن أعتقل فى قضية الاعتداء على سعد زغلول وفتش بيته ونزع منه ما لديه من أوراق ، ويذكر أسعد أن مظاهرات كانت تتحرك فتقذف البيت بالحجارة ، وكان (اسماعيل العسيلى) صاحب البيت يضع خفراء لحمايتهم وكان جاويش يجمع أولاده فى غرفة داخلية ويغلقها عليهم حتى لا يتسرب منهم أحد ثم انتقلوا الى شقة بشارع والده باشا فى جاردن سيتى .

ويروى أسعد كيف أنهم تلقوا فى يوم من الأيام عـــددا من الأقفاص المليئة بالدجاج والفاكهة . وقال حامل هذه الهدية أن (جاويش) هو الذى حمله اياها . فلما عاد وقيل له أن رسولا قد أحضر هذه الأقفاص غضب غضبا شديدا وثار ثورة عارمة . وأخذ يحمل القفص تلو الآخـــر فيرمى به من النافذة من الدور الثالث فما أن يصل الأرض حتى يكون قد تمزق وانفرط عقده وكان

صاحب الهـدية قد قصده فألحقه بعمل . وظن أنه ممن يقبلون الهدايا جزاء على عمله .

ويذكر أسعد انه كان حفيا بالفقراء ، يقف معهم ويحادثهم ويعطيهم ثم لا يكتفى بذلك بل يبحث لهم عن أعمال يلحقهم بها .

وكانوا يقولون له : انك ربما تقدم الصدقة لرجل قد يكون محترفا . فكان يقول : لا أفكر فى صاحب العطية ، أيستحقها أم لا يستحقها ، اننى أتعامل مع الله .

وكانت حياته الأسرية غاية فى الود والعطف والحب ، ولكنه كان حازما شديد الحزم قاسيا على من يخطىء وكان حليما غاية الحلم فاذا ثار فثورة عارمة .

وكان عظماء العالم الاسلامى يزورونه فى بيته ، يقول أسعد وكنا نسلم عليهم حسـبما علمنا ، دون أن نقبل يد أحـد ، فلا يدهشون لذلك وقد قال أحدهم مرة ، نحن نفهم أن أولادك لا يقبلون يد مخلوق ، لأن أباهم كان كذلك وقد أنشأ أولاده ورباهم على نحو كريم ؛ وكفاء العمل النافع والخير الذى كان يؤمن جاويش بافاضته على الناس ، أتيح لهؤلاء حياة كريمة بعد وفاته دون أن يترك لهم قرشا واحدا . فقد قيض الله له أجـر المجاهدين وقدر لأهله موردا كفل لهم الحياة على النحو الذى أتاح لهم استكمال تعليمهم وأخذ مكانهم الطبيعى فى المجتمع .

وقد أطلعنى الدكتور الفولى عـلى خطاب من (جاويش) أرسله اليه من ميونخ ١٠/٨/١٩٢١ بعد حصوله على الدكتوراه يعتذر له عن قسوته فى معاملته ابان الطلب فى استانبول وبرلين

ويكشف عن انه انما كان يشتد معه ليخلق منه رجلا عظيما ، يقول فى رسالته :

« .. انى أذكر اسرافى فى الحرص على وقتك وفرط عنايتى بمستقبل أمرك ، وما فتئت أحس بما فى ذلك من بعض الحـــرج والايلام ولكننى كنت أومن مع هذا انك أنجب من أن تسىء تأويل ذلك ، فتعتبر تدبيرى اياك استبدادا ، وفرط حبى عليك قســوة وغلظة .

.. فان كنت ترى منها (هذه المعاملة) اليوم ما يدعو الى مؤاخذة أو معتبة فاننى أعمد فى غفرانه على حسن نيتى وعــلى بر بنوتك ، وقد وددت أن أربى منك شابا على الهمة ذكى الفؤاد غزير العلم » ثم مضى يوجهه فى عمله فقال :

« أوصيك ألا تجعل الدنيا كل همك فانها لا تقبل الا على من يزهد فيها ، اجعل جل همك الزيادة من الاستفادة فضاعف أبحاثك وتجاربك ، فان اقبال الدنيا عليك معقود بدرجة نبوغك ومبلغ جهودك العلمية ، لا بسعيك وراءها ، واذكر انك فى أمة قد قتلها الجهل فاذا شئت البر بها فليكن ذلك بنشر العــلم فلا تضن على فرد من أفرادها بما فتح الله عليك به فى مستقبل حياتك .. ».

وغاية ما يقال فى هـــــذه الرســــالة ان « باطن » جاويش أو « جوانيته » على حد تعبير الدكتور عثمان أمين أشبه بظاهرة أوبرانيته ، ولو أنه كان رجلا يتخذ من الكلمات البراقة وسيلة للظهور ما وجه مثل هذا القول فى خطاباته الخاصة ، ولا شك

أن هذا الاعتذار الرقيق لمعاملة صهره الذى رباه وعايشه أيام الطلب انما يعطى صورة باهرة على نحو لا يقبل الشك لمدى نقاء نفسية هذا الرجل وسماحته .

* * *

وهكذا تعطى صورة حياة جاويش الخاصة نفس المفاهيم التى كان يجهر بها . وترسم نفس الصورة . واذا كان جاويش قد عاش حياة قصيرة فى عدد سنواتها فانه قد عاش حياة عريضة فقد كان صادق الايمان بالمعنويات والقيم والمثل على النحو الذى تصوره عبارته الخالدة :

« ان لله رجالا تخلد حياتهم اذا ماتوا ، ويزيدون ظهورا اذا قبروا ، كما أن للنار اناسا يموتون وهم أحياء ، ويقبرون فى ظلمات أعمالهم وهم على الأرض يعيشون .. » .

أعمَاله وآراؤه

حفلت حياة جاويش بالعمل والرأى ، فهو ليس مفكرا فحسب بل واحد من بنائى الأمم والشعوب ، يجد مجاله فسيحا فى تأليف الناس ، وصناعة النماذج الحية فى مجالات العمل الاجتماعى والسياسى على السواء ، وقد أمدته ثقافته الاسلامية والغربية بتكامل عميق فى مفاهيم النهضة ، وفتحت أمامه آفاق العمل فى مجال انشاء الكفايات وبناء الأفراد . فلم يكن عمله نظريا محضا فى مجال الدعوة ، ولم يقصر نفسه على العمل الصحفى أو السياسى ككاتب يكتب مقاله ؛ أو سياسى يلقى خطابا ولكنه كان معلما بكل معنى الكلمة ؛ يطمح الى انشاء جيل وبناء أمة ، وصناعة قادة يؤمنون بما يؤمن به ؛ ويكونون طلائع لأمتهم .

ولقد بلغ على قصر العمر ، واضطراب الأمور من ذلك بعض ما يريد ، وما من علم من أعلام نهضتنا اليوم فى مجال الثقافة والفكر ممن اتصلوا به الا وقد ترك فى نفسه أثر واضح ؛ وقد أضفى عليهم من ايمانه وعزيمته طابع ملموس .

كان جاويش حفيا بالعمل فى مجال التربية وبناء الخلق والعقل من خلال عمل المعلم ؛ وعنده أن التعليم وحده لا يكفى ، ولابد من « التربية » أساسا ؛ فهى صانعة التكوين النفسى والروحى ،

وكان حريصا على أن يدخل هذا الفن على النحو الأصيل منه الى مناهج الدراسة فيحرر الشباب من المناهج التى صنعها الاحتلال وأقام عليها أعوانه ومن هنا كان اهتمامه بفتح المدارس وانشاء المعاهد ، فى كل مكان فقد مضى يجمع المال ، ويدعو الناس الى البذل من أجل هذا العمل الذى أولاه اهتمامه كله . ثم هو لا يكف عن انشاء الجمعيات التعاونية والأهلية والنقابات العمالية ، يقطع البلاد طولا وعرضا ، يدعو الناس اليها مع الداعين ؛ ويزيد فى أمر الدعوة فلا يقف بها عند الشكل بل يصل الى المضمون فكما أن التعليم بدون التربية لا يحقق الغرض ، فان انشاء الجمعيات والنقابات بغير الخلق ونبالة القصد والتضحية لا يتم .

وفى هذا المجال نرى أمانته للجوهر ، وحرصه على القيم أكبر من أمانته للشكل والصورة ؛ وكما مضى يشق طريقه فى مجال الكاتب الصحفى ، مضى فى مجال المعلم المربى ، والمصلح الاجتماعى ، والمجدد الاسلامى وبذلك جمع فى اهابه بين شخصيات كبيرة :

الصحفى ، المعلم ، الاجتماعى ، المجدد الاسلامى ، وهو فى طريقه يمضى حيث سار السابقون من المصلحين ، يترسم نهج جمال الدين ، ومحمد عبده ، ويتخلق بخلق أحمد ابن حنبل فى احتمال المحنة ، والغزالى فى المزج بين الشكل والمضمون ، دينه من خلق عمر : عبارته : « ان قول الحق لم يدع لى صديقا »

وفيه من كلمات الابرار : ان سجنى خلوة ، وتغريبى سياحة ، وقتلى شهادة .

وقد أتيح له أن يعمل فى كل مجال ، وملأ عمره القصير بالعمل على نحو واسع متعدد الجوانب ، وكانت له كتب وصحف ومجلات ، وهو بارع حين يكتب وحين يخطب وحين يحدث ، وحين ينظم الشعر .

وآراؤه هى آراء المؤمنين بأوطانهم وأممهم ، الجامعين لمعنى الوطنية والقيم الانسانية فى آن ، الحاملين لواء الدعوة الى الثورة السياسية والتربية الاجتماعية والاصلاح والتجديد ، والجمع بين الدين والدنيا ، والمادة والروح ، ومن هنا كانت أمانته لما وكل الى نفسه من مهام عسيرة قاسية ، فقد مضى يخطو فى كل مجال ، ويعمل فى كل ميدان ، ولكنه لم يصل الى القمة فى مجال واحد منها ، ويكفيه أنه عمل ولم يتوقف وهز الدنيا وشغل الناس وترك فى النفوس جذوة متقدة .

ويتشقق الحديث فى هذا المجال الى ثلاث جوانب أساسية فى شخصيته :

- المعلم المربى .
- المصلح الاجتماعى .
- المجدد الاسلامى .

- ١ -

المعـــلم

بدا « جاويش » حياته معلما وختمها معلما ، فقد ولى بعد تخرجه منصب مفتش فى وزارة المعارف ١٩٠١ حتى عام ١٩٠٨، ثم عــاد الى التعليم ١٩٢٥ مديرا للتعــليم الأولى حتى توفى عام ١٩٢٩ .

بل لعله كان معلما خلال فترات حياته المختلفة . حين كان يعمل فى الصحافة أو يجاهد فى سبيل الحرية ، أو يقاوم الاحتــلال البريطانى .

ولعله لو أتيح له فسحة من العمر أو الوقت ، ولم تشــغله القضية الأساسية وهى « تحرير مصر » لقدم لقومه مزيدا من العمل المجيد فى هذا الميدان ، فقد كان صــادق الايمان بوطنه وأمته ، وبأمجادها وتاريخها ولغتها وحقها فى الحياة فقد كانت عاطفته عميقة غاية العمق ، وكان عقله ناضجا ذكيا ، ولقد قرأ فنون الأدب والتربية فى فكرنا العربى وتراثنا وحفظ القرآن وألم بالأزهر ودار العلوم ثم أتيح له أن يلم بجامعتين من أكبر جامعات العالم اذ ذاك وما يزالان بروود واكسفورد ؛ وأن يمضى فيهما متعلما ومعلما ثمان سنوات . ولقد كان اتصاله ، بمناهج

التعليم فى بلد كبريطانيا يحتل بلده عاملا فعالا فى نفسه المتطلعة الى الحرية ، ذلك بأنه كان يؤمن بحقيقتين أساسيتين :

الأولى : ان الأمم لا تنهض أساسا الا بالتربية وبالتعليم ، وأن العمل السياسى أو الوطنى انما هو عامل مساعد أساسا وليس عاملا رئيسيا .

الثانية : ان التعليم ليس هو كل شىء ، بل ان « التربية » هى أساس بناء الأمم ، وان انشاء الخلق والفضائل والقيم فى نفوس « النابتة » هى العمل الأكبر . من أجل هذا وعلى هذا النحو عمل جاويش فى الفترة الأولى لحياته فى التعليم ، حيث كان نفوذ الانجليز غالبا مسيطرا ، عن طريق مستشارهم « دنلوب » فلم يكن هدف الاحتلال ألا تخرج موظفين يعملون وفق ارادته ومشيئته ؛ لذلك حرص على تغليب اللغة الانجليزية ، ودس الكتب التى تحمل السموم والانتقاص للاسلام والعربية ، وجرى نظار المعارف فى ظل الاحتلال على الخطة المرسومة لم يتجاوزوها ؛ واختير سعد زغلول وزيرا فأعلن انه انما هو الذى يوجه العمل من دون المستشار البريطانى ، ولكن أعماله فى الحقيقة كانت تنفيذا للخطة التى وضعها « دنلوب » لم يتجاوزها وقد شهد « جاويش » ذلك عن كثب ولمسه بنفسه ، وكانت حملته على التعليم هى أولى حملاته بعد أن ترك وزارة المعارف ، وقد بلغت من العنف حده ؛ وكشفت كثيرا من الأسرار ووصفت بالخصومة العنيفة التى حملت سعدا ودنلوب على أن ينتزعا كل ما كتب

جاويش — فى التربية والتعليم من مؤلفات أو نصوص فى الكتب الدراسية .

وقد أشار « جاويش » أنه أمضى سنوات فى وزارة المعارف فى مكافحة متصلة ونزاع مستمر بينه وبين الرؤساء ، ولم يكن هذا المنتظر أو المتوقع منه ، فقد ظن الانجليز ان الرجل الذى تعلم عندهم ثم عاد فأمضى خمس سنوات معلما لرجالهم الذين يعملون فى البلاد المحتلة قد لا يكون معارضا على هذا النحو العنيف لخطتهم .

فلما عرفوا عزمه على مقاومتهم أبعدوه عن الأعمال الحساسة ذات الأهمية ، فعين بعد عودته مراقبا مساعدا لتفتيش الكتاتيب حتى ضاقت نفسه بالعمل ولم يلبث أن وقع الخلاف بينه وبين ناظر المعارف حول مسائل متعددة ، أهمها اتجاه الاحتلال الى تعيين مدرسين انجليز لتعليم الرياضة باللغة العربية بينما يوجد من يصلح لذلك من المصريين بقصد مزاحمة المصريين فى هذه المناصب ، وابعاد الوطنيين عن هذا العمل . « كيف يعقل أن يقوى الانجليز على التعليم باللغة العربية التى لا يحسنون فهمها أو النطق بها ؟ وكيف يكون موقف الانجليزى أمام تلاميذه وهو يلقى عليهم الدرس باللغة العربية الفصحى ؟ » ، كما وقع الخلاف بينه وبين « دنلوب » حول منهج مدرسة المعلمين ، وكان جاويش يعمل لاعداد برنامج مركز يحقق الهدف من اخراج المعلم ويستمر ثلاث سنوات وقد عارضه فىذلك مستشار الوزارة ، وحاول افهامه ان البلاد ليست فى حاجه الا الى مدرس تكفيه الدراسة لمدة عام واحد .

٢ — وكان جاويش منذ مطالع شبابه قد أخذ يؤلف الكتب فى مفاهيم التربية وكتاب « غنية المؤدبين » الذى الفه عام ١٩٠٢، يمثل اتجاهه واضحا صريحا فى ضرورة بناء الطفل بالتربية أساسا وقبل التعليم ، وأن التعليم وحده لا يكفى ، فالتربية عنده هى الأساس « ليس أن يزاد فى حجم الأشياء بل المراد تهيئتها وتمكينها من القيام بأعمالها ، وتأدية وظائفها بما ينبغى على أكمل وجه ممكن ، ولا وسيلة للتقوية والتربية الا بالتمرين والاستمرار بالشىء على تأدية وظيفته حتى يقوم بها بسهولة وسرعة واتقان وعنده ان التربية الحقة هى أن نخلق من الطفل رجلا فاضلا كاملا فى أخلاقه ، شريفا فى نفسه ، قويا فى ارادته تؤدى أعضاؤه وظائفها على الوجه الذى ينبغى » .

وكشف جاويش عن الفرق بين التربية والتعليم فقال : « ان التربية هى اعداد الشخص وتمكينه من القيام بأعماله وتأدية وظائفه وما يتطلب منه أداؤه على الوجه الذى ينبغى من الحذق والمهارة والاتقان مع السرعة فى انجازه .

أما التعليم فهو ايصال المعلومات والمعارف المختلفة الى أذهان التلاميذ وعقولهم ، وملء أدمغتهم بالعلوم والفنون بما يلائم أجسامهم وعقولهم وحياتهم » .

هذه هى المعانى التى حاول أن يضعها « جاويش » فى أيدى المعلمين منذ مطالع القرن وكان كتابه أول المؤلفات عن التربية فى مصر والمشرق كله فى العصر الحديث .

٣ — وكان جاويش من أوائل العاملين فى مشروع انشاء الجامعة المصرية القديمة الذى تبنته الحركة الوطنية أساسا فقد اشترك فى الاجتماع الأول الذى عقد فى دار سعد زغلول القاضى فى ١٢ أكتوبر ١٩٠٦ ، فلما ترك وزارة المعارف عام ١٩٠٨ ورأس تحرير اللواء استطاع أن يوسع دائرة عمله فى مجال التربية .. والتعليم على نحو واضح .

فقد أنشأ المدرسة الاعدادية بدرب الدليل قسم الدرب الأحمر منزل رقم « ٣ » ودعا المواطنين الى ارسال أبنائهم اليها وكان جاويش يعلم فيها بنفسه ، وقد رأى أن يفتتحها فى خلال أجازات الصيف حتى لا تضيع أوقات الشباب فيما لا ينفع .

وقد استهدف جاويش من فكرة المدرسة الاعدادية أساسا أن تكون نواة صالحة ينسج عليها التعليم الثانوى ؛ ثم لم يلبث أن حمل لواء الدعوة الى انشاء المدارس الليلية ، وفتح عددا منها واستقبل بها عديدا من العمال .

ثم مضى يجمع التبرعات والاكتتابات لفتح المدارس الأولية لتعليم أبناء الشعب ولم يلبث أن وسع نطاق هذه العمليات الفردية التى استهدف بها استكمال النقص فى مدارس الوزارة التى كان الاحتلال حريصا على أن تكون بمصاريف ، وذلك حتى لا يقبل فيها الا أبناء الأثرياء .

وفى نفس الوقت الذى كان لطفى السيد يدعو الى قصر التعليم على أبناء الأغنياء والأسر وكان من رأيه مقاومة تعليم

ســواد الأمة ومعارضة الاتجاه الى المجانية وذلك حتى يمكن المحافظة على وجود طبقة معنية تحكم البلاد (١) .

فى هذا الوقت كان « جاويش » حريصا على أن يعمل بكل ما فى طاقته فى هذا المجال فقــد طوف بالبلاد وتحدث فيها عن مشروعه وكون اللجان ، وبدأ فى جمــع التبرعات والاكتتابات اللازمة وأنشأ فى القــاهرة ما أطلق عليه جمعية تشجيع التعليم الحــر .

وكان قد رأى من خلال تجاربه الشخصية ان مقرر المدارس الثانوية الذى وضعته الحكومة يمكن للتلاميذ اتمامه فى ثلاثة شــهور ونصف وبذلك يمكن صرف الوقت الباقى من العــام الدراسى فى تعليم مواد أخرى تفيدهم فى حياتهم العملية وكان من أمله أن يتم برنامجه بالتدريج ، وأن يقدمه كنتيجة نهائية لتجربته الطويلة ودرسه الدقيق .

وقد دعا فى المؤتمر الوطنى (١٢ يناير ١٩١٠) الى انشــاء مدارس البساتين (روضة الأطفال) وقال ان هذه المدارس هى التى تبنى التعليم فى مصر ، وقدر ان المشروع يتكلف عشرة آلاف جنيه مصرى لانشاء المدرسة الثانوية الجديدة (٢) .

وكان جاويش حفيا بأن يذكر النقص الواضــح فى مناهج التعليم فى مصر ، ولطالما أنحى باللائمة على أن المدارس لا تخرج

---

(١) النثر العربى المعاصر لأنور الجندى ص ١٨٠ .

(٢) العلم ـ ٢ يوليو ١٩١١ .

من ينهضون ببلادهم وقال ان الصورة التي يهيئها لخريجيه هي صورة الوصوليين الذين لا يلبثون آن يكونوا عبيدا ومتملقين للحكام وأرباب الجاه وأصحاب النفوذ .

ووصل من دراسته الى نتيجة هي ان المرض الحقيقي الذى يكاد [1] يودى بالأمة المصرية هو خلو البلاد من « التربية » الحقيقية التي هي مجمع الفضائل ومبعث الكمالات ، وقال ان هذه التربية النفسية هي التي تتوقف على رفعة الأمم وانحطاطها ، بل يتوقف عليها وجودها ، وتساءل « ففى أى معهد من المعاهد الليلية القائمة الآن فى مصر تجد الوسائل التي تحمل النابتة على الكرم والجود والأخذ بأسباب الحق ومحاربة الباطل ؟ » ثم أجاب « الا انه لا شيء من ذلك » .

ووصف العلاج فقال ان الوسيلة الى تطهير نابتة الأمة من تلك الأمراض النفسية المتفشية فيها هو تأسيس معاهد للعلم والتربية بأقسامها الثلاثة : الحسية والعقلية والنفسية ، وهى التي لا يكاد يوجد منها شيء فى المعاهد القائمة الآن .

من أجل هذه المفاهيم حمل « جاويش » لواء الدعوة الى تأسيس ادارة معارف أهلية ، تبدأ بانشاء بضع مدارس .

* * *

وقد وجه « جاويش » جهده منذ اليوم الأول لعمله فى (اللواء) الى بث فكرة التربية كأساس للتعليم ، محاربا نظام

(١) العلم — ٣ نوفمبر ١٩١٠ .

وزارة المعارف الذى رسمه الاحتلال وأشرف على تنفيذه كرومر ودنلوب ؛ فمضى يشن الغارة على أولئك الذين يتولون زعامة المعارف فى هذه البلاد وهم ليسوا ممن درسوا شيئا من علم النفس ، ولا ألموا بشىء من مسائل التربية العملية » .

وأشار الى انه من الضرورى فى نظام تدبير [1] المدارس وقواعد أصول التربية أن يشرف القائمون بأمر التربية على المربين فيضعوا لهم القوانين ، ويعينوا لهم مواد الدراسة ، ويقدروا لهم أزمانها ، وما يدرسونه من كل مادة ؛ ثم يقوموا على الطلاب يراقبون حركاتهم وسكناتهم فى جميع أطوارهم ؛ حتى فى الخلوات على مذهب الجزويت ، والغرض من ذلك أن يصلحوا ما فسد من أخلاقهم ويكملوا ما نقص من آدابهم ، فيزودوهم بما ينفعهم فى معاشهم ومعاهدهم « ثم أشار الى أن العقل لا يمكن أن يكون بين يدى القائمين بأمر التربية آلة يديرونها أو مأمورا يطيع أوامرهم ، الا فى أدوار التكوين الأولى ، حتى اذا ما بلغ العقل أشده وأمكنه معرفة ما يضر صاحبه وما ينفعه لا يتقبل شيئا من غيره الا بمقدار ما يعقل ويقتنع ؛ وقال ان من لا يفهم تلك الأطوار العقلية وما يناسب كل طور من التدبير والسياسة كان خليقا أن يسىء وتكثر عثراته » .

هذا نموذج من عشرات الموضوعات التى كان يعرض لها جاويش فى اللواء وفى مجلة « الهداية » وفى خطبه ومحاضراته

---

(١) اللواء ــ ٧ ديسمبر ١٩٠٨ م .

المختلفة ، ولطالما عرض لهذه الآراء ثم علق عليها ، وأعلن موقفنا من تطور الغرب فى فكره التربوى ، فقال ان مثل هذه الآراء فقهها أهل أوروبا ، واتخذها علمـاء التربية وسائل فى تدبير نابتتهم وتثقيف شبابهم ، ولكن ساء حظ مقلديهم من أهل الشرق ، ولا سيما المصريين ، فحاكوهم من غير تبصر ولا تفكير ، ولذلك تكثر أغلاطهم فلا يفقهون أسبابها .

وهذا يعنى انه يؤمن بحقنا فى أن نعرف أحدث أساليب الفكر العالمى فى مجال التربية والتعليم والثقافة ، ولكن لابد أن تكون لنا شخصية استقلالية لاتطبق كل شىء تطبيقا أعمى وانما تأخذ لنا من هذا الفكر ما يناسب شخصـيتنا ومستوانا وظروفنا وبيئتنا .

ولطالما أشار الى أثر « التربية » فى رفـــع مستوى حياتنا الثقافية ، وجهر بأثر الاحتلال فى القضاء على هذه المادة ، ومن ذلك قوله : « عمد الاحتلال الى الاخـــلاق فى المدارس ، فلم يضعوا فى نظامها ما يكفل تهذيب الأخلاق ، وتثقيف العقول ، وطبع النفوس على الهمة والشهامة ولم يضعوا من ضروب النظام ما يبلغ بالأمر شيئا من تلك الصفات والأخلاق التى لا تقام الأمم بدونها » .

* * *

ويدخل السجن للمـرة الثانية سنة ١٩٠٩ فلا يشغل فكره الا بهذا العمل ويخلص من تجاربه الماضية كلها فى مجال السياسة الى أن هذه الأمة لا يصلح أمرها ولا تستطيع بناء النهضة ولا حمل

لوائها ولا مقاومة النفوذ الأجنبى الا اذا استطاعت أن تبنى أخلاقها ويقوم فيها نظام تربوى « حقيقى يسبق نظام التعليم » ولا يستطيع التعليم بدونه أن يخطو فى مجال النجاح .

ثم لا يلبث أن يكشف عن رأيه « ذلك انه ما دامت برامج الدراسة وقوانين المدارس على النحو الذى وضعته وزارة المعارف فلا رجاء فى اصلاح هذه الامة ، ولا أمل فى تهذيب أخلاقها وتربيتها ، وان كل ما يرى من أشكال النظام المدرسى وضروبه ، فانما هى قشور ظاهرة وجمال صورى ، ولولا أنه لا يطاع لقصير رأى لاقترحت أن تصلح الحكومة أساليب « التربية » فتجعلها كفيلة بما قصد منها » ولطالما دعا فى عديد من مقالاته الى « الأخلاق التى قعدت بالأمة عن التقدم فى سبيل الرقى » .

* * *

وقد مضى فى الطريق الى نهايته ، فكان قبيل هجرته قد وسع هذه الدائرة توسيعا ، وأولاها اهتمامه ، وأخذ بمنطق « محمد عبده » فى أن التربية هى أساس الحرية وأن المحتلين كانوا حريصين منذ الاحتلال على القضاء على قوة العلم والتربية .

وحاول فى عديد من كتاباته وخطبه أن يكشف عن الفرق بين التربية والتعليم « التبس الأمر على الناس فظنوا ان العلم هو التربية وأن المدارس ما أقيمت الا ليعلم فيها النشء مبادىء العلوم وقشورها والواقع ان هناك بون شاسع بين التربية والتعليم.

وكشف عن الخطأ فى تعليم البنات فقال ان مدارس البنات القائمة لا تكفى الأمة حاجاتها ، ولا تحقق مطالب المرأة باعتبارها

نصف الأمة ، ولا تمكنها من أداء فروضها وتكاليفها ، ولا سبيل الى ذلك الا باقامة مدارس تدور برامجها ونظاماتها ، حول نقطة واحدة ، هى أن يخرج من بين جدرانها أمهات عفيفات قادرات على تدبير أولادهن ، عليمات بتدبير منازلهن ، وتدبير أزواجهن ، وتدبير أنفسهن » .

وكانت دعوته موجهة الى التوسع فى التعليم الزراعى والصناعى ومدارس النسيج .

وكان عمله كله هذا موجها الى غايتين كبيرتين :

١ — [1] تغطية النقص فى برامج مدارس الحكومة ، واعطاء أبناء الفقراء الفرصة للتبريز والنبوغ ، وتوسيع نطاق المناهج ، وخلق روحها الوطنية ، والعناية بالتربية التى أغفلتها المناهج تماما .

٢ — حماية الطلاب من مناهج التعليم الأجنبى التى كانت تهدف فى الغالب الى القضاء على وطنية واسلام التلاميذ الملحقين بها .

* * *

وكان فى خلال هذه الرحلات يستنفر الناس للعفو عن فضلة أموالهم ، وما لا حاجة لهم به من جلود أضاحيهم ؛ وقد أمكنه أن يجمع خلال أيام العيد نحوا من ثلاثمائة جنيه ، وكان من

---

(١) اقرأ خطابه الهام المفصل فى فلسفة التربية والتعليم « أبريل ١٩١١ — مجلة الهداية » .

رأيه أن يعمل ذلك كل عام مضافا اليه ما يمكن جمعه فى رمضان من صدقات الفطر ، لتوجيهها الى خير مصارفها فى سبيل العلم ، باقامة المدارس النظامية المستوفية والمعاهد الزراعية والصناعية والتجارية وأمكنه اصدار قانون الشركة الأهلية الذى وضعته لجنة اصلاح التعليم وهـــدفه تسهيل التعليم على الأهالى بنين وبنات ، مع تحسين التربية حتى تكون للاخلاق واقية . وكان التعليم عنده عمل وطنى بالنسبة للمدرسين لا يأخـــذون عليه أجرا ..

ولوقد أتيح لجاويش أن يتفرغ لهذا العمل وان يقصر نفسه عليه لحقق نتائج باهـرة ، ولكن عمـله السياسى والصـحفى فى المجالين الوطنى والاسلامى ، ومصارعاته للاحتلال ورجاله وأعوانه وهم الذين بيدهم مختلف أمور الدولة كان حفيا بان لا يتيح لهذا العمل التربوى أن يتسع نطاقه ، ويحقق النتائج المرجوة منه .

— ٢ —

وجه « جاويش » اهتماما خاصا فى مجال التعليم الى الأزهر، وخاض من أجله معركة ضخمة ، وألف لجنة الاتحاد الأزهرى ، قاوم فيها الحكومة لموقفها العدائى للأزهر وكان المخطط الذى رسمه الاحتلال هو مقاومة كل محاولة للنهضة بالأزهر فى مناهجه أو شئون خريجيه ، وقد وقع الصدام بين الأزهريين والحكومة مما أدى الى استقالة الشيخ حسونة النواوى شيخ الأزهر ، وتطرفت الحكومة فى مقاومة الأزهريين مما بلغ غاية العنف فسالت الدماء ، وأمر حمادة باشا مدير الأوقاف بجلد الطلبة المعتصمين فى صحن الأزهر وطالب جاويش بمحاكمة مدير الأوقاف ورجال الادارة على ضربهم « من رضوا من الدنيا بجوار ربهم ، وانقطعوا عن الناس فى داره بعد أن أغلقوا أبواب الأزهر » .

وقد واصل جاويش حملته فى هذا الأمر على نحو جرىء [1] وفتحت جريدة العلم صفحاتها وأوسعت لبرقيات الاحتجاجات ومقالات الكتاب .

* * *

وواصل « جاويش » دفاعه عن الأزهر ومطالبته بتطوير نظم التعليم به وكانت جزءا من برنامجه التعليمى الذى واصله

---

(١) العلم ١٨ و ٢١ فبراير سنة ١٩٠٩ .

فدعا الى ادخال جميع العلوم العصرية فى الأزهر ، والحاق مدرسة المعلمين (بالناصرية) ومدرسة القضاء الشرعى به لأن هـذا المعهـــد (الأزهر) يجب أن يكون مصير التربية ، والتعليم الى رجاله ، وان يكون طلابه غير مقصورين على ما يسمونه بالعلوم الدينية ، بل هو المعهد الذى يجب أن يضم بين جدرانه جميع العلوم الشرعية وغير الشرعية ، حتى يكون كله جامعة بالمعنى الأعم وهاجم موقف الاحتلال منه ، وكيف كان عاملا « فى أن يظل الأزهر السنين العـديدة خاويا خاليا من العلوم النافعة العصرية التى سبقتنا الأمم الأخرى بدراستها واستقصاء مسائلها ، حتى أصبح الأزهر وهو فى القرن العشرين معرضا يمثل لزائريه كيف يكون الخمول والجمود ، وأن يبدو طلابه وعلماؤه وكأنما هم بمعزل عن العوالم الحاضرة ولا يعرفون من أمرها الا القليل » وأثار « جاويش » معركة مع وكيل الحقانية عن خطابه فى مجلس الشورى عن قانون الأزهر الجديد المعدل ، وهاجم ما أشار اليه القانون من طرد التلاميذ وعقوبة النفى واعطاء حق تعيين شيخ الأزهر ومشايخ المذاهب للجناب العالى وحده ، وقال : « ليس لسموه من الوقت ما يكفى للنظر فى مصالحه فكيف يستطيع أن يدير هذا المعهد » .

وقال ان من يقرأ بعض هذه المواد يتجلى له ما ينطوى عليه هذا المشروع من روح الاستبداد وترويض النفوس على المذلة والمسكنة والخضوع .

كما هاجم اعطاء شيخ الأزهر وحده حق انتخاب مشايخ المذاهب ومشايخ المعاهد الأخرى وقال « من هو ذلك الشيخ الذى يعطى وهو من بنى الانسان هذا النفوذ والسيطرة ثم يتوقع منه أن يكون قديسا يقيم موازين العدل ؟ ان طبيعة البشر ونزوعهم الفطرى الى الأثرة والاستبداد وحب المصلحة الذاتية والعجز عن استفراغ الوقت فى شئون الغير ، ذلك يمنع كل المنع تخويل فرد مهما كان علمه وعقله أمثال ذلك السلطان المطلق ، ولا يبيح وضع عدة آلاف من الطلاب ورواد العرفان تحت رحمة رجل لا يرى من محاسب له سوى الأمير الذى لا طريق له الى علم أحوالهم وشئونهم سوى ذلك الشيخ .

ولما هاجموه لموقفه هذا ، قالوا له : من يدرى ألا يكون الشيخ جاويش أحد الثلاثة الذين يتم بهم عقد المجلس الأعلى .

فقال جاويش : ان مثل هذه العبارات لا توجه لأمثالنا ، واذا ظن قائلوها انها نفعت مع بعض مشايخ الأزهر فسكتوا مترقبين تحقيق الأمانى التى وعدوا بها فاننا لا نسكت عن اظهار الحق ، ولا يحملنا أى أمر على تضحية المصلحة العامة .. » .

* * *

هكذا كان يمضى جاويش فى مجاله الأوسع ، مجال المعلم من خلال حياته الصحفية والسياسية ، وفى ظل هذا الجو كان يلتقى بالشباب المتطلع من الأزهر موجها اياه للعمل ، ولدراسة الفرنسية عن طريق المدرسة الاعدادية الليلية التى أنشأها وكان يدرس بها للأزهريين ، والتى أمها عدد كبير منهم من علماء وطلبة حتى بلغ

عددهم نحو أربعمائة طالب معدا مشروعه الخاص بارسال بعثات منهم الى أوروبا [1] .

وفى ظل هذا المجال الواسع الذى فتحه « جاويش » لشباب الأزهر التقى به الشاب الكفيف « طه حسين » فأفسح له مجالا الكتابة فى مجلة الهداية .

* * *

وقد صور طه حسين اتصاله بجاويش فى هذه السنوات ١٩١٠ ، ١٩١١ . وقال انه كان متأرجحا بين مذهبين . هما مذهب « الاعتدال والقصد » وهو مذهب لطفى السيد ومذهب « الغلو والاسراف » وهو مذهب جاويش ، وقد كتب طه حسين هذا عام ١٩٥٥ [2] بعد خمسة وأربعين عاما ، وبعد أن سافر الى أوروبا وأقام بها وتحول تفكيره تحولا شاملا ، وعاد يعمل مع الأحرار الدستوريين خلفاء حزب الأمة وخلف هو لطفى السيد فى مذهب الاعتدال والمحاسنة ، فهو اليوم يرى مذهب جاويش غالبا ومسرفا بعد أن انحرف عنه ، أما يوم كان يجد عن طريقه فرصة الظهور والتبرير ونقد أساتذة الأزهر الذين اختلف معهم وترك من أجلهم الأزهر الى الجامعة القديمة ، فقد كان الأمر بالنسبة له غير ما يتصوره الآن ، والمعروف ان الفرق بين مذهب جاويش ومذهب لطفى السيد هو الفرق بين حزب الأمة والحزب الوطنى وبين محاسنة الانجليز التى كان يدعو اليها لطفى السيد وحزب الأمة

---

(١) مجلة الهداية ص ١١٥ م ٢ .

(٢) مجلة آخر ساعة سنة ١٩٥٥ .

وصحيفة الجريدة وخصومتهم وهى دعوة الحزب الوطنى وجاويش قائد لوائها .

غير ان « طه حسين » لم يلبث أن ذكر فضل « جاويش » فقال : « على أن فضل الشيخ عبد العزيز جاويش على الفتى (طه حسين) لم يقف عند هذا الحد بل تجاوزه فأمعن فى تجاوزه ، فهو الذى عرّف الفتى الى جماهير الناس ، ودفعه بين أيديهم ذات صباح منشدا للشعر كما كان يفعل الشعراء المعروفون (وحافظ منهم خاصة) فى بعض المناسبات ، .. ثم لم يقف الشيخ عبد العزيز بالفتى عند هذا الحد ، ولكنه علمه الكتابة فى المجلات فقد أنشأ مجلة الهداية وطلب الى الفتى أن يشارك فى تحريرها ثم ترك له الاشراف على هذا التحرير ، وكان له الفضل كل الفضل فيما تعلم الفتى من اعداد الصحف وتنسيق ما ينشر فيها من فصول ، ثم أضاف الشيخ الى كل هذا الفضل ، فضلا آخر وقع من نفس الفتى موقع الماء من ذى الغلة الصادى أرضاه عن بعض حاله وأكبره من نفسه شيئا ، وأشعره بأنه قد أتيح له أن يجلس مجلس المعلم ، فقد أنشأ الشيخ جاويش مدرسة ثانوية ، وكلف الفتى أن يعلم فيها الأدب على ألا ينتظر على ذلك أجرا ، فالمدرسة « عمل وطنى » لا أجر عليه لمن يشارك فيه ، ولم يكن الشيخ يفيد من هذه المدرسة شيئا ، وربما أنفق عليها من رزقه ، وكلف نفسه فى سبيل ذلك شيئا من الحرمان ، وربما ألح على بعض الأغنياء وأوساط الناس حتى استكرهم على أن يعينوه على نفقاتها ببعض المال ، ثم لم يلبث هذا كله أن انقطع فجأة وصرف الشيخ

عنه بأحداث السياسة ، ثم اضطر أن يهاجر من مصر على غير انتظار لهجرة .. وهو على كل حال قد أعان الفتى على الخروج من بيئته تلك المغلقة ، الى الحياة العامة ، وعلى أن يكون له اسم معروف .. » .

وما صوره « طه حسين » ما هو الا نموذج لما فعله جاويش مع عشرات من الشباب المتطلع الطامح الذى كان يرغب فى أن يعده للوطن ، وقد اعترف طه حسين بأن « جاويش » هو الذى وجهه الى أن يعبر البحر وزين له ذلك ، ودفعه الى تعلم الفرنسية .

وكان هدف جاويش من ارسال بعثة أزهرية الى أوروبا من نوابغ الأزهر هو أن تتزود بالمعارف الحديثة ثم تعود فتتولى مناصب القيادة والتوجيه وتغير أنظمة الأزهر على نحو يدفعه الى التطور ومسايرة معاهد التعليم الكبرى ، وقد شقى من أجل مشروعه هذا ، فجمع له المال ، فقد كانت البعثات تسافر من كل المدارس ما عدا الأزهر وقد انقطعت أسبابه عن الحياة والمعرفة « ثم بعد الأمر على الأزهريين فجمدوا على ما هم عليه من جفاء العلم ، حتى قام بعضهم فأعلن كفر من دعا الى تعليم الرياضة والتاريخ وتقويم البلدان ، وأفتى بعضهم بحرمة السفر الى أوروبا الا لتعلم علم نافع غير موجود فى بلادنا » وكان قد أم المدرسة الاعدادية الليلية كثيرون من الأزهريين بين علماء وطلبة (٤٠٠ طالب ، ٢٠ عالما) ولكن ما لبثت مؤامرات الاحتلال أن أحاطت بالمشروع ، وثبطت الهمم ، وروجت الشبهات حول المدرسة ، ووصل الأمر الى الحد الذى اضطرب له جاويش نفسه ،

وهدد الأزهريون بقطع مرتباتهم ، مما اضطر بعضهم الى العدول عن اتمام الدراسة ، ثم تناقص تدريجيا ، ومضى جاويش بمشاركة اسماعيل شيمى وفؤاد حسيب فى اعداد (الارسالية) ، وتقرر أن يكون الزى وسطا بين الشرقى والأوروبى ، فاختار لهم العمـامة العالية مع البذلة الافرنجية ولا شك كان الغرض من البعثة — كما صوره جاويش — عملا رائعا وهو « تكوين رجال يرجعون الى مصر وقد استقوا العلم من مناهله ، ليصلحوا من فئتهم ما بها من الأمراض وليخرجوا هذه الأمة من جمودها ، وقد رأيت من التاريخ الطبيعى ، ان الأشياء تزيد وتنقص من داخلها لا من الخارج ، رأيت أن أبذر فى مصر من الأزهريين رجالا فأرسلهم الى حيث يبلغون العلم الصحيح ليرجعوا لنا وقد جمعوا منه ما يمكنهم أن يدرسوه لأمثالهم الأزهريين ، وقد لاقينا مشقات جمة فى سبيل جمع المال ، ولكن آلينا على أنفسنا أن نخدم هذه الأمة خدمة صادقة غير منتظرين من ورائها جزاء ، ان الأزهر وقد كان مقفل الأبواب فى وجه كل علم عصرى ، يسعى اليوم أن يتخلص من هذه القيود التى تقيده » . وقد أشار جاويش الى أنه اقتفى فى ذلك أثر الشيخ محمد عبده فى اصلاح الأزهر .

وقد تكونت البعثة الأولى من : علـى الشهداوى ، محمـد مصطفى التونسى ، محمد مصطفى رزق ؛ وكانت على حساب الأمـة مباشرة ، فسافرت فى ٢٦ فبراير ١٩١١ ، وسـافر معها جاويش الى مونبلييه (فرنسا) « سافرنا معهم اذ آنسنا منهم الحاجة الى معين خبر آداب القـوم وعاداتهم ومواضـعاتهم

العامة ، فلما وصلنا الى مستقرهم لم يبيتوا فى الفندق الا ليلة واحدة ، ثم عدونا بهم الى مدرسة المعلمين فبوأنا لهم بها المساكن ، وقضينا لهم ما يريدون من المآرب والحياج — ولبثنا فى مدينة مونبلييه أسبوعا نزورهم فيها ونؤدى لهم ما يحتاجون اليه حتى اطمأنوا وارتاحت نفوسهم » .

وأشار « جاويش » فى رسالة منه الى « العلم » من ليون [1] الى أنه استهدف الوقوف على أساليب التعليم الحديثة ليطبقها فى الجامعة الأزهرية التى تضم نحو ١٤ ألف طالب حتى تصبح جامعة عصرية بالمعنى الصحيح وحتى يعرف ان المصريين يعتمدون فى سبيل استقلالهم على أنفسهم قبل كل شىء .. » .

وقد كان يمكن أن يمتد هذا المشروع وتتسع آفاقه لولا أن الاحتلال كان قد وضع كل العراقيل المثبطة لتحطيم هذا المشروع حتى يبقى الأزهر فى جمود وعزلته بعيدا عن دائرة الحياة ..

---

(١) العلم — ٢٢ مارس سنة ١٩١١ م

توقف هذا العمل الكبير عندما هاجر جاويش فى أوائل ١٩١٢ وكان قد أوشك أن يؤتى نتائج طيبة ، فان « بناء الأمة » على أساس التربية ، كان عملا خطيرا بعيد المدى فى مقاومة الاحتلال والقضاء عليه وهو ما كان يؤرق المحتلين ويدفعهم الى تضييق الخناق على جاويش بالمحاكمات والسجن والمراقبة ، حتى لا تكتمل هذه الأعمال وتأخذ طريقها الى الحياة وتحقق النتائج .

وقد صور أحد تلاميذ جاويش أثره النفسى على جيله ، ذلك هو « أحمد وفيق » الصحفى المحامى فقال [١] : « كانت كلمات الشيخ كالكهرباء فى علاج النفوس فقد رأينا الشباب ، وقد قوم من جانب ضعفه ، ضعف الانغماس فى الملاذ والشهوات ، وتعرف كيف يكبح جماحه ، ويقتاد نفسه فى سبيل الدرس والتحصيل ، والعناية بشئون بلاده ، من غير تفريط فى ذاك ، أو افراط فى هذا ، وتفهم أن الروح الجميل ليس دائما أبدا صنو الجسم الجميل.

من أجل هذا رأينا شباب تلك الأيام قد عكف على وضع دراسة ذاته فوق كل دراسة ، حتى يصل الى تعرف أهم المعلومات الحيوية الدقيقة عن نفسيته قبل كل معلومات أخرى ..

---

(١) العلم — ١ فبراير ١٩٢٩ .

كان ذلك أول أثر من آثار ما رسخ فى أذهان شباب ذلك العهد من تعاليم « جاويش » كانت نظرتهم الى داخل نفوسهم هى أول ما دعاهم ليعرفوا مصدر النعيم الذى لا ينفد ولا يغيض . ثم غرس لديهم أنبل وأجل شهوة .. سار الفقيد بالشباب فى مرتقى أدبى حر ، من غير وجل ولا خوف ، الى أن وصل بهم الى القمة النقية الهواء ، فعلمهم هناك كيف يكون العمل على رفع الكرامة الانسانية للغنى والفقير ، للحقير والأمير ، وذلك بتوفير الشرط الأساسى لذلك للعمل وبذل الجهد ، هذا الشرط هو أن يكون للانسان نية حازمة فى تحرير نفسه والخلاص من كل ما يعوق حريته .. » .

وقد ترك جاويش هذا الأثر الذى كان يمكن أن يصل الى أبعد المدى لولا ان فرضت عليه الهجرة فأمضى بها اثنى عشر عاما ، وعاد وقد تحول وجه الوطن وفكره ، وظهرت تيارات جديدة وأحزاب ، وتخلى الاحتلال عن مسرح الحوادث ، وتركه لقوى من أنصاره وخصومه تتصارع ، ولكنها جميعها لا تحمل صورة الحركة الوطنية القديمة ، وان كانت تحمل مفاهيمها فى أعمق أعماقها .

وعاد « جاويش » ١٩٢٣ الى العمل من أجل الهدف الكبير ؛ هدف بناء الأمة ، مرة أخرى ..

كان جاويش بعد أن عاد من انجلترا ، سنة ١٩٠١ يعمل معلما فمفتشا فلما عاد بعد الاستقلال وفتحت وزارة المعارف باب اصلاح

التعليم الالزامى ، اختير مراقبا عاما للتعليم الأولى ، ولما وضع مشروع قانون التعليم الالزامى ، وعقد مؤتمر التعليم الالزامى الأولى ، شارك جاويش فيهما ، وبدأ مرحلة جديدة فى هذا العمل الذى أحبه ، والميدان الذى كان حفيا بأن يقدم له كل جهده .

وربما كان يرى بعد أن تبددت الآمال السياسية ، وتحقق استقلال مصر على هذا النحو ، انه يستطيع أن يهب كفايته لوطنه فى هذا المجال فتتحقق آمال الوطن عن طريق نشر العلم .

وعنده [1] ان تاريخ التعليم الأولى فى مصر فى العصر الحديث قد بدا عام ١٩٠١ أو قبل ذلك بعامين ، وقد ضوعفت الجهود التى بذلت فيه بعد ذلك بأربع سنين « فانى لما عدت من انجلترا كانت بداية الحركة التعليمية وكانت وزارة المعارف قد أنشأت فصول الخميس والجمعة ، وفى هذه الفصول كان يحشر الفقهاء والعرفاء القدماء لتعليمهم ما لا غنية لهم عنه من طرائق التعليم ، ومن المعلومات الأخرى على قدر ما يتسع الزمن ، اذ لم يكونوا يعرفون الا القرآن الكريم .

ولقد أنشئت هذه الفصول ، وكان لى الشرف ان كنت من العاملين على انشائها والى المتعلمين وضعت كتاب « غنية المؤدبين » .. ثم مضت منذ ذلك الحين فترة كبيرة قضيتها بعيدا عن الوزارة ، وقال ان مدرسة المعلمين بشارع عبد العزيز

(١) ٢٠ يوليو ١٩٢٥ ـ الأهرام .

عام ١٩٠٤ كانت تخرج معلمى الكتاتيب ، وقد كان المعلم [1] الذى تحتاج اليه مصر يكفيه أن يعلم ألف باء ، هـذه حقيقة محزنة وفى تلك السنة وضعت برنامجا لمدرسة معلمين مدتها ثلاث سنين ، وأثبت الزمن صلاح المدرسة الجديدة ، وعلى نسقها تنشأ مدارس المعلمين .

ولقد كنت أشعر دائما بالحاجة الى ما أسميه مدرسة عاملة ، هذه المدرسة التى يتعلم فيها أكثر من فئة واحدة ، حتى لا تنصرف الأيدى عن الزراعة أو الصناعة وقد أسهمت فى تطبيق هذه الخطة ، وقد كانوا يقولون ان هذا عمل غير منتج ؛ وكان علينا أن نكافح تلك الفكرة الخطرة وأن نحبب الى عقول الناشئة العمل مستقلين ؛ وأن ندربهم على ذلك ، ونتشىء فيهم خلال الرفعة والعزة وأن نقتلع من صدورهم بذور الرذائل الاجتماعية كالملق والشعور بالهوان والنفاق وغير ذلك من المبادىء .

أجل ان أهم ركن من أركان التربية أن ندرب الانسان على أن يفهم دائما انه انسان ذو كرامة ، وانه يجب أن يحتفظ بكرامته تلك فلا يعرضها للامتهان ، وأن يكون مستقل الرأى ، معتمدا بعد الله على نفسه ، غير متكل على معونة خارجية ، لأن انتظار

---

(١) أشار جاويش فى أكثر من مناسبة الى انه بعد عودته من انجلترا تأسست مدرسة عبد العزيز لتخريج معلمين وكان برنامجها عاما واحدا فكتب تقريرا يطلب جعل برنامجها ثلاثة أعوام فكان جواب دنلوب له : صح عنـدى أن غيبتك عن مصر وضعتك فى موضع المغالى فيما يطلب لقومه ، أمتك يكفيها معلم يستطيع أن يعلمها الف باء ومبادىء الحساب » .

هذه المعونة يبعث فيه دائما أنه لا يصلح أبدا أن يكون مستقلا ، ان محترفى الحرف المختلفة كالحدادة والطهى وسياقة العربات ، كل من يجيد صناعة منهم يشعر انه فى غنى ، وأنه ينبغى أن يكون دائما مطلوبا لا طالبا . فلا يذل ولا يخضع ولا يسمح لشخصيته أن تفنى فى شخصية غيره ، ذلك ما ينبغى أن يكون ركن التربية ، وأذكر أننا أحببنا أن نأتى بتجربة جديدة فى بابها ، فأتينا ببضعة تلاميذ من بولاق والقلعة وسيدنا الحسين ، وكانوا نحو عشرين من كل حى ووضعناهم فى مصنع ومن الذين أرسلناهم رجل ذو لحية كثة لا أذكر اسمه لسوء الحظ ، وهو فى الحى الحسينى وهؤلاء هم الذين فتحوا أكثر المصانع الموجودة الآن ، ولكن هذه التجربة لم تدم الا ثلاث سنين أو أربعا ، تقولون القراءة والكتابة ، كأن القراءة والكتابة هما وحدهما كل شىء . انهما ليستا أكثر من وسيلتين أما الغاية فمعالجة الحياة ، والتغلب على صعابها ، القراءة والكتابة لا يكوّنان الأمة ، انما الذى يكونها هو الخلق المتين ، خلق العزة والرفعة والشعور بالكرامة الشخصية وقد تكون هاتان الوسيلتان أشد خطرا من الأمية ، انكم تعلمون ان العلوم كلها هى بمثابة الغذاء للنفس ، والغذاء لا ينتفع به الا الجسم السليم من الأمراض ، فاذا كان الجسم مريضا كان الغذاء له غذاء لمرضه ، واذا كان سليما زاده الغذاء قوة على قوة ، وكلما زدت المريض دسما زدته ضعفا وسقما .

لقد مضت سنوات عديدة وسياسة التعليم محصورة فى جمع الأولاد من المزارع والمصانع ، وكانت سياستنا تكليف التلميذ

أن يكون أفنديا ، ولذلك كرهوا تفقد الزراعة ، وتنقية الدودة ، ولم يعودوا يعرفون الا لبس الطربوش ؛ والتماس الرزق بالوسائل القبيحة ، وملئت الشـوارع بالمتسكعين والمنافقين ؛ والعاطلين والضائعين ، وبعد ذلك نقول اننا أمة وهؤلاء الناس منا .

ان الذى لا يعرف حالتنا الخلقية فى كل مكان عليه أن ينظر لأحضان السجون ، فانظروا اليها ثم ابكوا . نعم يا اخوانى انى رأيت بنفسى ، ورب ضارة نافعة ، رأيت فى حبوسى واعتقالاتى ما يبكينى ويحزننى ، ويزيدنى يقينا بألا نكون أمة الا اذا بنينا من الأساس ، فانقض أولا وابن بعد ذلك ؛ أما الذى يبنى على العاهات فلا فائدة فيه ، ولقد أصبح الأمر بيد الأمة الآن ، أريد أمر التربية خاصة ، فان الفرصة متاحة ودانية ؛ انكم لتعلمون ان تفشى الأمية بالشعب المصرى كان مصدر الآلام ، كما كان كذلك فى كل أمة من قبل ، ولقد جاء الدستور داعيا لمعالجة هذه الحالة فجعل التعليم اجباريا . لابد من التوسع فى مكافحة الأمية حتى تبلغ المستوى اللائق ، ان الأمية ليست ألد أعدائنا ولكن ألد أعدائنا هو انحطاط الخلق ، وتعطل اليد عن العمل . ومحصل القول ان التجاريب علمت الأمم التى سبقتنا ألا تقتصر عـلى ارضاء العقل عن طريق الأذن والعين ، بل لابد من أن تكون هناك مساعدة من اليد ، لقد طغت بعض المديريات فى الفترةالأخيرة ، وجابهنى بعضها بالتمرد على فكرة نشر التعليم الأولى ، فلما وصفت لهم سوء حالتهم خشعوا أو سمعوا . ان لسياسة التعليم الاجبارى طريقان : الاجبار التدريجى : والاجبار العاجل بعد توافر جميع

الشرائط ، وأنا أميل الى الاجبار التدريجى ، أميل اليه لأنه يدع الأمة تشعر بحاجتها الى التعليم .

وأوجه الالتفات الى أمر ذى بال ، هو ان الرياضة البدنية ضروزية جدا ولا يقال ان الاشتغال بالزراعة يغنى عنها ، فقد وجد الزراع فى الدانمرك ، والسويد مصابين من جراء مداومة اشتغالهم بالزراعة بعاهات خاصة ، لأنهم يكيفون أجسامهم تكييفا خاصا .. » .

* * *

هكذا وضع « جاويش » خطته عام ١٩٢٥ للعمل ، غير ان الزمن لم يمهله طويلا ، فان السنوات الأربع التى أخذ يعمل خلالها لم تكن كافية لتحقق هذا العمل ، لقد عاش هذه الفترة مسافرا الى كل مكان فى القطر ، زائرا المديريات المختلفة ، منحدثا وباحثا ومراجعا منشئا للفصول الجديدة ، معدا للمربين والمدرسين ؛ حاملا معه كل هذه المفاهيم التقدمية الرائعة ، وخاصة مفهومة عن التربية ، ولقد حدثنى « أسعد جاويش » انه فى الفترة الأخيرة من حياته كان قد أحضر فى مكتبه بالوزارة « مغازل » لتنفيذ مشروع كبير يرمى الى أن يغزل كل طالب من ١٠ الى ١٢ مترا يوميا ، وقد وقف المشروع بعد وفاته بالطبع كما تحول كل هذا المنهج وسقط نظام التعليم الأولى فى أحضان سياسة الغزو الثقافى وأساليب الاحتلال التى كانت ممتدة النفوذ على أيدى أتباعه .

وفى يقينى ان هـذا الأسلوب من العمل قد انطوى بوفاة جاويش ، وان قوة النفوذ الأجنبى الذى كان يشرف عليه خلفاء

دنلوب ومعهم أتباع السياسة الانجليزية فى أسلوب التعليم ومنهجه ، قد سيطرت وطغت وآية ذلك ان قضى على تعليم القرآن وجعلت دراسات الدين اختيارية .

أما التربية على النحو الذى كان يفهمه جاويش ، ففى ظنى انه لم يطبق ، فقد كنت تلميذا فى هذه الفترة بالمدرسة وعشت فى المناهج التى صنعها الاحتلال قبل الاستقلال ، والتى مضى ينفذها من وراء ستار ليخلق جيلا لم تصنع فيه المدرسة الخلق ولم تلقنه مفاهيم الكرامة ، مما كان جاويش يطمع فى أن ينفذه ، لقد حاول الرجل أن يعمل فى ختام حياته ، ولكن القلب الذى أجهدته مشاق الهجرة والسجون ، ومؤامرات السياسة لم يلبث أن توقف ، فى مجال الجهاد كالشهيد .

— ٤ —

المصلح الاجتماعى

أولى « جاويش » الاصلاح الاجتماعى اهتماما بالغا ، وصرف همه اليه بالفكر والعمل معا ، وكان ايمانه بأن « وسائل الاستقلال هى اصلاح التعليم واقامة المصارف المالية ، وتأسيس الشركات الاقتصادية ، وطلب الدستور »[1] .

ولذلك عول على أن يتحدث الى الناس فى هذا ، وأن يعمل مع رجاله وأن يكتب فيه فهو منشىء جمعية المواساة الاسلامية التى كانت تعول مائتين من الأسر ووكيل نقابة المستخدمين الخارجين عن هيئة العمال ، ووكيل جمعية الشبان المسلمين ورفيق عمر لطفى فى توسيع مشروع نقابات العمال والنقابات الزراعية وقد ذكر ذلك أكثر من مرة ، فقال فى ١٩٠٨ : أسست أول جمعية فى القطر المصرى للعمال أنا والمرحوم اسماعيل شيمى ، حاول المعاصرون أن يلبسوا عملنا هـذا ثوبا سياسيا ، فأسندنا تدبيرها الى ناظر مدرسة الفنون ولا تزال قائمة . وشارك فى انشاء شركات التعاون المنزلى والتعاون المالى ، وكان فى خلال أسـفاره الى عواصم

---

(١) من خطابه ٢٣ ابريل ١٩١١ — العلم .

المديريات ؛ لا يكتفى بالعمل على تكوين هذه الجمعيات بل يحرص على أن يوجه الناس الى الاستقامة فى المعاملة ونبذ أسباب الشقاق ولقد لقى من المتاعب فى هذا السبيل ما لقى ، وكان دائما موضع مراقبة الاحتلال وكانوا يحصون عليه أنفاسه .

وقد وسع على نفسه فى السنوات الأخيرة قبل هجرته فى هذا المجال ، حين رأى ان العمل فى مجال التعليم والاصلاح الاجتماعى أجدى كثيرا ، فطاف البلاد يلقى المحاضرات ويؤسس الشركات . وسجلت له صحف اللواء والعلم والشعب محاضرات متعددة فى كل مكان وكان أمله كله أن يحصل من الغنى على ما يرفع شأن الفقير وأن يجمع فضل المال من السراة لينشىء به من المشروعات ما يحل مشاكل الأمة ، ولقد كان يحاول أن يقتنع ذوى اليسار بأن الاحتلال أهمل الشعب ، ولابد من أن تعمل طائفة من الناس لرفع مستواه ، « وان سبب الاهمال هو اعتقاد الغنى ألا حاجة به الى الفقير فلا يعنيه أمره » ولطالما نعى على خصوم الأمة جمودهم عن مساعدة الشعب على تحقيق مشروعاته فى مجال التعليم والتعاون والنقابات العمالية والزراعية وفى هذا يقول « هل بعد ما تبين ما يقترفه أولئك الجهال الوارثون من ضروب المفاسد حاجة الى مثال نضربه للناس ، ليعلموا كيف تفنى الأموال ، وتشقى الرجال ، ويسرع الخراب الى القصور ، ومقاصير الخدور ؟ ألا فليعلموا انهم اذ جاءوا بشىء من مالهم فى سبيل البر والاحسان فانما مرد ذلك اليهم ، ومصيره اصلاح

أولادهم ، لقد أرينا هذه الأمة أن الغاصبين يحاربوننا بسلاحين : العلم والمال » [1] .

وكان دائما يقول : سنستنفر همم أهل البر ونستنهض بنشرها ذوى اليسر وأصحاب الفكر .

ولقد كان يعرف مشكلتنا الحقيقية التى يحاول أن يوجد لها الحل « ان غرضنا هو بذل الجهد فى تربية جميع الطبقات ، ونشر مبادئنا بكافة الطرق المشروعة ، حتى نصل الى تكوين الروح القومية الحقيقية والمناضلة ضد تداخل الانجليز فى أعمال الحكومة » ان فى مصر سبع ملايين من الأفدنة المرروعة أغلبها مرهونة لدى مصارف معظمها انجليزية ، وزيادة على ذلك فالأغنياء قليلون ، وفى الوقت الذى يراد فيه اقامة مصنع للقطن فى وادى النيل نرى بريطانيا تحارب أصحابه بضرب الضرائب الفادحة التى تصعد بأثمان منسوجاته حتى تساوى نظائرها الواردة من بلاد الانجليز » .

ومن أجل هذا كانت دعوته الى ترابط رءوس الأموال الصغيرة والى انشاء مصرف وطنى .

ووجه عنايته الكبيرة الى المسجونين [2] فقد أتاحت له تجربة السجن أن طالب بأن يختار لكل سجن رجل من أهل النظر والورع والعلم فيعين به ليأخذ بالتهذيب والاصلاح أولئك المسجونين

---

(١) العلم ــ ٢٠ ديسمبر ١٩١٠ .

(٢) اللواء سبتمبر ١٩٠٨ .

الذين امتلأت نفوسهم بالعلل ، وقلوبهم بالمرض ، وعقولهم بالضلال . وقال جاويش : ان عدد الحشاشين قد بلغ فى سجن المحافظة نحو عشرة آلاف ، وهو عدد لو تألف منه جيش ، لرد الغارات وهزم الأعداء .

ثم عاود هذا الأمر فقال : « (۱) فى مصر يحشر المجرمون وغير المجرمين فى سجون واحدة يمتزج فيها السياسيون الشرفاء وأصحاب الجرائم والمفاسد والأخلاق الدنيئة ، وان اختلاط الأفراد الفاسدين مفسد لأخلاق الطاهرين ، ولا سيما الأحداث والبسطاء والأغرار » .

واهتم بأذى الخمر ومضار المسكرات ، فألف كتابه « أذى الخمر ومضاره » وقد أولى اهتمامه الكبير لأمر الأسرة والبيت والمرأة . وكان من أنصار المرأة ولطالما نادى فى خطبه ومحادثاته بوجوب انشاء فرق فى المعاهد الدينية لتعليم المرأة الدين والعربية ؛ وكان من رأيه أن تدخل المرأة الأزهر ، يقول الشيخ محمود أبو العيون انه وجده متحمسا لهذا الرأى ، ويتحدث عنه باحساس عميق وقد أجرى مع جاويش حديثا فى هذا الصدد وقال أبو العيون ان المدارس تكفى فى تعليم الفتيات ما يكمل دينهن ويثقف خلقهن ، ويهذب عقليتهن واعترض « جاويش » على ذلك بأن هذه المدارس مدنية لا تعلم الدين بل مفسدة ، أما الأزهر فهو كفيل بتخريج نساء يعرفن الدين والتربية والخلق .

---

(۱) ۳۰ نوفمبر ۱۹۰۹ — اللواء .

فلما سأله أبو العيون عما اذا كان من الممكن تهذيب برامج المعارف لتعليم الدين والأخلاق فى مدارس الحكومة لتكون محققة للغرض الذى تنشده وأنت من رجالات التعليم فى وزارة المعارف ، أجابه جاويش فى صراحته المعهودة التى لا تخشى شيئا :

ان يد التخريب تلعب فى الوزارة من وراء الستار ، فالمحاولة فى سبيل الاصلاح الاجتماعى عن طريق الدين والخلق عبث وضلال أما الأزهر فقد يكون بعيدا عن الأيدى اللاعبة .

* * *

ولقد طالما تحدث جاويش فى مؤتمرات ضخمة قوامها أكثر من خمسة آلاف فى قلب القاهرة وعواصم المديريات (المحافظات الآن) عن اصلاح الأسرة ورفع شأن المرأة ، ودعا الى بناء الأسرة على الأسس السليمة ، وهاجم عدم تحقق الشرائط التى تحقق حسن العشرة بين الزوجين وأنحى باللائمة على رغبة الرجال فى الزواج من المرأة ذات المال وذات الجاه والاعراض عن ذوات العفة والدين والخلق ، وما يجره هذا من متاعب ، أو تزوج الشيخ بالناهد الكاعب ، أو عدم معرفة أهل الأسر لحدود واجبات كل منهم ، وما يناسب كل فرد من أفراد الأسرة من التكاليف ، وما ينبغى أن يؤخذ به الأطفال من أنواع التربية أو انصراف الآباء عن البيوت طوال النهار دون تصريف شئون أبنائهم أو تعدد الزوجات من غير تحقق شرائطه الشرعية ، كما هاجم التزوج بالأجنبيات ، وصور ما يقع من خلاف فيما يتعلق بالتنازع بين الأب والأم حول الثقافة والدين ومفاهيم الحياة . وعنده « ان الكتابيات

اللائى يجلبن من البلاد الأجنبية كفرنسا وانجلترا ونحوها ينشأن على ما نعلم من حب دينهن وبلادهن وجنسيتهن ، وشدة تمسكهن بمبادىء أقوامهن ، فهل يرجى أن ينشئن أولادهن من أزواجهن المصريين على المبادىء الوطنية الصحيحة ؟ اننى لا أرانى فى حاجة الى الاستدلال على أنه لا يكون شىء سليم فى بيت رئيسته أجنبية تحتقر البلاد وأهلها ولو كان منهم زوجها » [1] .

كما دعا الى تحرير الفتاة من البرامج المدرسية المضطربة ، وأعلن أن التربية الصحيحة ليست هى حشو الأدمغة بمختلف المسائل ، ولكنها كما قال علماء التربية أن يثقف العقل حتى يمكنه أن يتجه الى المعلومات فيزنها بميزان الاعتبار ويمعن فيها حتى لا تخفى عليه دقائقها وأن تهذب النفس بالأدب وجميل الخلال وأن يعود الشخص العزيمة فى الرأى حتى يستطيع أن يصرف قواه العقلية والجسمية فى أحسن سبلها » وعنده ان « المرأة لم تخلق لتكون متاعا فى يد الرجل يتناوله متى أراد وينبذه كيفما شاء ، انما المرأة سلوان الرجل ومعوانه على الدهر ، فتسكن اليه اذا ما سكن اليها ، وتخدمه اذا ما أقبل عليها » .

وأشار الى أن « المرأة المسلمة » هى المرأة الطبيعية الفطرية التى ضمنت لها أحكام « الاسلام » نفقاتها وأسباب حياتها ، ثم أخلى لها وقتها لتجد لها ندحة تتمكن فيها من أداء فرائضها الاجتماعية مطابقة لحالتها الطبيعية ، وقال ان الذين وضعوا

(١) مجلة الهداية سنة ١٩١١ م .

برامج مدارس البنات لم يقدروا ما يلزم المرأة من أنواع التربية فان الفتيات يخرجن من هـذه المدارس « معقودات اللسان ، عاطلات اليد ، مبغضات لكل ما له علاقة بتدبير المنزل ؛ ولابد من أن تثقف الفتاة فى أمور تدبير نفسها ومنزلها وولدها ، وليست التربية الصحيحة هى حشو الأدمغة بمختلف المسائل ، ولكنها كما قال علماء التربية أن يثقف العقل حتى يمكن أن يتجه الى المعلومات فيزنها بميزان الاعتبار ، ويمعن فيها حتى لا تخفى عليه دقائقها وأن تهذب النفس بالأدب وجميل الخلال ، ان الخبيرين بطرق التربية فى مدارس الحكومة وغيرها لا يستطيعون أن ينكروا علينا انه لا أثر فيها للتربية انما هى ترويض وتذليل للنفـوس بتعويدها الخـوف والخنـوع ولو بالباطل والتسليم بما يقال ولو كان كذبا ، وبذلك تؤخذ البنات فى مدارس الحـكومة » ووصل الى أن الغاية من تربية الفتاة تتم عن طريق دراسة كتب الدين واصلاح أعمال الناشئات بالقدوة الحسنة والمثال الصالح ولا ثالث لهما ودعا الى الاصطلاح على أزياء خاصـة وأشكال تمتاز بها المرأة ، ووضع برنامجا شاملا لتعليم الفتاة وتربيتها وجه الاهتمام فيه الى علم وظائف الأعضاء وقوانين الصحة العـامة والتدبير المنزلى وقوانين الصحة الشخصية والاسعافات الأولية ودروس الخياطة والطباخة والنسج ؛ وقال « ليس ذلك لأننا نريد أن نستخدمها طاهية أو خادما ، ولكننا نقصد أن يكون منها رقيب يحاسب الخادمات والطاهيات اذا قصرن فى أداء وظيفتهن .. » .

وعارض [1] جاويش زواج المصريين بالأجنبيات وقال انه من العسير أن يكون أبناء الزوج تابعين له دينا موافقين له عادة وخلقا ومتشبعين بما فى نفسه من المبادىء التى يعتقد انها قويمة صحيحة ؛ ثم أشار الى تجربة له فى هذا الصدد خلص منها أى أن الزواج بالأجنبيات لا يحقق السعادة الحيوية .

وقد أولى « جاويش » اهتمامه للمرأة المثقفة فأفسح لها فى مجلة « الهداية » حيث كتبت « لا لا » قاسم الشماخية فى تحرير المرأة ، وأنشأ هو فصلا طويلا عن كتاب النسائيات لملك حفنى ناصف (باحثة البادية) ودعا « الى ترجمة آثارها الى اللغات الأجنبية ليقرأها الأوربيون ولا سيما نساؤهم ، الذين يعتقدون اننا اليوم على ما كانت عليه جاهليتنا وقال ان ذلك الأمر سيكون له أثره الواضح فى العالم المتحضر .

وقد حوت مجلة « الهداية » فصولا متعددة عن الاصلاح الاجتماعى ، ذات طابع علمى كان يوقع عليها باسم « الاجتماعى » كما تناولت كثيرا من قضايا علم النفس الحديث ومسائل الاصلاح والعمران .

---

(1) ٩ أبريل ١٩١١ – العلم .

— ٣ —

المجدد الإسلامى

أعطى « جاويش » دراسات الاسلام جانبا كبيرا من جهده ووقته ، واستطاع أن يصل فيها الى الذروة ، سائرا فى نفس الطريق الذى رسمه الشيخ محمد عبده ، وكانت آراؤه ناضجة ، سمحة تعطى الاسلام انطلاقته فى مجال الحياة ، وتحل مشاكل المجتمع مع الحضارة والتطور ولا تتعارض أبدا مع القيم الأساسية .

ولقــد كان عمل « جاويش » فى هذا المجال شــأنه فى كل مجالات فكره وعمله ، وهو مواجهة « المعركةالتىتتطلبالدفاع » ، فقد واجه الاسلام خصومات عنيفة من أهله ومن خارج أهله ، فكان لابد لجاويش أن يصحح مفاهيم الاسلام ، وأن يرد على خصومه وأن يفسر آياته بما يوافق روح العصر ، وأن يهاجم الأمراء والعلماء المنتسبين للاسلام وهو فى دعوته الى الأخــذ بالشريعة يطالب بمراعاة الزمان والمكان ولقد أتاحت له أسفاره ودراساته لقاء الكثيرين من الشباب والمثقفين ممن دارت بينــه وبينهم مناقشات طويلة عن الشرق والاسلام فوجد « من [1] خلال أحاديث القوم انهم لا يكادون يفقهون للاسلام معنى ؛ ســوى

---

(١) مقدمة كتابه « الاسلام دين الفطرة » ٢٣٢ .

انه دين الاسترقاق والطلاق وتعدد الزوجات وأن المسلمين يعبدون محمدا كما يعبد النصارى المسيح بن مريم » .

فكان ذلك مجاله لأن يكشف عن حقائق الاسلام فى أحاديث ومحاضرات ومؤلفات أهمها كتابه « الاسلام دين الفطرة وأثر القرآن فى تحرير الفكر البشرى » .

* * *

١ — وفى مجال « تصحيح مفاهيم الاسلام » يجرى « جاويش » على النحو الذى يكشف عن عظمة الاسلام ، ويفتح الطريق أمام طلاب الحق ، فهو يتحدث عن « الاجتهاد » ويعتبره من أصول الاسلام الأولى ، فهو يؤمن به ويدعو الى فتح بابه ، والانتفاع باختلاف الرأى الذى عده الشارع رحمة لنا ، وهو يرى انه « اذا تيسر لنا معشر المسلمين أن نسترد بضاعتنا ويقوم فيها مجتهدون أكفاء لممارسة الاستنباط والقياس فلن يكون اجتهادهم فرديا ، بحيث يقوم فى مصر مجتهد تلتف حوله جماعة ، وفى الهند آخر يطيف به آخرون ، وفى قازان ثالث يشايعه مشايعون ، بل قد يكون اجتهادهم اجماعيا ، فاذا رأى أحدهم رأيا سواء استنبطه بنفسه أو قال انه لغيره من الأئمة الأقدمين ، فيستحسن تطبيقه لا سيما فيما يتعلق بالمصالح العامة وأمور السياسة والتشريع والاجتماع » [1] .

وهو يدعو الى مراعاة أحوال الزمان والمكان فى تطبيق

---

(١) الهداية (مايو — يونيو ١٩١٠) .

الشريعة الغراء ، ويقول ان من الواجب تطهير الشرع من بعض الأحكام الاستنباطية التى قررها نفر من أهل العلم دون رعاية للمصلحة العامة التى هى أصل من أصول الشرع الشريف » وينعى حيدتنا عن طريق السلف الصالح فى رعاية الأصلح الأليق بحال الزمان والمكان ، ويقول « اننا لودرنا مع المصلحة العامة فى الدائرة التى رسمتها الشريعة ولم تتجاوزها لأمن مجتمعنا الانحدار » ، فقد سنت لنا شريعتنا أن نأخذ بالأصلح الملائم للأزمنة والأمكنة حتى لا يكون على الناس حرج ولا ضرار ، بل رخصت أن نعدل عن النص اذا ثبت ثبوتا قاطعا ان الضرورة توجب هذا العدول ، وعنده « ان رعاية المصلحة والأخذ بما يلائم حال الزمان والمكان ميزة امتازت بها هذه الشريعة الغراء فهى لم تلجىء أتباعها الى المضايق ليمكن انطباقها على مقتضيات الأحوال ، ورخصت بالعدول عن النص فيما نص عليه الشارع الى ما هو أصلح وأعود على الأمة بالخير متى تحقق ذلك تحققا كافيا » (١) :

وهو فى حديثه عن « الربا » يجرى على ما قرره أعلام الاجتهاد ، فالربا الذى حرمه القرآن — عنده — هو الربا المضاعف ، لأنه كان معروفا فى ذلك الوقت « أما تحريم القليل من الربا فانما هو بطريق القياس والاجتهاد » وقال : « ان الضرورات بأنواعها موجودة فى جميع الممالك الاسلامية ، واستنتج من ذلك اجازة التعامل بالفائدة القليلة ما دامت هذه الضرورات .

---

(١) الهداية (مايو ١٩١١) .

وفى عرضه لحرية الفكر فى العالم قبل الاسلام وأثر القرآن فى تحرير الفكر البشرى ترى أسلوبا علميا غاية فى الاستقصاء والعرض لمختلف ملامح وجوه الفلسفات والأديان وأبحاث علماء أثينا ، ومقارنات واسعة بين أفلاطون وسقراط ، ثم نظام محاكم التفتيش والكنيسة والنهضة العلمية وفلسفات لوك وسبيوزا وفولتير وروسو .

وقد صور ما واجهه العقل البشرى فى الغرب من الأزمات ، وكيف جاء القرآن « فلم يذر وسيلة موصلة الى انعاش العقل وتحرير الفكر الا تذرع بها ، فهو اذا تحاكم فالى العقل ، واذا حاج فبحكم العقل ، واذا سخط فعلى معطلى العقل ، واذا رضى فعن أولى العقل وقد جادل القرآن من جادل من أرباب الملل والنحل والماديين والدهريين فما قارعهم الا بالبرهان ولا دعاهم الا الى البحث والنظر .. » .

ثم مضى جاويش فى هذا العرض على نحو علمى رائع وكان من أهم ما عنى به عندما أصدر مجلة الهداية انشاء باب « أسرار القرآن » وقد صور خطته فى هذا الصدد فأشار الى أنه وضعت فى سبيل بيان كتاب الله كثير من المؤلفات نحا فيها أصحابها مناحى متغايرة فمنهم المتعسف المتكلف ومنهم الراجع فى بيان كثير من أبواب القرآن الى الاسرائيليات وغيرها ، وفيهم المنهمك فى حمل كتاب الله على ما علمه أو تعلمه من المسائل الفلسفية ، ومنهم من حملوه فوق طاقته وأثقلوه بالنكت البلاغية والدقائق اللسانية التى وضعها علماء النحو ، حتى صوروا كتاب الله كأنه رموز وألغاز

عميت على الناس ، فلا سبيل الى ادراكها وتعرف أسرارها الا بقراءة ما تدفقت به بطون التفاسير من الأقوال والتشكيلات » ومن أجل هذا حاول أن يأتى على تفسير ما استعجم على كثير من المفسرين معتمدا فى ذلك على ما يفيده القرآن نفسه أو ما تفسره به السنة الصحيحة .

وقد حرص « جاويش » أن يقوم بتفسير القرآن على نحو عصرى سلفى على النحو الذى بدأه الشيخ محمد عبده واستمع اليه جاويش فى الرواق العباسى سنة ١٩٠١ ، وهو فى كثير من عروضه للاسلام والقرآن يستشهد به ويردد اسمه مسبوقا بعبارة وقال « أستاذنا » .

٢ — وقد عنى « جاويش » فى كل كتاباته عن الاسلام والقرآن الى « رد الشبهة وادحاض ما يكيلونه جزافا من الأكاذيب » ، وبيان ان الاسلام دين الفطرة التى فطر الله الناس عليها ، ولطالما عرض لآراء المستشرقين ورده على فولرس الألمانى فى مؤتمر الجزائر ١٩٠٥ معروف [1] .

وعنده ان المستشرقين أصبحوا دعاة للاستعمار وبقوة علمهم أصبح أهلوهم سادة البلاد التى درسوا لغتها ، ومع تأدبهم بآداب العرب واستفادتهم من علومهم فانها لم تزدهم الا جفوة وغلظة وعقوقا » .

---

(١) سبقت الاشارة اليه .

كما تناول بالرد أخطاء مرجليوث فى كتابه « محمد وارتفاع الاسلام » التى نقلها عنه مستر سكوت فى أبحاث مطولة ظهر فيها وجه التعصب والانحراف ..

قال : ظهر هذا الكتاب وأنا باكسفورد فلم يقدمه مؤلفه الى مخالفا بذلك عادته معى اذ كان يهدينى جميع مطبوعاته وتآليفه ، وقرأت هذا الكتاب فوجدته محشوا بالمخازى .. والمفتريات التى لا يختلقها الا قسيس متعصب لا مستشرق مؤرخ ، فأدركت سر اخفائه الكتاب عنى ، وتصديت للرد عليه فى بعض الجرائد الهندية الاسلامية ، ولقد كنت أود أن أستبقى ود هذا الأستاذ ، لولا أنه لا بقاء لود من يتعمد تشويه الحق ، ويسىء الى التاريخ بما يودعه من المفتريات .

وقد اشتهر مرجليوث بقدرته البليغة وعلمه الواسع باللغة العربية وأنا لا أريد أن أذكر هنا رأيى فى هذا المستشرق الشهير اكتفاء بحادثة وقعت لى معه فى اكسفورد ، ذلك اننى كنت مدعوا معه فى بعض المنازل ، فلما كنا على المائدة سألنى بعض الحاضرين : هل سبق لك أكل (لحم جذور) فأجبته اننى لا أذكر ذلك وربما اتفق لى هذا وأنا صغير ، فلما سمع الأستاذ مرجليوث هـذا الكلام قال : كيف ذلك وعلى كل مسلم أن يأكل لحم الجمال ولو مرة فى حياته ، عند ذلك أجبته وأنا دهش مما قال :

يا سيدى : اننى أعرف أن قواعد الاسلام خمس ، أما هذا السادس فلا أعرفه ، وانى أستميح الأستاذ عفوا أن يذكر لى مأخذ هذا الحكم ، فقال ورد فى صحيح البخارى أنه قد جاء

أحد اليهود الى الرسول وقال له : انى جئت أشهد « أن لا اله الا الله وأنك رسـول الله » . فأجلسه الرسول وأمر له (بلحم جزور) ومن هنا استنبط المستر مرجليوث انه يجب على كل مسلم أن يأكل لحم الجزور ، وان هذا من العوائد الاسلامية التى يهدم الدين بانهدامها ؛ فلما فرغ قلت له : ان صح وجود هـذا الحديث فى البخارى فالذى يفهمه المسلم الذى يفقه اللغة العربية منه أحد أمرين ؛ اما أن يكون الرسول أراد أن يقـدم لذلك اليهودى شيئا من الطعام لأنه ضيفه فى بيته ، واما انه أراد أن يمتحن ايمان اليهودى باطعامه شيئا مما حرمه الله على بنى اسرائيل فى التوراة من أجزاء اللحم ، ثم تلوت الأدلة المفيدة لذلك ، فبهت الأستاذ ولكن قوة المكابرة وشدة العناد التى فطر عليها الأوربيون ولا سيما المستشرقون لم تحوله عن رأيه ثم علق جاويش متهكما وقـال :

« وبمثل هـذا الأسـتاذ يقتدى واضعوا الكتب التاريخية والقانونية ومن مثله يتلقى أمثال مستر سكوت آداب الاسلام ودقائق أسراره » .

* * *

٣ — وكان له موقفه من الرد على ما أورده محمد كرد على فى محاضرته بالقاهرة عام ١٩٢٧ فى مدرسة المعلمين فقد أشـار (كرد على) الى أن المستشرقين خدموا اللغة العربية باخـراج ذخائرها ؛ وتعريف المعاصرين من أهلها بمجد أسلافهم هنـاك

وتصدى « جاويش » للمحاضر فأيد ما ذكره من فضل المستشرقين وخدمتهم للعربية بما نقلوه منها الى اللغات الأجنبية .

ثم أضاف بأن المستشرقين فى العصر الحديث أصبحوا دعاة للاستعمار والسياسة وبقوة علمهم أصبح أهلوهم سادة البلاد ، التى درسوا لغتها ؛ ومع تأدبهم بآداب العرب واستفادتهم من علومهم فانها لم تزدهم الا جفوة وغلظة وعقوقا .

وقال ان المستشرقين انما يتفوقون وينتفعون بما يجدونه من مساعدات مادية ومعنوية فهم يسيرون للبحث العلمى تتقدمهم مدافع حكوماتهم وأموال أوقافهم المرصودة لخدمتهم ، وقد امتازوا فى كل ما نشروه وطبعوه بالدقة والأمانة وحسن الترتيب ..

وأشار جاويش الى عدد من المستشرقين انحرفت مفاهيمهم ومنهم رجل يظن أن أكل لحم الجمل من الفروض الاسلامية وثان طبع كتابا عن القرآن قال فيه ما يدل على جهل مبين باللغة وأصلها وآدابها ؛ وثالث طعن فى القرآن فى محاضرة بمؤتمر المستشرقين بالجزائر وقال : ولكن الى جانب هؤلاء غير واحد — يمكن الأخذ منهم والوثوق بكل ما يكتبون » .

وهكذا يبدو « جاويش » يقظا ومنصفا فى نفس الوقت لا يقبل كل شىء ولا يرده جملة .

٤ — وكانت مجلة الهداية (فبراير ١٩٠٠) تهدف أساسا الى الدفاع عن الاسلام ؛ وصور جاويش فى مقدمتها هدفه منها « أصبح كثير من المسلمين فى تفريطهم فى هذا الدين القيم شيعا ، فمنهم من غرتهم زخارف المدنية ، وغرتهم منها حال صرفتهم عنه ،

فلم يبق لهم منه الا السمة والرسم ؛ نشأوا فى جحر التفرنج ؛ ودرجوا فيه ، ومنه خرجـوا يعبدون كل ما يخشونه أو يرجونه ومنهم من أنستهم دينهم النشأة الفاسدة والبيئة الجاحدة ، « ومن أجل هؤلاء جميعا أخذ يعمل فى هذا المجال « يهيب بالمسلمين داعيا اياهم الى السبيل القويم » .

٥ — ولم يتوقف « جاويش » عن مهاجمة الأمراء الذين استغلهم الاستعمار لافساد مفاهيم الاسلام ، « فان هؤلاء الأمراء والملوك ما ارتقوا عروشهم الا باسم الاسلام ، وبالاسلام يتجرون ، كلما حاولوا شهوة من الشهوات النفسية ولذا كان للأوروبيين بعض العذر فى تصور الدين كما يشاء رؤساؤه مشوها محشوا بالنقائص مصبوغا بالرذائل ، وعنده أن أولئك الأمراء يستعبدون الناس ويسخرونهم فيخيل للناس أن الاسلام دين تعبيد وتسخير ويحاربون العلم ومعاهده ، ويحجبون بصائر أممهم عن نور العلم حتى لا يمكنوهم من معرفة حقوقهم ، وادراك ما لهم وما عليهم ؛ ثم يتطرقون الى اتهام الدين بأنه دين لا يتفق مع العلم ، ولا يلائم الرقى البشرى وأنه بطبيعته منافر للحضارة والتمصر » ومن رأيه أن الأوروبيين حين يلصـقون بالاسـلام الكثير من النقائص والهنـات ، انما يستدلون على ذلك بما يفعله الأمراء والملوك الاسلاميين منذ القدم ، وأن أكثر الفتن والدسائس فى البـلاد الاسلامية لا تثيرها الا الأيدى الأجنبية ؛ أيدى الذين لا يغفلون طرفة عين عما يفعل أمراء المسلمين بأممهم ولا يجهلون ما يجلبه هؤلاء على أنفسهم من الوهن والضعف » ، كما هاجم شاه ايران

الذى طالبه قومه بالدستور فقال لهم انه مناف للدين والشرع ؛ وأبدى دهشته من ذلك وقال : ان الشاه مع أمته يريد أن يأخذ من مالها لتفتقر ومن قوتها لتهن ، ومن عزها لتذل ، يريد أن يبيعها جاهلة بحقوقها [1] .

ولطالما هاجم جاويش الصحف الأوروبية التى تعرضت للاسلام والمسلمين وحاولت اثارة الفتن .

وعنده ان أغلب العاملين فى المجال الصحفى والسياسى من الأجانب انما يدرسون اللغة العربية والتاريخ متخذينها سلاحا لمحاربتنا ، وانهم يستخدمون كتبا محرفة لاعطاء صورة مشوهة لنا . ولم يقف أمره عند هذا الحد ، بل هاجم زعماء الطوائف الضخمة التى يراها منحرفة عن أصول الاسلام ؛ وخطابه المفتوح فى مهاجمة السيد البكرى شيخ مشايخ الطرق الصوفية يعطى صورة هذا اللون من الاصلاح « لا نزال نرى ما أنكرنا على السيد الانكار كله فى قعوده عن ازالة المنكرات التى يقع فيها العامة من المسلمين على وهم انها من الاسلام وهو منهم براء ، ولا يكسب منها فى الدنيا الا البلاء ، وفى الأخرى الا الخزى والعار ، رأينا ما لو أراد السيد أن يمحوه غاضبا للدين لكان مثابا وموفقا ، ولأثنى عليه المسلمون فى كل مكان ، رأينا الضلالات يقترفها بعض مشايخ الطرق نهارا جهارا فى ساحة العباسية وحلوان وفى غيرهما من الأماكن التى احتفل فيها بالمولد

---

(١) ٢٤ نوفمبر سنة ١٩٠٨ (اللواء) .

النبوى بين سمع السيد وبصره ، وعلى مرأى ومسمع من علية علمائنا هداة الأمة وأخيارها ؛ وحماة الشريعة السمحة وأنصارها .

نصبت حلقات الذكر فكانت مراقص تميد بالراقصين على نغم المزاهر وغناء المغنيين ، وهم يحسبون انهم يذكرون الله ، تعالى الله عن الهذيان علوا كبيرا ؛ ماذا يصنع السيد البكرى اذا كان يغضى عن مثل هذه الضلالات ، وهو لو شاء لمنعها أن تقام ، ولتطهرت منها ساحة الاسلام » (١) .

وما تكاد تظهر بعض الكتب الطاعنة على الاسلام ، فى المدارس حتى يهاجمها بعنف « الى متى يطعن على الدين فى مدارسنا » ويهاجم كتاب مستر سكوت الذى قرر تدريسه فى المدارس ؛ وقد ملأه بالمثالب والمطاعن كما هاجم كتاب ميكا كلارك الذى وزع على القسم الثانوى فسحب من أيدى الطلبة ؛ وهاجم منتخبات أرنولد من كتابات اديسون فى مجلة سبكتاتور وقال لنا رأينا فيها اختلاقا على القرآن وطعنا على النبى .

* * *

ومضت حملاته على خصوم الاسلام قوية ، ومضى خطوة ، فى الطريق الذى فتحه جمال الدين ووسعه محمد عبده ، لولا انه لم يكن يولى عملا من هذه الأعمال اهتمامه كله .

ملامح شخصيته

نحن ازاء شخصية رجل اختلف فيه الناس أشد الاختلاف ، فرفعه بعضهم الى مقام القديسين واتهمه الآخرون بالوصولية والانتهازية فأيهما « هو » فى الحقيقة والواقع ؟

ان شخصية « جاويش » تكشف عنها الوقائع على نحو واضح لا يقبل الشك أو الجدل أو الشبهة ، فقد خرج الرجل من أحشاء الشعب ، ودفعه ذكاؤه وايمانه بشخصيته أن يهجر التجارة مهنة أهله ، ويصر على أن يكمل تعليمه ثم لا يلبث أن يلم بالأزهر ويتركه الى دار العلوم ، فيبرز فيها شاعرا وكاتبا وخطيبا فإذا تخرج فيها أتاحت له درجاته أن يكون من المبعوثين الى أوروبا ؛ وفى عصر كانت بريطانيا المحتلة لمصر قد خفضت البعثات ، فلا يلبث أن يعود الى مصر ليلى منصب التفتيش بوزارة المعارف ، ثم يعود مرة أخرى مدرسا للأدب العربى فى جامعة كمبردج سنوات ؛ فاذا آب الى القاهرة وأعطى منصبا كبيرا (١٩٠٦) وتزوج (١٩٠٧) لا تقف همته عند هذا الحد وهو جد كفيل بأن يرضى المثقف ، فاذا هو يهجر كل هذا ويحطم من حوله قيد الوظيفة ؛ لينزل الى ميدان غير مأمون الموارد ، عسير مضطرب ويحمل « قلمه المر » ليهاجم الاحتلال ورجاله وأعوانه على نحو مثير

عنيف فاذا سئل عن منصبه الذى هجره قال : « آلينا على أنفسنا أن نخدم هذه الأمة خدمة صادقة غير منتظرين من ورائها جزاءاً ، انني لست نادما على ترك الحكومة ، وليست وظائف الحكومة عندي الا فضالة زاد نبذتها وصبابة ماء عففت عنها وعفتها » .

وفى حدود الجنيهات الأربعين التى كان يحصل عليها عاش لا يراه أهله الا لماما ، كل يومه فى اللواء ، أو فى الجمعية أو النقابة أو النادي محاضرا ومتحدثا ، أو مجتمعا بالناس أو جامعا للمال . لينشىء به هذا المشروع أو ذاك .

ثم هو بعد ذلك عرضة للسجن ، شرف الكلمة عنده فوق كل شيء ، يردد دائما « لأن ينالنى الضرر من جراء جهرى بالحق ، لخير من أن ينال الحق ضرر من جراء احجامى عن الجهر به » .

ثم هو يعيش فى هذا الوسط المضطرب المائج بالمؤامرات ، الانجليز يحكمون البلد حقيقة وفعلا ، الأمير هو صاحب السلطان الشرعى ، وكرومر ومن بعده غورست هو الحاكم الفعلى ؛ الوزراء يختارهم ممثل الاحتلال ، المستشارون الانجليز فى كل وزارة هم الذين يصرفون الأمور ، الصحف المختلفة تمالىء الاحتلال أو تهاجمه برفق ، أو تناصره ، الا هذا القلم فى تلك الصحيفة لا يتردد فى أن يقول كلمة الحق متأهبا لأن يذهب الى السجن ، نشيده دائما .

« نحن لا نرضى أن نقيم على الضيم ، ثم لا نرضى بسلطان الأجنبى علينا ، نحن لا نقبل أن نباع بيع السلع فى الأسواق . ولا نصبر على العسف والجور » .

فما هو هذا الرجل ؟ ذو الطلعة الحلوة المهيبة المشرقة ؛ فيها العزم والتصميم وفيها الوداعة والحنان ؟ هو هادىء دائما سمح دائما الا أن يتصل الأمر بحق من حقوق الوطن ، أو حرية من حريات الأمة ، فهذا هــو الذى لا يقبل أن يتنازل عن حقه ، أو حريته .

وصفه الذين عرفوه بأنه كان يجمع صفتى السماحة والصراحة والحيــاد والعنف ، لكل موقفه ولكل موضعه ؛ وشــعر شكيب أرسلان فى رثائه يصور هذه الحقيقة :

تغــدو أرق من النسيم فان عــرا
خطب غدوت الصــارم المسلولا
فى نغمة الحمل الوديع فان عــــدا
عاد ترى أســدا يفارق غيــلا

ويقول تلميذه طه حسين [1] انه كان عذب الروح ، حــلو الحديث فى حذق واحتشام ؛ شديد الحياء حتى ما يكاد يرفع بصره عن محدثه ، وكان مع هذا حاد المزاج يثور لأقل ما يتوهم فيه الغض من كرامته ، أو تهاون دينه ؛ بل مخالفة رأيه . على أنه كان من صفاء النفس وطيبة القلب وخاوص النية بالمكان الأرفع سمحا كريما يجود بقوته ، ولو لم يكن الى سواه سبيل .

وجاويش عند العقاد له من أبناء البلد الظرفاء مشابهة كثيرة . وهنــاك شبه اجمــاع على اتسامه بالاقدام والشجاعة الأدبية ،

---

(١) كتاب المفصل ـ طبعة ١٩٣٤ .
(٢) الفتح ص ٦٧٢ م ٣ .

والصلابة فى الحق ، والصبر على المكاره والتضحية كما وصفه عبد الحميد سعيد [٢] وأكبر مظهر بارز فيه — كما يقول الدكتور يحيى الدرديرى — شدة العاطفة الدينية والوطنية التى تكاد تلتهب اذا مست بأذى ، وتنزل شهبا وصواعق على من اعتدى عليها

فاذا ذهبنا نسأل عن مطامحه ، هل كانت فى سبيل التطلع الى الجاه والمنصب والمال وجدنا ممن عاشروه من تلاميذه وأصدقائه من ينصفه ، فابراهيم عبد القــادر المازنى تلميذه فى دار العلوم وزميله فى جريدة الأخبار ، يرى انه كان امرؤا لو شاء أن ينعم بالثراء ، ويقضى حياته فى ترف ولين ، لكان ذلك من أيسر المطالب ؛ ولقد كان فى تركيا صاحب حول وطول وكانت له كلمة مسموعة ورأى مطاع ، وكانت أمامه خزانة الدولة ينفق منها كيف يشاء فيما يضطلع به من المهمات ، ويتولاه من المساعى ، ومع ذلك رحل الى ألمانيا وليس معه قرش واحد واضطر فى جملة ما اضطر اليه أن يحتطب فى الغابات ليكسب رزقه ، ويقتات كأجهل عامل فقير ، ودارت الأيام ففر من تركيا فقيرا معدما لا يملك قوت يومه وعاد اليها فى عهدها الجديد فرفع مكانا عاليا ، حتى شاءت تركيا أن تنقلب دولة مدنية ، ففر منها مرة أخرى ، ولم ينج الا بجلده ، وبثوب واحد على بدنه وكان فى مصر ، قبل أن يهاجر ، لا يفتأ ينتقل بين السجن والبيت ، فهذا وذاك له منزل .

وكان عقله لا يكف عن التفكير فى عمل صالح من مثل مدرسة يريد أن ينشئها على أسلوبه يجمع بين العلم والعمل ، أو معهــد

أو جمعية خيرية ، ولم يكن يصرفه عن مداومة التفكير فى هذا وما اليه الا انه لا يكاد يجد القوت الا كفافا وانه عاش لا يدرى كيف ، وكم مرة جرلى معه ، فرحنا نزور البيوت الخالية لنرى أتصلح أم لا تصلح أن تكون مدارس ؛ وكنت أسأل عن المال اللازم من أين يظن أن فى وسعه أن يجىء به فيقول لا تقنطنى ؛ المال نفكر فيه فى أوان الحاجة اليه ؛ وعلى أن حاجتنا منه الى القليل ، ولن نعدم وسيلة .

سألته مرة : هل تعرف كم قرشا فى جيبك ، قال : لا والله قلت : جرب التخمين لترى ، قال وهو يبتسم : يا مازنى لا تفضحنى [1] .

وفى هذا المجال نفسه يصور الدكتور يحيى الدرديرى ؛ وكان سجينا معه فى حادثة محاولة اغتيال سعد زغلول سنة ١٩٢٤ كيف أنه وهو خارج من سجن المنشية « كان يحدثنى لا عن مصابه ، وأنا أعلم انه فى حالة عسر شديد ووراءه عائلة تشغله واذا هو يفاتحنى فى مشروع كان يملك عليه تفكيره وهو فى السجن ، ذلك فى تعميم التعليم الأولى وانشاء مجلة » [2] .

وتلميذه عبد العزيز البشرى يؤكد هذا المعنى فى أمر انصرافه الى الخدمة العامة دون مبالاته بأسرته « فالرجل منذ أول منجمة ، تجرد للخدمة العامة يطلبها ، ويحرر لها جهده ووقته ؛ أما نفسه

---

(١) السياسة الاسبوعية ـ ٩ مارس ١٩٣٩ .
(٢) مجلة الشبان المسلمين ـ مارس ١٩٣٠ .

وصحته وولده ، فذلك عنده أمر آخر ما يتعلق به التدبير ، وكان على جلالة منصبه يعيش على الكفاف حتى لكأنه يجهد فى العيش ليصيب فضلا من جل المرتزق ؟ وكان يرصد معظم راتبه لدائنيه أيام فاقته » .

* * *

فاذا ذهبنا وراء هذه المعانى وجدنا أمامنا مظروفه الخاص الذى صودر فى قضية كتاب وطنيتى سنة ١٩١٠ ولعلنا لو بحثنا فى محتوياته لأعطانا صورة لنفسية « جاويش » ومفاهيمه فى الحياة وما كان يشغله ويبدو قريبا من يده وذاكرته :

خطاب من أحمد منصور من طلبة الأزهر يطلب قبوله ضمن الوفد المخصص بالبعثة الأزهرية ، خطاب من الباجورى يستفسر عن الآية الشريفة : « انى متوفيك ورافعك الىّ » خطاب من فريق من الطلبة يستفسر عما اذا كانت اللغات من وضع البشر أو صنع الاله ، خطاب من محمود كمال يطلب مساعدته فى دراسة الطب بتركيا ، أبو هاشم يسأل ما هى الألفاظ المعربة فى القرآن والتى أنزلت بالأعجمية ثم عربها العرب ، على الشنطى بالمنصورة يسأل عما اذا امتزج الماء الطاهر بماء الكولونيا يبيح الشرع الأخذ به أم لا ؟ قصيدة الورد التى نظمها صاحبها ، ورق بوستة من فئة خمسة مليمات ، ايصالات المؤتمر الوطنى بباريس ، عبد السلام فهمى ارسال اشتراك مجلة الهداية .

ولا شك ان هـذه المحتويات لمظروف جاويش تعطى صورة الرجل المقصود من أجل العلم والمساعدة فى الخدمة العامة .

أما مكتبه فهو مورد كثير الزحام[1] كما رآه أحمد لطفى السيد (الموظف بدار الكتب) فى كل مرة أجده مدفونا تحت أنقاض كثيرة من الورق المتناثر والتقريرات فأتوسل اليه أن يهون على نفسه قليلا ، ومن حوله الفقراء والبائسون والمعوزون والمرضى وأبناء الأسر الكريمة التى أخنى عليها الدهر ، فهو عضو فى كل الجمعيات الخيرية والنقابات والاحسان فيه داء لا يهدأ أبدا ، فهو ينفق كل موارده فى اغاثة المنكوبين .

* * *

وهو كما [2] عـرفه يحيى الدرديرى رحيم القلب ، رقيق العاطفة ؛ شفوق على الضعفاء يفيض الدمع من عينه عند سماعه شكاية البائسين .

أما المازنى [3] فيقول ان أكثر ما تصل اليه يده يذهب فى سبيل المعوزين .

ولعل محك هـذه الشخصية صورة لقائه ومعاملته للحكام والملوك والأمراء ، فهو الذى حين التقى بالخليفة لم يقبل يده ؛ ولم يخر الى الأرض كما كان يفعل العظماء من أبناء جيله ، وحين أشيع انه قبل يد الخديو سخر من ذلك وقال : « لو كنت ممن يقبلون الأيدى لقبلت يد الخليفة السلطان محمد رشاد يوم ودعته

(1) العلم ـــ ٥ فبراير ٢٦ : عبارة أحمد لطفى السيد الباحث الموظف بدار الكتب .

(2) يحيى الدرديرى ـــ مجلة الشبان المسلمين ـــ مارس ١٩٣٠ .

(3) السياسة الأسبوعية م ١٩٢٩ .

بمناسبة سفرى الى المدينة المنورة لأؤسس بها الجامعة الكبرى بالنيابة عنه ، فقد أنابنى الخليفة عنه بالمرسـوم الذى بين يدى فلما ذهبت لوداعه ، أنا ومن كان معى من أعضاء البعثة تقدمنا الى غرفة رئيس التشريفات الشاهانية ، فما كاد يبلغ بابها حتى خر الى الأرض لذقنه يريناكيف تفعل فى تحية الخليفة ، أما أنا فقد مضيت الى جو الغرفة مستويا وما حييت الخليفة الا بتحية المسلمين « السلام عليكم ورحمة الله .. » ولما مد يده لمصافحتى مددت يدى اليه بالأدب الواجب لمقام الخلافة ، وانى أذكر كلمة صديقى الأمير شكيب قال : « انى قد سلمت عنى وعنك » فمن كان هذا مقامه مع خليفة المسلمين فكيف يهبط بنفسه الى ذلك الدرك ؟ وهل كان لمسلم يعزه الله بالاسلام أن يذل نفسه لأحد ؟ اننى لم أبتغ العزة الا عند الله . ولو كنت من أولئك لكنت أحرزت فى الدولة العثمانية ما شئت وشاء أصدقائى بها من الألقـاب والأوسمة ، وما رفضت ما عرض على أحد أصدقائى من صدورها اذ رغب الى أن اختار بعض الأوسمة لأجمل بها صدرى فقد أجبته أن الصدر التى يتجمل بوسام الشعب المصرى ليس فيه متسـع لأوسمة أخرى .. » (١) .

وقد كان هذا رأيه منذ قديم ، عندما هاجم الاتجار بالأوسمة والألقاب ، وكان ذلك موقفه من الأمراء « ليس من الشـهامة والمروءة أن يلتمس الرجل مقابلة ملك أو أمير بأجر يدفعه الى

---

(١) الأخبار - ٢٣/١٢/١٩٢٣ .

حواشي القصور وخولها ؛ ليقف أمامه وقفة العبد الرقيق وقد خلقه الله حرا لا يملكه غيره » ومن ذلك موقفه عندما دعى الى مقابلة الخديو فى الآستانة فلما قصده لم يجده ، وقيل له انه فى الطريق ، فأبت عليه نفسه أن ينتظر شخوصه على الرغم من كثرة التوسل اليه بالانتظار هنيهة وجيزة [1] .

وكان اذا دعى الى لقاء ملك أو أمير قابله بجبته وقفطانه ، ولم يلبس الملابس الرسمية التي كانت محتومة على كل من يقف هذا الموقف وقال عنه الملك فؤاد : انني أبغضه ولكني أحترم ما عنده من كرامة وشرف .

وعندما ولى تحرير اللواء قيد ولاءه للخديو عباس بأن يكون الخـديو مخلصا لوطنه ؛ ولم يتورع عن أن يهاجمه . وارتضى السجن دون أن يقبل أن يرسل كلمة اعتذار أو يطلب العفو من الخديو ، قال لثروت عندما حقق معه فى اباء ورجولة « اعـلم يا ثروت انني أعرف الله وأؤمن به وأخدم الانسانية طول حياتي ، وقد توكلت على الله وأنا مستريح الضمير » ، بلغ من تمسكه بملبسه وزيه أن أقام فى بيئة اكسفورد وبرورود سبع سنوات يلبس عمامته وجبته .

وعلى قدر رفعة نفسه وعزته فى لقاء الملوك والأفراد كان يلقى الفقراء والضعاف بمزيد من التواضع ؛ ويسعى معهم الى أمورهم ؛ وكانت سهام التآمر تحاك حوله ، ولكنه لم يكن

(١) الأهرام ـ ١٩٢٣/١٢/٢٥ .

يخشى غير الله فاذا حذره صديق من أحد معارفه هز كتفيه مؤمناً بأنه لن يصيبه الا ما كتب الله له وقد حذره المازنى يوما من رجل سوء « رأيته يطمئن اليه فلم يحذر ؛ لأن الاسترابة بالناس لم تكن من خلائقه فقلت له مشفقا من عواقب تلك البساطة :

— انك سريع التصديق وأطيب قلبا مما ينبغى » .

وكان مهيبا فى كل مواقفه ، ويرسم له تلميذه أحمد خيرى سعيد صورة حية فى هذا المجال :

« حججت الى دار الفقيد ، وأذن لى ، فالفيته يقلب صفحات كتاب فاحتلت على ذاكرتى أفتشها عما جئت من أجله ؛ أذهلتنى رهبة الموقف عن السلام ؛ قال خيرا ، فلم أجب وألقى على نظرة رقيقة ، وأشرق ثغره بابتسامة عذبة لم تفارقه طوال حياته فى البأساء والنعماء ، وملامح محياه تنم عن نشاط لا يفتر ، وجبين كالشفق توهجا وسحرا ، وعيناه تنفذان الى اللباب ؛ وتحيطان بالظاهر وتلحظان الدقيق وتتعمقان فيما وراء المرئيات وشاربه منتشر ينم عن فحولة واستبسال . سألنى عن حالى ، وتبسط معى فى الكلام عن الطلبة وشئونهم وما يجب أن يتأهبوا له من المسئوليات ورحب بفكرة ذهابنا الى فرنسا ، ونصحنا بأن نرجىء ذلك الى ما بعد حصولنا على البكالوريا ، خشية أن تفتننا ملاهى المدينة الحديثة ؛ وكان حديثه أقرب الى الأخ الأكبر منه الى الوالد ، فلما انصرفت شيعنى الى باب الغرفة ، وضرب كتفى بكفه وقال : فى حفظ الله ، اجعلنا نراك ، فحرجت أعجب ما أكون من

هذا الرجل العظيم ، أيشيعنى الشيخ جاويش الى الباب وهو الذى مشى الشعب فى ركابة يجر عربته منذ أيام قليلة ..

.. لقد كنا على فرط بشاشته وعذوبة حديثه تتهيب مجلسه » .

* * *

وهذه صورة أخرى يرسمها له تلميذه ابراهيم عبد القادر المازنى فى لقائين له : أولاهما فى لجنة الامتحان فى مدرسة المعلمين العليا ، وكان الامتحان برئاسة الشيخ حمزة فتح الله « ناولنى [1] الشيخ حمزة مقدمة ابن خلدون ، وقال اقرأ ، ففعلت ولم ألحن ؛ ورأيت سرور الشيخ جاويش فاطمأنت نفسى ووقعت المشادة بينى وبين الشيخ حمزة فأدرت عينى فى أعضاء اللجنة معاتبا قلت : ان اللغة وجدت قبل أن يوجد النحو والصرف ، وهكذا نطق العرب فغضب الشيخ وآلم ، ولم أتزحزح عن موقفى واذا الشيخ جاويش يخرج ساعته وينظر اليها ثم يلتفت ويقول للشيخ حمزة : الصلاة يا أستاذ ، كاد العصر أن يفوتك ، فنهض الشيخ وتركنا وقال جاويش :

« والآن يجب أن تكون أهدأ ولننتقل الى الأدب » .

ثم ذكر المازنى كيف ذهب اليه يستشيره فى اللواء وكان معه خلق كبير ، « فمال الى يسألنى فقلت ان الأمر خاص ؛ فنهض بى الى غرفة أخرى ، فأعربت له عن ضيقى بالتدريس ، ورجوت أن يشير علىّ بما يراه فراح يسألنى فعلم منى أننى مكب على

(۱) جريده الأخبار ۱۹۲۹/۱/۲۳ .

الأدب فقال : لو كانت البلاد حرة ، كما نرجو أن تصير ، لما ترددت في تشجيعك وان على أكتافك حملا ثقيلا وأنا أخاف عليك من أعاصير الحياة ، أخشى أن تكون أشرف من أن تصلح لحياة كل ما فيها فاسد عفن » .

* * *

وكان جريئا فى احتمال مسئولية ما يراه الحق ، فقد عرض عليه محمد عبد الفتاح الجمل برسالة ، وهو فى جريدة الشعب ، أغلظ فيها القول ، لبعض الكبراء الذين يعملون فى مجلس أعلى باحدى الوزارات ، فقال لصادق عنبر مساعده فى العمل انشرها ، قال عنبر : انه ليس بها توقيع ، قال جاويش : انشرها كأنها صادرة من قلمى ، يقول الجمل : فنشرها وكان لها دوى شديد واحتمل وحده مسئوليتها .

واذا كان « جاويش » قد أنصفه أنصاره وتلاميذه ، فان خصومه اعترفوا له بالفضل ، فبالرغم من الصراع العنيف الذى وقع بينه وبين رشيد رضا فانه اعترف بفضله بعد وفاته فوصفه بأنه « من أركان حزب الاصـلاح المعتدل الذى هو وسط بين المسلمين الجامدين والمسلمين الجغرافيين ، وانه كان من رجـال الحزب الوطنى المعارض لكل وزارة .

وانه « اتصل بالشيخ الامام فتلقح ذهنه بأفكاره وكنت أنا الذى قدمته اليه ، وذكرت له ذكاءه وغيرته وطموحه وهمتـه وجمعه بين التعليمين الاسلامى والأوروبى قال سله كم سنة مكث

فى الأزهر فان كان أطال فيه المكث فقد فقد الاستعداد للعلم فذكر انه لم يمكث فى الأزهر طويلا . وأشار رشيد الى قول جاويش : اننا كالموتى مدفونون فى نظارة المعارف ونحن أقدر على خدمة البلاد بالصحف وغيرها »[1] .

* * *

ولقد كان « جاويش » يوما فى نظر الكتاب الأجانب خطرا كبيرا ، غير ان الاتصال والبحث فيما كان يحمله من ايمان بوطنه دفع المنصفين الى تقدير فضله ، تقول جريدة الديبش اجبشيان[2] :

ان الشيخ جاويش رجل ذاع صيته حتى أصبح فى كل حادثة يتصوره الوهم كأنه صورة خرافية مزعجة ، ان الرجل الذى يجرؤون على اعتباره صوفيا زاهدا ، عدوا لأفكار الغربيين ؛ رسولا للعصيان داعيا للشقاق والحقد ، انما هو فى الحقيقة رجل بهى الطلعة ، حسن الوجه ذو صوت عذب ، وحركات تكشف عن آداب عالية وهو انسان مكمّل ، ورجل اقتبس مبادىء التجديد الغربى أكثر من كل انسان ، حتى أصبح بين قومه فيلسوفا ، فاذا تحدثت معه بضع دقائق تلاشت فى الحال تلك الأراجيف التى تحيط الصحف البريطانية اسمه بها » .

وعندما توفى قالت المانشستر جارديان البريطانية : ان تعيينه مراقبا للتعليم الأولى فى مصر عام ١٩٢٦ قد أثار بعض القلق فى

---

(١) المنار ج ٩ م ٢٩ (١٠ فبراير ١٩٢٩) .
(٢) ١٦ يولية ١٩١٠ .

نفوس البريطانيين على انه عالج وظيفته بقدرة وهمة ، فقام بواجبه بجد ، وأمانة ، وبعد ما كان زعيما محتدما ومندفعا ، غدا رجلا هادئا دمث الطباع وهو لا يترك فى الذهن أثرا بأن عداءه كان عن فشل وخيبة أكثر من عقيدة »[1] .

أما جريدة التيمس فقد صورته بأنه كان حسن الطلعة ذكى الفؤاد ، وعندما برح اكسفورد كان أحدث سـنا وأنزع الى الاستقلال ، وربما أشـد مرحا من أن يتسنى تعيينه مستشارا لوزارة المعارف .. وفى السنوات الأخيرة سئم السياسة وعكف على العمل ، وبرهن على أنه مرب كفء همام ، يميل الى التقدم العصرى ، ولم يبق فى نفسه أثر لما لقيه من المرارة والنكد فى أيامه الماضية واحتفظ بدماثة أخلاقه ولطفه » .

ولقد اعترف له أعلام الفكر فى انجلترا بالنبوغ ، وكتب مستر برون الأستاذ بأكسفورد يرد على جريدتهم « التيمس » عندما هاجمت جاويش[2] واتهمته بالقصور فى عمله التعليمى قال برون: ان مبلغ اطلاع الشيخ جاويش على اللغة العربية لا يختلف فيه اثنان من الذين عرفوه وهى انه متضلع فيها وقد اشتركت فى امتحان كثير من تلاميذه فى اكسفورد فكانت نتيجة أحسنهم تعليما دليلا على انهم تعلموا أحب ما يتسنى تعليمه ولا شك فى أن لباقته فى العربية جديرة بالاعجاب ، وبالأخص خطابه الذى رد

(١) ٢٦ يناير ٢٩ .
(٢) اللواء — ١٥ يوليو ١٩٠٨ .

به على فيلسوف ألمانى فى مؤتمر المستشرقين الذى انعقد فى الجزائر حينما قام هذا وطعن فى القرآن ».

* * *

من خلال هذه الصور المختلفة لجوانب شخصيه « جاويش » يبدو ذلك الرجل الغريب الذى لم يكن من طلاب الجاه أصلا أو المال ، الا ليصنع به مشروعا أو يفتح مدرسة ، أو ينفقه فى وجه من وجوه الخير ، وقد أعطى الجرأة والايمان بالله فما يخاف أن يجهر بكلمة الحق ، مهيب فى تواضعه ، بليغ العبارة ، حلو الحديث ذكى الفؤاد ، لماح ، لا يسرهب الملوك ولا الأمراء ، ولا يتملقهم يعيش فى بيته عيشة الكفاف : ولكنه عالى الكرامة ، لو أراد الغنى لاستطاعه فى يسر ، وهو الى ذلك قادرا على التحدى قوى الشكيمة ، الحوادث تضاعف همته وتقوى ارادته ، وفى غربته لم يكن عالة ولم يكن عميلا ، فيه من التجمل والصبر ما يقوى به على مواجهة أخطر الأحداث ، يحتطب فى الغابة ، ويسافر وليس فى جيبه قرش أو ينام على ظهر جواد أو يختفى اذا نجحت الوشاية به فى بدروم أياما لا يذوق الا القليل من الزاد ، ليس أهله غاية أمره ، فربما هجرهم دون أن يعرف من أمرهم شيئا ، دخل السجون وقطع الصحارى والهضاب بين البوسفور ، وألمانيا وسويسرا وطوف بفرنسا وبلجيكا والسويد والدانمرك وهولندا ، يجهر بكلمة الحق فاذا ضاق بوطن لم يتح له فرصة الحرية ليقول كلمته تركه غير مبال بشىء ، ربما هجم على خصمه بالكلمة المرة ، ثم تراه عطوفا على دجاجة صغيرة اختصرت

حياتها قبل أن تستوفى حظها من الحيـاة — وهو على حـد قول المازنى — « حالم شفاف النفس ؛ يعرف الدنيا ويزهدها على الضرورات كأنما يبذل عن سعة ، ما وقف أحد منه على مظنة حاجة ولا لأحد عليه منه » .

* * *

ولكن « جاويش » النموذج الكريم للرجولة والثقافة لابد كانت له عيوبه وأخطاؤه ، لعل المازنى أراد تصويرها حين قال انه لم يكن متحفظا من الدساسين ، وانه عاش مـوزعا بين طبيعته وارادته ، طبيعة الرجل الحالم وارادة رجل العمل .

وربما كانت عاطفته المشبوبة وحماسته الدافقة هى مصدر متاعبه ، وهذا ما صوره تلميذه وصديقه الدكتور الدرديرى فى عبـارته :

« كنت تصيب وتخطىء وتكبو وتستقيم فى سيرك » [1] .

وعندى ان « جاويش » رجل طموح لوطنه ولأمته ، متطلع الى العمل ليقف فى صف المجاهدين والأئمة الهداة جميعا ، فقد كان تلميذا لجمال الدين . بالفكر ، ولمحمد عبده ومصطفى كامل بالمعاشرة والمشاهدة ، ومذهبه فى العمل خليط من ذلك كله .

فقد اتسعت أمامه آفاق العمل فكان يحاول مجتهدا أن يعرف أيها يأخذ وأيها يدع ، ولقد كان من فرط حرصه عـلى العمل ، أن فتح على نفسه كل هذه الآفاق ، وخطا فيها خطوات

---

(١) م الشبان المسلمين مارس ١٩٣٠ .

واسعة وان لم تكن طويلة أو عميقة ، كان يظن انها جميعها تتكامل فى خدمة هذه الأمة : التعليم والصحافة والاصلاح الاجتماعى والتجديد الاسلامى وعمل الخير ، وانشاء المدارس الليلية والنهارية ونقابات العمال وجمعيات التعاون واصلاح الأزهر وارسال البعثات وانشاء المجلات وتأليف الكتب ، وكتابة المقالات السياسية وجمع المال لحرب طرابلس ، فهو يعمل فى كل هذه المجالات ، ولكنه لم يذهب فى مجال منها الى نهاية الشوط ، ولم يتفرغ له تفرغا كاملا .. وكان الى ذلك صاحب طبع عنيف ، عصبى ، قلق ، يريد أن يقول كلمته ، لا يقف حائل دون أن يقولها ، يواجه خصمه فاذا خصمه خاصمه بغاية العنف ولكن فيما يعتقده الحق لا يتمهل ولا يعرف الأناة ، ولا يتراجع ، ثم هو الى ذلك غير مستند الى جاه أو ملك أو عظيم فى ظروف قاسية ، وعهود قوى فيها سلطان الاحتلال وأغرى الكثيرين بأن يكونوا أعوانه ونصراءه ومن هنا شاعت حوله الشائعات ، وكان غريبا فى بيئته ، لم يفهمه أحد ، لأن تصرفه لم يكن منطقيا مع مفاهيم الناس ، مفاهيم المنفعة ، فقد عرف الناس فى جيله اما أعوانا للأمير أو للمعتمد البريطانى ولم يكن يسيرا أن يفهم الناس فلسفته وشخصيته وهو ليس من هؤلاء ولا هؤلاء ..

وكانت فى أعماقه صورة جمال الدين حية نابضة ، كأنما كان يخطو وراء خطوه ، الهجرة من غير زاد ، والحبة الواحدة ، والكلمة الثائرة والرغبة فى تغيير الأوضاع واثارة الثائرة ، على

المحتل وأعوانه جميعا ، وقد أتيح له أن يلقى مثل ما لقى من المشاق ، واستطاع أن يهز الدنيا مثله ولكنه شاء أن يجمع الى هذا الأسلوب أسلوب محمد عبده فى التربية وبناء النفوس ، وهو منهج يختلف كل الاختلاف عن منهج الثورة والعنف ، ويتطلب تفرغا كاملا ، وعلاقات طيبة مع من بيدهم الأمور ، حتى يمكن أن يتاح النجاح للخطة الواسعة الطويلة المدى فى بناء جيل جديد على نحو واضح من التربية والفهم والثقافة وكان عليه أن يأخذ بالحيلة ليكون فى مأمن من غدر الغادرين الذين يعرفون ان عظمة الأمة فى احياء أمجادها ولغتها ، وتنشئة الشباب على المفاهيم الصحيحة ومن هنا كانت مقاومته . فقد كان هم الاحتلال أن يطفىء هذه الشموع ، ويقضى على هذه المفاهيم ويذيع مفاهيم أخرى تحطم القيم فى نفوس الشباب الجديد ، وتخلقه تافها فارغا ، يطمع فى الوصولية ، يؤمن بثقافة الغرب ، ويحتقر وطنه وتاريخه .

ومن هنا جاء هذا التناقض فى شخصيته ، والاضطراب فى منهجه وكان لابد أن تتوقف الأمور وتتعقد دون أن تصل به الى الغايات الكبرى . .

ولقد أجمع الخصوم والأنصار على متانة خلقه ، ولكن المشاكلة كانت تأتى نتيجة تبنى منهجين مختلفين كل الاختلاف فى وقت واحد « منهج السياسة ومنهج التربية » ، فالسياسة بمؤامرتها وخططها واضطرابها كانت تحول دون قيام عمل التربية والاصلاح الاجتماعى على أسس ثابتة ، ذلك الذى كان لابد من التفرغ له تفرغا كاملا ، وهو ما حاوله جاويش بعد عودته من منفاه يوم

عاد مريضا مجهدا بعد اثنى عشر عاما من الهجرة قضاها فى متاعب لا حد لها .

ومهما يكن من أمر فقد كان جاويش صادقا مع نفسه ، حاول أن يعمل لأمته فى كل مجال ، وترك جذورا راسخة لا تموت ، أكمل بها أعمال من سبقوه على الطريق ، وأتاح الفرصة للفكر العربى أن يتفتح على نهج صادق من مناهج الفكر وهو التقاء الفكر العربى الاسلامى مع الفكر الغربى على قاعدة واضحة هى ايماننا بأنفسنا وشخصيتنا ، فلا نكون عملاء ولا مستوردين ولا تابعين ، ذلك هو منهج « المدرسة الوسطى » مدرسة البناء على الأساس الذى ندين له ونؤمن به .

مصادر البحث

(١) مقالات جاويش فى .

(أ) « الصحف » : اللواء ١٩٠٨ — ١٩٠٩
العالم ١٩٠٩ — ١٩١١
الشعب ١٩١٠
الأخبار ٩٢٣ — ١٩٢٤

(ب) « المجلات » : الهداية (١٩١٠ — ١٩١١)
العالم الاسلامى (١٩١٦—١٩١٧) .

مراجع البحث

عبد الرحمن الرافعى : مصطفى كامل .
عبد المنعم خفاجى : محمد فريد .
تقويم دار العلوم : الصحافة السياسية فى مصر .
انور الجنـــدى : النثر العربى المعاصر فى مائة عام .
رشيد رضـــا : المنار م ١٤ و ١٦ .
محب الدين الخطيب : الفتح (المجلد الثالث)
ابراهيم عبد القادر المازنى : السياســة الأسـبوعية ٢/٢/٢٩
و ١٩٣٩/٣/٣ .
حسن الشـــيخة : عبد العزيز جاويش (فى ١٢٠ ص) .
عبد العزيز البشرى : السياسة الأسبوعية ١٩٢٩/٣/٩ .
محمد أمين عبـــده : مجلة الشباب م ١ العدد ٨ .
الجريدة (١٩٠٨ — ١٩١٢) .
الأهرام (١٩٢٣/١٩٢٤/١٩٢٩) .
وصحف المقطم ، المؤيد ، العالم ، البلاغ .

مؤلفـــاته

الاسلام دين الفطرة : ويضم بحثه عن أثر القرآن في تحرير الفكر البشرى) ١٩٥٢ .

ارشاد المعلمين : ١٩٠٦ .

غنيـــة المؤدين : ١٩٠٣ — ١٩٢٦

الصحف الخـــالدة : ١٩٢٣ .

موضوعات البحث

صفحة

الدار القومية للطباعة والنشر

أعلام العرب

الكتاب القادم

ابن رشيق

الناقد الشاعر

بقلم :

عبد الرءوف مخلوف

يصدر فى ٧ سبتمبر ١٩٦٥

الدار القومية للطباعة والنشر